الرجل والجنس

نوال السعداوي

الرجل والجنس

تأليف
نوال السعداوي

هنداوي

الرجل والجنس

نوال السعداوي

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٦٥٠ ٦

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيدة الدكتورة نوال السعداوي.

المحتويات

ثمن الكتابة	٧
الإهداء	١٣
المقدمة	١٥
الإله الذَّكر والأنثى الآثمة	١٩
الرَّجل والعلم والجنس	٥٩
خوف الرَّجل من المرأة وعقدة النقص	٦٩
الإحساس بالذَّنب	٨٧
الرَّجُل والسادية	٩٥
الرَّجل والأورجازم الجنسي	١١٧
حنينُ الرَّجل لأن يكونَ أنثى	١٣٣
الرَّجل والشُّذوذ الجنسي	١٤١
الرَّجل والاستعراض الجنسي	١٥٣
خيالاتُ الرَّجل الجنسيَّة	١٦٣
الاعتداء الجنسي على الأطفال	١٧٧
نحو حضارةٍ أكثرَ عدالةً وأخلاقيةً	١٨٩

ثمن الكتابة

مقدمة قصيرة

لا أجيدُ كتابة المقدمات، يمكن أن أكتب قصةً من ألفِ صفحة، ولا أستطيع كتابةَ مقدمةٍ من نصف صفحة، أما رفيقة عمري فهي شخصية عصية على الفهم، تكتب في النوم كما تكتب وهي صاحية، لا تهتم بدورة الأرض حول نفسها، أو دورتها حول الشمس.

تضحك وتقول: نحن أحرار، ندور كما نشاء؛ حول أنفسنا، أو حول غيرنا، أو لا ندور.

لكنَّ عقلي يدور، رغم مشيئتي، في النوم كما في اليقظة.

أصحو من النوم كلَّ صباح على رنين الجرس، صوتها يأتيني من حيث تكون، في أيِّ مكانٍ فوق كوكب الأرض، هي تعشق السفر منذ كانت طفلة، لا تعود إلى الوطن حتى ترحل، مهما ابتعدت وطال الغياب، أراها أمام باب بيتي، بحقيبتها العتيقة بلون النبيذ الأحمر، حرقتها الشمسُ وأغرقتها الأمطارُ في الجنوب والشمال، أصبحت أقلَّ حُمرة مما كانت، وإن ظلت حمراء اللون، متينة العجلات قوية العضلات، أقل قوةً بمرور الزمن، تجرُّها من خلفها وهي تجتاز المطارات والمحطات، تنزلق وراءها بخفةٍ فوق الشوارع المرصوفة الناعمة، وتغوص بثِقلها في الأزقَّة حيث الحُفَر والمَطبَّات، مليئة بالكتب وملابسها وأوراقها، مِقبضها متين لا ينخلع، يحمل اسمها، داخل قطعة من البلاستيك الأبيض بحجم كف اليد.

اسمها الثلاثي كان مسجَّلًا في أقسام وزارة الداخلية والشئون الاجتماعية ومصلحة السجون وإدارات الرقابة على النشر والكتابة والمصنفات الفنية.

يحملق ضابطُ الشرطة بمطار القاهرة في اسمها الثلاثي، يتأمَّل صورتَها في جواز سفرها، يبتسم في وجهها: حمد الله ع السلامة يا أستاذة. يدق بالمطرقة على جواز سفرها فتدخل. وإن وصلت القائمة السوداء إليه قبل عودتها، يعتذر لها بِرقَّةٍ ورِثها عن أمه، يناولها كرسيًّا لتستريح وكوب ماء: آسف يا أستاذة، عندي أوامر لازم أنفِّذها. وإن كان عضوًا بحزب الجهاد أو داعش أو حزب الحكومة، يكشِّر عن أنيابه مبرطمًا بصوتٍ غليظ، ويحجزها مع حقيبتها في غرفة الحجر الصحي؛ حيث تلتقي بأنواعٍ مختلفة من البشر، بعضهم مرضى بالجُذام وإنفلونزا الخنازير، وبعضهم مصاب بالجنون أو الكفر، منهم الكوافير سوسو، كان شهيرًا في الحي الراقي بجاردن سيتي، اكتسب ثقافةً نادرة من الحلاقة للنساء والرجال، أصابعه ماهرة تدرك أفكارًا مدهشة في الرءوس التي تغوص فيها، يأتي سكان الحي الراقي إلى محلِّه الأنيق بشارع التنهدات، نساء ورجال من المثقفين أو الطبقة العليا، يؤمنون أن الإنسان تطوَّر عبر ملايين السنين من فصيلة الثدييات على رأسها الشمبانزي الأم الكبرى، وأن الأرض كروية تدور حول الشمس وليس العكس، وأن الكون نشأ بالصدفة البحتة حين حدث الانفجار الكبير وانتشرت في الفضاء ذرات، تناثرت وتجمَّع بعضها لتكوين أول مادة أو أول كتلة مادية في الوجود.

وكان من زبائن الكوافير سوسو، أيضًا، البوابون والطباخون في قصور الباشوات القدامى والجدد في جاردن سيتي، منهم الحاج منصور الشهير باسم طباخ الباشا؛ رجل سمين مملوء بالسمن البلدي والطعام الفاخر الذي يبتلعه سرًّا.

وبينما هو يترك رأسه بين يدي الكوافير سوسو، يحكي الحكايات القديمة عن المماليك والأتراك، كيف عاشوا في الأناضول، ولا بد أن يذكر الأسلاف من أجداده وعلى رأسهم جده الكبير، الذي حكى له وهو صغير أن الله خلق للثور قرنين؛ لأنه يحمل الأرضَ فوق قرن، وإن تَعِب من ثقلها حرَّك رأسه ونقلها إلى قرنه الثاني.

ويضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.

– لا، معقول يا سوسو، امال الزلازل والبراكين والبرق والرعد بييجوا منين؟

– منين يا حاج منصور؟

– لما الثور يحرِّك الأرض على راسه من قرن لقرن يحدث البرق والرعد، والزلازل تهز الأرض.

يضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور!

– لا، معقول يا سوسو.

– الكلام ده كان زمان قبل جاليليو.

– جاليليو خواجة يهودي نصراني ما يعرفش ربنا.

– لازم تعرف حاجة عن جاليليو يا حاج، اسمعني.

– سامعك يا خويا.

– جاليليو أمه ولدته في إيطاليا بعد العدرا مريم ما ولدت المسيح بألف وخمسميت سنة أو أكتر، وكانت إيطاليا وأوروبا كلها محكومة بالكنيسة وعايشة في الجهل والظلام، درس جاليليو الطب والهندسة والفلك، واكتشف أخطاء العلماء اللي قبله في اليونان، منهم أرسطو.

– أرسطو كان مؤمن بربنا يا سوسو؟

– أرسطو كان مؤمن بالكنيسة يا حاج منصور وبينشر أفكارها في كتبه، واعتبرته الكنيسة الفيلسوف الأعظم وأغدقت عليه الأموال والمناصب، لكن جاليليو عمل منظار جديد واكتشف خطأ أرسطو، وإن الأرض بتدور حول نفسها وحول الشمس، غضبت منه الكنيسة واتهمته بالكفر والإلحاد والخيانة؛ لأنه بيعارض الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة ونظرية أرسطو عن إن الأرض ثابتة لا تتزعزع ولا تتحرك أبد الدهر، قدَّموا جاليليو للمحاكمة وأدانوه، ومات فقير مسكين معزول في بيته.

– مين قال لك الكلام ده؟

– الباشا اللي باحلق له شنبه ودقنه.

– الباشا بنفسه يا سوسو؟

– أيوة يا حاج منصور.

– لازم كلامه صح مية المية، لكن أنا مش حاسس إن الأرض بتدور يا سوسو!

– لأنها بتدور بسرعة كبيرة يا حاج، وانت جزء منها وبتدور معاها.

– مش معقول يا سوسو!

– مثلًا وانت راكب جوة القطر يا حاج، لا يمكن تحس إنه بيجري بسرعة.

– لكن القطر غير الأرض يا سوسو، ولا إيه؟

– إيه يا حاج!

وينفجر الكوافير والحاج منصور في الضحك.

تخرج هي، رفيقة العمر، تجرُّ حقيبتها الحمراء ذات العجلات، من غرفة الحَجْر الصحي بالمطار بعد عدة ساعات، أو عدة أيام حسب مزاج الحكومة والمخابرات، ثوبها مكرمش وشعرها منكوش، نامت على الكرسي وإلى جوارها الحقيبة، تلمسها بيدها إن أفاقت في الظلمة فجأة، تخشى أن يسرقها أحد وهي غارقة في النوم، أو غائبة عن الوعي من شدة التعب، وفي أحد الصباحات، دون سابق إنذار، يأتي الضابط مبتسمًا، ويقول: مبروك يا أستاذة، صدر العفو الرئاسي عن بعض المعتقلين والمعتقلات بمناسبة العيد.

– أي عيد؟

الأضحى الكبير، أو العبور العظيم، أو شم النسيم في بداية الربيع، يصحو الناس في الصباح الباكر ليشموا البصل والرنجة والفسيخ، يتمشون على شاطئ النيل، الأغنياء منهم يشمون النسيم في المنتجعات الجديدة على شاطئ البحر الأبيض بالساحل الشمالي، أو في الغردقة وسواحل البحر الأحمر.

لكن يظل الفسيخ اللذيذ من نبروة، مع أصناف الطعام الفاخر ومعه البصل الأخضر والملانة والرنجة من ضرورات العيد، لإعادة الذاكرة الطفولية والخصوصية الثقافية وتاريخ الأجداد.

كنت أحب الفسيخ وهي لا تُطيق رائحته، لا تزورني أبدًا في المواسم، لا تحتفل بالأعياد، وعيد ميلادها لا تذكره، إن ذكَّرتها به تمطُّ شفتها السفلى وتنهمك في الكتابة.

– كم عمرك؟

– مش فاكرة.

– مش معقولة انتي.

– إنتي اللي مش معقولة.

– إزاي؟

– إيه يهمك من عمري؟
– عاوزة أعرف انتي عشتي كام سنة.
– ليه؟
– مش عارفة.

(انتهت المقدمة)[١]

نوال السعداوي
القاهرة
٢٢ مارس ٢٠١٧م

[١] تتصدر هذه المقدمة كافة أعمال الدكتورة نوال السعداوي.

الإهداء

إلى أوَّل امرأةٍ عظيمةٍ عاشت،
وماتت لتُصبحَ كَبش فِداء لجميعِ
آثامِ الرَّجل، حواء ...

المقدمة

لا بدَّ لي من الاعترافِ أنَّ فكرة عمل بحثٍ علميٍّ عن الرَّجل والجنس لم تكن في ذهني، وأنَّ دراساتي كانت تتجه إلى المرأة، بسبب القهر الذي عانت منه في مجتمعٍ سيطر عليه الرِّجال، لكنِّي ما إن أصدرت كتبي السَّابقة عن المرأة، حتى أصبح الرِّجال هم الأغلبيَّة ضمن هؤلاء الذين يطلبون مني الرَّأي والمساعدة لعلاج مشكلاتهم النَّفْسية والجسديَّة، ولأنَّني أغلقت عيادتي الطِّبيَّة منذ سنين طويلة، ولا أُومن بأنني يمكن أن أفتح عيادة أخرى، أبيع فيها الصِّحة أو النَّصيحة الطِّبيَّة والنَّفْسية للنَّاس؛ فقد أصبح تليفون بيتي يرنُّ على الدوام وينقل إليَّ أصوات رجال ونساء يعانون الألم والتمزُّق والمرض، وأصبحت حجرة المكتب في بيتي أشبهَ بعيادة مجانية بغير مواعيدَ سابقة، وبغير إخطار بالزيارة أفاجأ بالمرأة أو الرَّجل أو بالزوجين معًا، وقد دقَّا الجرس ودخلا البيت.

وقد جاءني كثيرٌ من الرِّجال من مختلف الأعمار والطَّبقات، لكنَّنِي توقَّفت طويلًا أمام مشكلة أحد الأزواج، وكان يعاني خوفًا شديدًا، ويظن أنه فقدَ قدرته الجنسيَّة أو على وشْك أن يفقدها، وأن زوجته سوف تكتشف ضَعفه أو عجزه فتذهب إلى رجلٍ آخر. وكنت قد مررتُ بكثير من الحالات الشبيهة، وأدركت أن عددًا كبيرًا من الرجال ينطوون في أعماقهم على خوف أو قلق من هذه الناحية.

وبدأتُ أدرس هذه الظواهر بعد أن اكتشفت أن هذا الخوف أو هذا القلق يفسد حياةَ الرجال النفسية والجسدية، بدرجاتٍ متفاوتة حسب شدة القلق ودرجة الخوف. وقادتني الدراسة، وهي على ما يبدو تدخل تحت علم الجنس أو تحت علم النفس، إلى علومٍ أخرى مثل الاقتصاد والفلسفة والدِّين والمجتمع والأخلاق، بالإضافة إلى علم البيولوجي والفسيولوجي والتشريح.

ووجدت نفسي كالذي يسير بين الألغام فعلًا؛ فالأرض كلها ملأى بأفكارٍ قديمة مقدَّسة نُسِبتْ إلى الأديان، والطريق أيضًا وعْر شديد الوعورة، لم يمهِّده من قبل إلَّا قليلون جدًّا من العلماء (رجالًا ونساءً) من ذوي الشجاعة الخاصة، ومن ذوي العقول المتكاملة والنظرة الشاملة إلى الإنسان، لا يَفصلون بين الجسد والنفس، ولا يفصلون بين الإنسان والمجتمع، وبالتالي لا يمكن لهم أن يَفصلوا بين العلوم الجسدية أو النَّفْسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية. بمعنًى آخر: لا يَفصلون بين علم التَّاريخ وعلم الأحياء والطبيعة والكيمياء والطب، وعلم النفس وعلم الجنس، وعلم الاقتصاد وعلم السياسة.

ومن أهم أخطاء وعيوب الحضارة والعلم الحديث، أنهما قاما على التخصُّص وعلى فصْل العلوم بعضها عن بعض. ونتج عن ذلك علومٌ ناقصة وحقائقُ مشوَّهة. أول مبادئ العلم هو أن ظاهرةً ما (مادية أو غير مادية) لا يمكن دراستها في ضوء الحاضر فقط، وإنما لا بدَّ من دراسة ماضيها؛ لأن هناك قانونًا عامًّا في الحياة هو قانون المسبِّبات والسببيات، يقول إن لكل شيء سببًا Cause & effect لكنَّ التخصص جعل بعضَ العلماء يدرسون المسبِّبات، وهم علماء التاريخ والاقتصاد والمجتمع والدِّين والفلسفة، وعلماء آخرون يدرسون السببيَّات أو الظواهر التي نتجت عن هذه الأسباب، وهم علماء الأحياء والطبيعة والكيمياء والجنس والطب والنفس، ونتج عن ذلك الانفصالِ جدارٌ كبير يحجز بين الأسباب وظواهرها. العلماء الذين يدرسون الأسباب لا يواصلون بحثَهم لدراسة ظواهر هذه الأسباب، حيث إن هذه الظواهر تقع في مجال وتخصُّص علماء آخرين.

مثلًا لو أخذنا ظاهرةً ما واضحة في حياتنا أردنا دراستها، مثل ظاهرة «العدوان»، فالحضارة التي نعيشها أصبحت تتَّسم بالعنف والعدوان والقتل والحروب المشتعلة في كل مكان، يأتي علماءُ الطب أو الأحياء (البيولوجي) ويذهبون إلى السجون أو يأخذون عيناتٍ من الخنازير أو الرجال، ويُجرُون عليهم أبحاثًا في المعامل من حيث رسم المخ وقدرات الذكاء وشكل الجمجمة وشكل الكروموسومات وعدد الجينات، ونِسب الهرمونات الذكورية والأنثوية في الدم ... إلخ، ثم يخرجون إلى العالم بنتائجَ تقول إن العدوان طبيعةٌ بشرية ذكورية بسبب الكروموسومات الذكرية أو الهرمونات أو الجينات.

لكن العلماء الذين درسوا التاريخ والمجتمع والفلسفة يصِلون إلى نتائجَ أخرى ويقولون إن العدوان لم يكن موجودًا في المجتمعات البشرية قبل أن يعرف الإنسان المِلكية وامتلاك الأرض. وأن الرغبة في الامتلاك هي التي جعلت الرجال يتنافسون ويتقاتلون. إن المِلكية امتدَّت من الأرض إلى امتلاك العبيد والنساء، فأصبح جسدُ العبد وجسد المرأة مِلكًا

للرجل، والرجل له مطلَق الحرية في التصرف فيما يملك، سواء كان قطعةَ أرض أو جسدَ امرأة أو جسدَ عبد، ويضربون لنا الأمثلة والدلائل على ذلك في مختلف العهود والمجتمعات.

بالطبع لا يمكن أن ننكر أن هناك أمراضَ المخ العضوية الناتجة عن حادث تمزُّق أو التهاب في بعض خلايا المخ بسبب ميكروبٍ ما، وغيرها من الأمراض العضوية في المخ التي تصيب بعضَ مراكز الذاكرة أو الغرائز أو الكلام أو النطق، والتي قد يصاحبها بعضُ الانحرافات في السلوك، مثل الميل إلى الإجرام أو الانحرافات الجنسية الشاذة. لكن عدد هذه الحالات قليلٌ جدًّا، ونسبة الإصابة بين البشر بهذه الأمراض العضوية ضئيلةٌ، بحيث لا يمكن تعميمها والقول بأن ظاهرة العدوان والتنافس والحروب وانتشار العنف والجريمة في عالمنا الراهن سببُها بعض خلايا مخ الإنسان، أو الهرمونات الذكرية أو الكروموسومات الموروثة من الأب.

وقد تعلَّمنا من الطب أن العلاج الصحيح لمرضٍ ما أو ظاهرةٍ ما لا يمكن أن يحدث إلا بعد أن نعرف الأسباب الحقيقية لهذا المرض أو هذه الظاهرة. والعلاج هو القضاء على الأسباب. ومن هنا أهميةُ معرفة الأسباب الحقيقية لأية ظاهرة نريد علاجها.

لا يمكن أن نعالج ظاهرةَ العدوان والعنف والجريمة في عالمنا الراهن إذا تصوَّرنا أن السبب داخل مخ الإنسان، ووجَّهنا العلاج نحو مخ الإنسان. قرأتُ أن بعض العلماء في أمريكا يقولون إن في مخ الإنسان «مراكزَ للعدوان»، ويمكن أن يُعالَج العدوان باستئصال هذا الجزء من المخ أو إضعافه بالكهرباء أو الأدوية أو الأجهزة الإلكترونية. ولكن هل مثل هذه العلاجات تقضي على ظاهرة العدوان في العالم؟ إنها قد تعالج بعضَ أمراض المخ العضوية (نسبتها لا تزيد عن ٢٪)، ولكنها لا تعالِج الظاهرة المنتشرة في العالم. أم هل يشير هؤلاء العلماء باستئصال خلايا العدوان من مخ الرئيس الأمريكي، قبل أن يُعلن الحربَ على بلدٍ صغير في آسيا أو الشرق الأوسط أو أفريقيا؟ وهل يشير هؤلاء العلماء باستئصال خلايا العدوان من مخ الرؤساء والحكَّام، الذين يسحقون الأغلبيةَ من شعوبهم قهرًا وجوعًا وظلمًا؟ وهل تُستأصل خلايا العدوان من أمخاخ رجال السينما والتلفزيون والإذاعة وأجهزة الإعلام، التي أصبحت ترتكز في معظم مواردها على الجريمة والعنف؟ وهل تُستأصل خلايا العدوان من رءوس الأزواج الذين يَعتَدون على زوجاتهم أو أطفالهم بالضرب العنيف لأي سبب؟

إن علم التَّاريخ وعلم الاقتصاد يقولان إن امتلاك الأرض (عامل اقتصادي) أدَّى إلى امتلاك إنسانٍ آخر (العبيد والنِّساء والأطفال)؛ أي إن المِلكية أنتجت الرِّق من ناحيةٍ، ومن

ناحية أخرى امتلاك الرَّجل لجسد المرأة،[1] وأصبح عقْد الزواج عقدًا اقتصاديًّا وجنسيًّا في وقت واحد.

وقد نتج عن امتلاك الرَّجل لجسد المرأة مشاكلُ جنسية ونفسية لكلٍّ من المالك والمملوك، كما أنتج الرِّق مشاكلَ اجتماعية واقتصادية ونفسية لكلٍّ من الأسياد والعبيد.

ومن هنا لا يمكن الفصل بين علم الاقتصاد وعلم الجنس أو علم النَّفس. إنَّ الجشع الاقتصادي قد أدَّى إلى قهرٍ جسدي وجنسي، وإلى ازديادٍ مطرد في العنف والعدوان بازدياد الرَّغبة في المِلكية والتوسُّع في الأملاك.

وإذا كنتُ في هذا البحث أحاول دراسةَ مشاكل الرَّجل الجنسيَّة وخوفه من فقدان القدرة الجنسية أو خوفه من الجنس بصفة عامَّة، فإنني بالضَّرورة لا أستطيع أن أَفْصِل الأسبابَ عن ظواهرها (أو المسبِّبات والسببيات).

ولهذا يجد القراء أنَّ هذا البحث بالرَّغم من أنَّه يتناول المشاكل الجنسيَّة والنَّفْسية للرِّجال إلا أنَّه لم يستطِع إلا أنه يتعرَّض أيضًا لبعض الأفكار الأخرى المندرِجة تحت الفلسفة أو الدِّين أو التَّاريخ أو المجتمع.

وليس الغرضُ من هذا البحث هو وضْع الرَّجل في قفص الاتِّهام وإصدار الأحكام ضده، ولكن الغرض الأساسي هو محاولة فهم الأسباب التي أدَّت إلى تشويه حياة الرِّجال والنِّساء معًا ومحاولة القضاء على هذه الأسباب من أجل بناءِ مجتمعٍ أفضلَ وأسرةٍ أفضل وحياة أكثر سعادةً وعدالةً وحبًّا.

د. نوال السعداوي

[1] سبق شرحُ هذا بالتفصيل في البحثين الأول والثاني من هذا الكتاب «المرأة والجنس» و«الأنثى هي الأصل».

الإله الذَّكر والأنثى الآثمة

أذكر أنَّني رأيت وجه أستاذ التَّشريح يحمرُّ قليلًا ويده ترتجف بعضَ الشَّيء حين أمسك أحد الأعضاء الجنسيَّة لجثةٍ في المشرحة، مع أنه كان يمسك الأعضاء الأخرى كالرئة أو الكبد أو الطحال في الجثة نفسِها دون أن يحمرَّ وجهه أو ترتجف يده.

وأذكر أيضًا (وكنت طالبة في كلية الطِّب) أنَّ ضِمن الأشياء التي حيَّرتني موقفَ أستاذ الفسيولوجي المتناقض إزاء نظرية التَّطور التي تقول بأنَّ الإنسان تطوَّر عن القرود، والفكرة القديمة بأنَّ المرأة وُلِدَت من ضِلْع الرَّجل.

وكان هذا الأستاذ نفسُه هو الذي أعطاني كتاب دارون «أصل الأنواع» لأقرأه، وهو الذي شرح لنا نظريةَ التَّطور وكيف تطوَّر الجنس البشري من إحدى فصائل الثَّدييات الرَّاقية من الغوريلا، وعرض علينا الهياكلَ العظمية والجماجم التي تثبت التشابه والتسلسل التطوري بينهما.

وحدَث حوارٌ بيني وبين هذا الأستاذ — لا أنساه حتى اليوم — ودار على هذا النحو:

قلت له: تقول إنَّ الغوريلا هي التي وَلَدت أوَّل إنسان ظهر في تاريخ البشرية!

قال: نعم.

قلت: وحيث إنَّ هذا الإنسان الأوَّل عُرِف باسم «آدم»، فإنَّ آدم وُلِد من رحم الغوريلا.

قال: نعم (وأذكر أنَّ وجهه احمرَّ قليلًا وارتجفت شفتاه بعضَ الشيء وهو يقول نعم).

قلت: وبالمنطق نفسِه فإنَّ أوَّل إنسان أنثى (أي المرأة) وُلِدت من بطن الغوريلا؟

قال: بالطبع.

قلت: وحيث إنَّ هذا الإنسان الأنثى عُرِف باسم «حواء»، فإنَّ حواء وُلِدت من رحِم الغوريلا.

قال: نعم (وأذكر أيضًا أنَّ وجهه احمرَّ قليلًا وارتجفت شفتاه بعضَ الشَّيء).

وأدركت على الفور شيئًا: أنَّ هذا الأستاذ كان يُفكِّر بطريقةٍ منطقية علمية حينما كنا نتحدَّث عن الإنسان الأول، لكن ما إن أُعطي هذا الإنسان الأول اسم «آدم» أو اسم «حواء» حتى اعترى تفكيرَه العقلي شيءٌ من العاطفة والانفعال ظهر على وجهه وفي نبرةِ صوته.

في حوارٍ آخرَ حول الموضوع نفسِه مع أستاذ الأجنة (الإمبريولوجي) اتضح لي أنَّ هذا الأستاذ الكبير يعتقد أن الإنسان تطوَّر فعلًا عن القرود، لكنَّه يعتقد في الوقت نفسه أنَّ المرأة وُلِدت من ضِلع الرَّجل، بمعنًى آخر أنَّه يضع الغوريلا في وضعٍ أعلى من الوضع الذي وضع فيه المرأة. فالغوريلا هي الأصل الذي خرج منه الجنس البشري، أمَّا المرأة فليست إلا فرعًا صغيرًا يُنْسَب إلى الجنس البشري كعضوٍ خارجي.

وقد وجدت من بعدُ أنَّ هذا الأستاذ ليس هو الأستاذ الوحيد الذي يقسِّم عقله إلى حجرتين منفصلتين يضع في كلٍّ منهما حقيقةً أو فكرةً تناقضُ الفكرة الثانية، ويفصِل بين الحجرتين بجدارٍ سميك.

إنَّ الذين يعيشون هذا القرن العشرين والذين تابعوا العلمَ في مختلف فروعه لا بدَّ أدركوا أنَّ العلم الحديث قد كَشف عن خطأ الفكرة المقدَّسة القديمة التي كانت تقول بأنَّ الأرض مسطحة، وأثبت العلم أنَّ الأرض كروية. كذلك كشف العلمُ عن كثير من الأفكار الخاطئة التي كانت مقدَّسة أو شبه مقدَّسة، وعرَّف النَّاسَ بحقائقَ لم يكونوا يعرفونها.

ومن أهم علامات العصر الحديث هي التَّفسيرات العلميَّة للكون والتطور والحياة والإنسان، التي قادها علماءُ مثل نيوتن وأينشتاين وجاليليو وداروِن وبافلوف وابن سينا وغيرهم ممن قضَوا على كثير من الخرافات التي كانت تبدو للنَّاس كالحقائق الثَّابتة.

على أنَّ من أهمِّ علامات الحضارة التي نعيشها أيضًا أنَّ معظم المفكِّرين والعلماء كانوا رجالًا، وكل الفلاسفة كانوا رجالًا، وكل رجال الأديان الذين فسَّروا الدِّين كانوا رجالًا، بمعنًى آخر يمكن القول إنَّ الأفكار التي وصلت إلينا هي من إنتاج الرِّجال.

نحن إذن في هذه الحضارة التي نعيشها نتعامل في كل وقت وفي كل مجال من حياتنا مع الفكر الرُّجولي؛ أي إنَّنا نتعامل مع نصف عقول البشر فحسب.

ولا يمكن أن نُنكِر أنَّ نساءً نادراتٍ ساهَمْن في هذه الحضارة (وأنَّ عددهن يزداد باستمرار)، لكنَّ عددهن كان ولا يزال قليلًا جدًّا بالنسبة لأعداد الرِّجال.

هذا الفكر الرجولي الذي يسود العالَم له سِماتٌ وصفاتٌ معيَّنة. وقد لوحظ أن أهم سِمات هذا الفكر ما يلي:

(١) تقسيم العقل إلى حُجراتٍ مُنْفصلة في كل حجرة حَقائقُ تتناقض مع الحقائق الموضوعة في الحجرة الأخرى، وذلك من أجل الهروب أو التَّوفيق الظَّاهري بين الأفكار العلميَّة الجديدة وبين الأفكار القديمة الموروثة.

(٢) الاستمرار في الاعتقاد بأنَّ المرأةَ أقلُّ من الرِّجال عقلًا بالرغم من الظواهر الجديدة التي صاحبت خروج المرأة وإسهامها في الحياة الفكرية، بل وتفوُّق عقول بعض النِّساء.

(٣) الاستمرار في الاعتقاد بأنَّ الجنس نوعٌ من الإثم، وأنَّ حواء هي التي أَغْرَت آدمَ بهذا الإثم، فأصبحت مسئولةً عن الخطيئة في العالم ومن بعدها تحمَّلت النِّساءُ الوزر نفسه.

(٤) الاستمرار في الاعتقاد بأنَّ الملكية هي التي تحدِّد قيمةَ الإنسان، وأنَّ الذي يملك أعلى من الذي لا يملك، وأن من ممتلكات الرِّجال: الزَّوجة والأطفال.

(٥) الاعتقاد بأنَّ العدوان جزءٌ من طبيعة الرَّجل من أجل حماية أملاكه وازديادها، ومن هنا تبرير التنافس والحروب المشتعلة في كل مكان.

والسؤال الآن الذي لا بدَّ أن نسأله هو: لماذا نظر الرِّجال إلى المرأة على أنها أقلُّ من الرِّجال؟ لماذا نُظر إلى الجنس على أنه إثم؟ وتقتضي الإجابة عن هذين السؤالين أن نعود إلى التَّاريخ ونبحث في حياة الرِّجال القديمة والحديثة عن البذرة التي أنبتت هذه الفكرة.

ويقودنا البحث بطبيعة الحال إلى أوَّل رجل، وأوَّل امرأة ظَهَرَا على الأرض وقد عُرِفَا باسم آدم، وحواء. لا بدَّ أنَّهما ظَهَرَا على الأرض منذ ١٢٠ مليون عام؛ لأنَّه ثَبت أخيرًا أنَّ عُمر البشرية ليس ٢٠ مليون عام فقط، وإنَّما عُثِر على ما يدل على أنَّ الإنسان كان يعيش منذ ١٢٠ مليون عام فوق هذه الأرض.

وقد عُرِف عمر الإنسان من حجمِ عظامِ الجمجمة وليس من الأسنان كما كان يظن بعض العلماء. ووُجِد أنَّ الكائن الذي تطوَّر عنه الإنسان كان حجم مخِّه حوالي ٥٠٠سم، أما حجم مخِّ الإنسان فيبدأ من ٦٧٠سم، وقد عُثِر على جماجم بشرية عمرها ملايين السنين، وكان هناك نوع من الإنسان منذ حوالي ١٥٠٠٠٠ عام يُسمَّى (Neanderthal) يختلف قليلًا عن الإنسان الذي نعرفه والذي يُسمَّى علميًّا (Homo sapiens)، وكان هذا الإنسان

القديم يمارس بعضَ العادات مثل دفن الموتى،[1] واستنتج بعضُ العلماء من هذا أن الإنسان القديم كان يؤمن بحياةٍ أخرى بعد الموت. ولكن هناك حيوانات تَدفِن موتاها، فهل معنى ذلك أن هذه الحيوانات تؤمن بحياةٍ أخرى؟! وتدل المصادر على أن أقدمَ التماثيل كانت لنساء، أحدها تمثال قالوا إن الفنان القديم رَمَزَ به إلى المرأة البدائية وهو يصوِّر امرأةً مليئة باللحم، لها ثديان كبيران متدليان وبطن بارز وفخذان سمينتان، والأعضاء الجنسيَّة منحوتة بوضوح وتضخُّم كبير. وهذا يدل على تمجيد الإنسان القديم لأعضاء المرأة الجنسيَّة وإعجابه بقدرتها على الحمل وخلق الحياة.

ومعظم الدراسات توضِّح أنَّ الإنسان في علاقته الجنسيَّة البدائيَّة كان يَنشد المتعة واللَّذة وليس الإنجاب فحسب. كان الإنجاب أمرًا ثانويًّا، وهناك رسومٌ عُثِر عليها في كهف «لاسيل» في فرنسا تصوِّر المرأة الراقدة في كبرياء وعظمة الآلهة القديمة، والرَّجل راكع رافع يديه نحوها في نداء جنسي واضح فيه ابتهالٌ وخضوع ورغبة عنيفة.

لم يُعْثر على تماثيلَ ورسومٍ أخرى في هذه العصور القديمة فيما عدا هذه الرسوم والتماثيل التي تصوِّر العلاقة الجنسيَّة بين الرَّجل والمرأة. والمرأة دائمًا هي صاحبة الكبرياء والعظمة، والرَّجل يكاد يستجديها راكعًا في محرابها. لم يُعْثر على رسومٍ تصوِّر المرأة كأم أو كزوجة، وإنما كانت العلاقة بين المرأة والرَّجل من أجل المتعة الجنسيَّة فحسب.

لم يكن الجنس إثمًا ولا خطيئةً، ولكن كان عملًا يكاد يكون مقدَّسًا من الطريقة التي يركع بها الرَّجل أمام المرأة.

وفي عهودِ ما قبل التَّاريخ عُثِر على آثارٍ ونقوشٍ تدل على أن الآلهة كانت الأنثى والأم آلهة الحياة والخصوبة. وفي بعض الكهوف في إسبانيا في (Cogni) عُثِر على نقوشٍ ورسومات لنساء كاملات، أما الذَّكر فقد رُسِمَ على شكل عضو التناسل. وعُثِر على مثل هذه النقوش والآثار في بقاعٍ مختلفة من العالم في الصين والهند.

على أننا لا نعرف إلا القليل عن هذه الفترات الأولى في عمر البشر، ولم يصبح تاريخ الإنسان معروفًا إلى حدٍّ ما إلا منذ خمسة آلاف عام تقريبًا من آثار قدماء المصريين وحضارتهم الأولى في تاريخ الإنسان.

---

[1] انظر:
The Religions Experience of Mankind, Collins, The Fontana Library, London, 1973.

وقد كان قدماء المصريين يعبدون عددًا من الآلهة. وكانت دياناتهم لا تفرِّق بين الذَّكر والأنثى، وتمجِّد الحياة والإخصاب والجسد والولادة والمطر والزرع والخير. وكانت الآلهة القديمة الأنثى هي آلهة الخير والخصوبة والنمو والحياة. لم يكن يُنظر إلى الأنثى على أنها أقلُّ من الذَّكر، ولم يكن يُنظر إلى العلاقة الجنسيَّة كإثم وعيب، ولم يكن الرَّجل يمتلك المرأة والأطفال؛ بل كانت المرأة هي التي تلد الأطفال ويُنْسَب الأطفال بالطبيعة إلى الأم، وينتقل الميراث إلى البنات. وكان إذا مات الملِك انتقل العرش إلى ابنته؛ ولذلك كان الأخ يتزوَّج أخته حتى لا يضيعَ منه العرش.

والحال نفسه كان في مختلِف أنحاء العالم، في إسبانيا وفي الصين والهند وفي اليونان. وعُرِف عن الديانات الإغريقية القديمة أنها كانت تمجِّد الحياة وتمجِّد الإخصاب والجسد، ولا تفرِّق بين الذكر والأنثى، والآلهة الأنثى القديمة هناك كانت أيضًا ترمز إلى الخير والنمو والخصوبة والحياة، ولم يكن يُنظر إلى الجنس كإثم. وكانت ولادة الأطفال أمرًا طبيعيًّا وانتساب الأطفال إلى أمهم شيئًا طبيعيًّا، وكانت الأم هي التي تلد الذُّكور والإناث على حدٍّ سواء، ولم يُعْرَف أن رجلًا ولَدَ طفلًا بحالٍ من الأحوال.

لكن الأمر لم يستمرَّ على هذا الحال؛ تغلَّب الرَّجل على المرأة بالقوة (وهناك آراءٌ عدة عن كيفية اكتساب الرَّجل لهذه القوة التي استطاع بها أن ينتصر على المرأة)[٢] وعزَلها عن عرشها في الدِّين وفي الدنيا. لم تَعُد الأنثى هي الإله، وإنما ظهر الإله الذَّكر، وتدل المصادر على أن معظم الأديان بعد ذلك قامت على أن الإله الذَّكر انتصر على الأنثى التي كانت كالوحش. وأصبح الأطفال يُنْسَبون إلى الأب، وأصبح الميراث يذهب إلى الذُّكور بدلًا من الإناث.

وكان الدِّين اليهودي هو أول الأديان السماوية الذي دعم فكرةَ الإله الذَّكر وسُموِّ جنس الذَّكر على جنس الإناث. ومع ظهور الدِّين اليهودي ظهر إلى النَّاس اسم «آدم» واسم «حواء» على أنهما أوَّل رجل وأول امرأة ظهرَا على الأرض. ومنذ ذلك الحين تغيَّرت النظرةُ إلى الجنس فأصبح إثمًا، وتغيَّرت النظرةُ إلى المرأة فأصبحت أقلَّ سموًّا من الرَّجل، ورمزَ الإثم، وتجسيدَ الخطيئة. وأصبح في مقدور الرِّجال فجأةً أن يلدوا من أضلاعهم (حواء من ضِلع آدم) أو يلدوا من رءوسهم (أتينا من رأس زيوس).

[٢] انظر الموضوع الأول والثاني من هذا الكتاب «المرأة والجنس» و«الأنثى هي الأصل».

وانتشرت في ذلك الوقت القصةُ التي تقول إن حواء هي التي أَغْرَت آدمَ بأن يأكل من شجرة التفاح التي حرَّمها الله، وأن هذه الشجرة أو التفاحة ترمز إلى العلاقة الجنسيَّة بينهما؛ لأنه في اللحظة التي أكلا فيها التفاحة انكشفت أعضاؤهما الجنسيَّة وغطَّياها بورق التوت.

وقد فاقت هذه القصة والطريقة التي فُسِّرَت بها الفكرة التي ارتكزت على دعامتين اثنتين.

(١) أنَّ الجنس إثمٌ، والأعضاء الجنسيَّة عورة.
(٢) أن حواء هي السَّبب في هذا الإثم.

ومن هنا نُسِب الجنس والإثم إلى حواء، ومنها أصبح صفةَ كلِّ النِّساء، وشاعت تلك الفكرة في العصور الوسطى وبين رجال الكنيسة. وصدَّق النَّاس أن الرِّجال هم ممثلو الله على الأرض؛ لأن الله ذكَرٌ والرَّجل صورةٌ من الله، أما النِّساء فهنَّ سلالة الشيطان وأمهن حواء الآثمة.

حينما كنتُ تلميذةً بالسنة الأولى في حلوان الثانوية طلب مني مدرس اللغة العربية أن أُعْرِب الكلمات في هذه الجملة «مصطفى يحمد الله»، فقلت: مصطفى اسم مذكَّر مبتدأ مرفوع، ويحمد فعل مضارع، والله مفعول به منصوب بالفتحة. وهنا أسرع المدرس قائلًا: أستغفر الله. وشرح لي أني يجب أن أقول: الله صاحب الجلالة اسم مذكَّر. وتوقَّفت عند كلمة مذكَّر قليلًا؛ فقد خطر ببالي سؤال على الفور: لماذا يكون الله مذكَّرًا ولا يكون مؤنثًا؟ وانتفض مدرس اللغة العربية في غضبٍ واستياء وصاح: أستغفر الله! كيف يمكن أن يكون الله مؤنثًا يا بنت يا عديمة الأدب؟! كيف تجرئين وتنسبين الله إلى جنس الإناث، وجميع الآيات تخاطب الله بضمير المذكَّر «هو» وليس ضمير المؤنث «هي»؟

وأعطاني في ذلك اليوم صفرًا في الإعراب، وهدَّدني بأن مثل هذا السؤال الغريب كفيل بأن يجعلني أرسب في اللغة العربية في نهاية العام لولا أنه سيغفر لي أفكاري الشريرة على ألا أعود إليها مرةً أخرى.

إلا أنني لم أكفَّ عن التفكير. قلت لنفسي حين كبرت أكثر إن الفرْق الوحيد بين الذَّكر والأنثى هو أن الذَّكر له عضو تناسل بارز. وإن كان مدرس اللغة العربية يقول إن الله مذكَّر وليس مؤنثًا، فهل معنى ذلك أن الله له عضو تناسل؟

وسألت أبي عن الحقيقة، وكان أبي إنسانًا واسعَ الأفقِ عوَّدنا منذ الطفولة على التفكير الحر والجدل وعدم الاعتقاد بشيء إلا عن طريق الاقتناع.

وقال لي أبي إن الله مذكَّر ولكن بغير أعضاء جنسية؛ لأنه رُوح فقط وليس له جسد مثل البشر.

وسألت أبي: هل هناك رُوح مذكَّرة ورُوح مؤنثة؟

ورد أبي: لا، الرُّوح هي الرُّوح، وهي تختلف عن الجسد في أنها بغير جنس.

قلت: لماذا قلت إذن إن الله مذكَّر؟

قال أبي: إنه رُوح، لا مذكَّر ولا مؤنث.

قلت: لماذا إذن تخاطبه جميع الآيات بضمير المذكَّر «هو» وليس بضمير المؤنث «هي»؟

وقال أبي: لأنَّه لا يصِحُّ أن يُخاطَب الله بضمير المؤنث.

وقلت: لماذا؟ هل ضمير المؤنث فيه عيبٌ أو نقص غير موجود في ضمير المذكَّر؟

وقال أبي: نعم، إن سمو جنس الذكر عن جنس الأنثى هو الذي جعل الأنبياء يخاطبون الله بضمير المذكَّر «هو». إنَّ كل الأنبياء كانوا من الذُّكور ولم نسمع عن أية امرأة كانت نبيًّا. كما أن آدم كان أكثر سموًّا من حواء؛ لأنه كان الأصل وكان الأقوى، أما حواء فلم تكن إلا أحد أضلاعه، وهي التي أَغْرَته بأن يأكل من الشجرة المحرَّمة، ووقع تحت تأثير إغرائها وخالف أمر الله.

قلت بدهشة: ولكنَّ هنا تناقضًا كبيرًا يا أبي؛ فكيف تكون حواء جزءًا صغيرًا من آدم (ضلع فقط) وهي الأضعف منه، ومع ذلك تصبح هي الأقوى فجأةً فتقنعه بأن يخالف الله ويسمع آدم كلامها ولا يسمع كلام الله؟ إن حواء هنا ليست ضعيفةً وليست سلبيةً؛ بل إنها قوية، أقوى من آدم؛ لأنها استطاعت أن تقنعَ، وهي الطرف الإيجابي، آدمَ وهو الطرف السلبي.

وقال أبي: نعم، ولكن إيجابية حواء كانت في الشر فقط.

قلت: ولكنها كانت إيجابيةً وقوية، وآدم انساق وراءها وخضع لتفكيرها.

وقال أبي: نعم، لولا حواء لبقيَ آدم في الجنة؛ ولهذا السَّبب فإن الأنثى أمْيَل إلى الشر من الرَّجل. وقد نُسِب الشر إلى حواء ونُسِب الخير إلى الرَّجل، وهذا هو السَّبب في مخاطبة الله بضمير المذكَّر «هو».

قلت لأبي: ولكن حواء لم تكن السَّبب في الشر؛ لأن إبليس هو الذي أشار عليها بأن تغريَ آدم بالأكل من الشجرة المحرَّمة. إي إن إبليس هو سببُ الشر في العالم، وإبليس

«مذكَّر» بدليل أنه يُخاطَب دائمًا بضمير المذكَّر «هو»؛ أي إن الذي فعل الشر في العالم مذكَّر وليس مؤنثًا، فلماذا أُلْصِقَت تهمةُ الشر والشيطنة وإغراء آدم إلى حواء؟!

وقال أبي: لأن حواء هي التي أغرت آدم.

وقلت: وإبليس هو الذي أغرى حواء.

وقال أبي: ولماذا سمِعَت حواء كلام إبليس؟

قلت: ولماذا سمِع آدم كلامَ حواء؟

قال أبي: من أجل أن يحدُث الجنس بينهما ليتناسلا ويعمِّرا الأرض بالبشر كما أراد الله.

قلت: إذا كان تعمير الأرض بالبشر لم يكن يحدُث لولا ذلك الاتصال الجنسي بين آدم وحواء، فلماذا أصبح هذا الفعل الجنسي نوعًا من الإثم؟ ولماذا نُسِب هذا الإثم إلى حواء فقط؟

وقال أبي: هذه هي إرادة الله.

قلت: ولماذا أراد الله أن يُنسَب الإثم إلى حواء؟

وظهر على وجه أبي أنه لم يَعُد مقبِلًا على استمرار الحوار معي، وأنني يجب أن أكفَّ عن الأسئلة.

بعد أن كبرتُ أكثرَ وقرأت تفسيرات متعددة مختلفة لقصة آدم وحواء ظلَّت الأسئلة في رأسي بغير جواب، وكانت كالآتي:

(١) لماذا استخدم إبليس حواءَ وسيطًا بينه وبين آدم؟ لماذا لم يوجِّه جهوده مباشرةً إلى آدم؟ هل كان يخاف من آدم؟ ولكن إبليس لم يَخَفْ من الله ورفض أن يطيعه، فكيف يخاف من آدم الذي سبق له أن احتقره ورفض أن يسجد له كما أمره الله وتمرَّد على الله قائلًا إنه لا يستطيع أن يسجد لآدم؛ لأن آدم أدنى منه حيث خُلِق من طين؟

لم يكن إبليس حسب الشَّخصيَّة الأسطورية التي عُرِفَت عنه هيَّابًا، ولكنه كان قويًّا شجاعًا جبارًا بلغ جبروته أنه تحدَّى الله حين طرده من الجنة، وقال له في كبرياءَ وتحدٍّ بلغ حدَّ الصَّلف إنَّه سوف يغري عباده ويغويهم ويحرِّضهم ضده ويوسوس لهم حتى يعصوا أوامره. وانطلق فعلًا في العالم يُنفِّذ التَّهديد الذي هدَّد به الله.

ولكنَّه حين بدأ نشاطه الشيطاني هذا لم يبدأه من آدم، ولكنه بدأه مع حواء بالرَّغم من أن هدفه النهائي كان هو آدم. كان يريد أن يجعل آدمَ يعصي الله ليطرده من الجنة.

(٢) كيف سمِع آدم كلام حواء ولم يسمع كلام الله، مع أن حواء حسب القصة، لم تكن إلا ضلعًا من ضلوعه؟

(٣) لماذا نُسِب الإثم إلى حواء مع أنها لم تكن إلا أداة بين إبليس وآدم؟

وأخذتُ أبحث في بعض التفسيرات وفي الكتب وآراء الفلاسفة، ووجدت ما يقول إن الله واجه حواء وسألها عما فعلت بآدم، حيث إنها أَغْرَته وجعلته يخالف الله ويفعل الشيء المحرَّم (الجنس).

وأجابت حواء على الفور قائلة: «لقد أغرتني الحيَّة وأكلت من الفاكهة المحرَّمة. ولعن الله الحية.» ثم قال لحواء: «سوف أضاعف ألَمَك في الولادة. ستلدين في الأسى والألم، لكن رغبتك ستظل لزوجك، زوجك سوف يحكمك.» وفيما يلي نصُّ التوراة عن هذه الواقعة: «اختبأ آدم وحواء من وجه الرَّب الإله في وسط شجر الجنة، فنادى الرَّب الإله آدمَ وقال له: أين أنت؟[٣] فقال: سمِعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريانٌ فاختبأت. فقال: مَن أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألَّا تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتَها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت. فقال الرَّب الإله للمرأة: ما هذا الذي فعلتِ؟ فقالت المرأة: الحية أغرتني فأكلتُ. فقال الرَّبُ الإلهُ للحية: لأنكِ فعلتِ هذا، ملعونةٌ أنتِ مِن جميعِ البهائمِ ومِن جميعِ وحوشِ البرِّيَّة، على بطنِكِ تَسْعَيْن، وتُرابًا تأكلين كلَّ أيام حياتِك. وأضعُ عداوةً بينكِ وبين المرأة وبين نَسلِكِ ونَسلِها. وهو يسحق رأسَكِ، وأنتِ تسحقين عَقِبَه. وقال للمرأة تكثيرًا أُكثِّر أتعابَ حَبَلك، بالوجع تلدين أولادًا، وإلى رَجُلك يكون اشتياقُك وهو يسُودُ عليكِ» (انظر التوراة، سِفْر التكوين، الإصحاح الثالث: ٣، ٤).

وقيل إن الذي أغرى حواء لتأكل من الشجرة هو إبليس، وسوس إبليس لحواء أن تأكل من الفاكهة وأن تُغْريَ آدم بها. لم يُعطِها التفاحة إلا بعد أن أقسمت أن تجعل آدم يأكل منها أيضًا. وافقت حواء وقالت: «حينما أقسمت لإبليس ذهب وصبَّ على الفاكهة سُمَّه الشرير (وهو الشهوة الجنسيَّة) التي هي أصل وبدء كل الآثام، وقرَّب الغصن من الأرض وأخذته وأكلتها.»

وتشعر حواء على الفور بالخجل من عورتها وتغطي نفسها. وهي تشارك آدمَ سرَّها وتغريه بأن يأكل مثلها الفاكهة، ويأكل آدم، وعلى الفور تُفتح عيناه ويرى عورته ويعرفها، ويقول لها: أيتها المرأة الشريرة، ماذا فعلتُ لكِ حتى تحرميني من عظمة الله؟

[٣] انظر التوراة، سِفر التكوين، الإصحاح الثالث: ٣، ٤.

وكان إبليس هو الذي أراد أن يحرِم آدمَ من الله بعد أن غضِب إبليس من الله؛ لأنه طرده من الجنة؛ ولأنه أيضًا كان يحسُد آدم الذي كان يتمتع بثقة الله وحبِّه لدرجةِ أن الله خلق آدم صورةً منه. وظلَّ آدم صورةَ الله السامية عن أي خطأ أو إثم إلى أن جاءت حواء التي هي سببُ الشر. أي إن آدم بريء، إنه لم يفعل شيئًا سوى أن تذوَّق الفاكهة (اللذة الجنسيَّة) التي قدَّمتها له حواء. أما حواء فهي التي عَرَفَتْ هذه اللذة الجنسيَّة باتحادها الإثم بالشيطان. إنَّ الشَّيطان لم يلمس آدم، ولكنَّه أغواه عن طريق حواء التي جَلَبَت لآدم السُّقوطَ ثُمَّ الموت (كان آدم قبل ذلك ملاكًا خالدًا في الجنة لا يموت أبدًا، لكنه بعد أن عرف الجنس أصبح معرَّضًا للموت والفناء، ومن هنا ارتبط الجنس بالموت، وأنَّ المرأة سببُ الموت والدمار في العالم).

بسبب خطيئة حواء جاءت البشرية كلها، وبسببها أيضًا نموت. وأصبحت المرأة كبشَ فداء لكل آثام الرِّجال. إن الرَّجل ليس آثمًا بالطبيعة؛ لأنه صورةٌ من الله ويحتوي في داخله على روح الله، نفخ الله من روحه في مريمَ العذراءِ فحملت وولدت يسوعَ المسيحَ ذكرًا مقدَّسًا سيدًا ممنوعًا من النِّساء لا يمارس أيَّ علاقة جنسية بالنِّساء؛ ولهذا السَّبب كان الأنبياء كلهم من الرِّجال وكهنة العصور الوسطى كلهم من الرِّجال، واعتبروا أنفسهم ممثلي الله على الأرض وحكموا بالقتل والحرق على عدد من النِّساء؛ حيث أطلقوا عليهن اسم الساحرات الشيطانات لمجرد أن الواحدة منهن خالفت زوجها أو خالفت الكاهن أو لمجرد هبوب عاصفة، وكانوا يُرْجِعون سببَ العواصف والكوارث إلى جنس النِّساء.[٤] وكانوا يؤمنون بأن المرأة يمكن أن تعاشر الشيطان جنسيًّا، وكان عليهم أن يبحثوا عن هؤلاء النِّساء ويقتلوهن على الفور. وتركت لنا العصور الوسطى رسومًا متعدِّدة لنساءٍ راكعات خلفَ الشيطان يحاولن تقبيل مؤخرته. وفي القرن ١٣ آمن بعضُ رجال الكنيسة — مثل توماس الأكويني، وألبرتوس ماجنوس، وهما من أكبرِ أساتذة اللاهوت في ذلك الوقت — أن المرأة يمكن أن تتصل بالشيطان جنسيًّا. وكانت محاكم التفتيش تبحث عن النِّساء اللائي عاشرن الشيطان لتحرقهنَّ. أما كيف تُعرف المرأةُ التي عاشرت الشيطان فهذا كان من اختصاص صيادي الساحرات. وكانت هناك علاماتٌ معينة سمَّوها علامات الشيطان. وقد لا تكون إلا منطقة صغيرة من الجلد كالوشمة أو كالدُّمَّل القديم وتُحْرَق المرأة فورًا.

---

[٤] انظر هذا الجزء بالتفصيل في بحث «الأنثى هي الأصل» من هذا الكتاب.

وفي هذه العصور قُتِلَت ملايين النِّساء لمجرد الاشتباه في أنهن عاشرن الشيطان!

وفي الوقت الذي كانت فيه الكنيسة والدولة تقتل هؤلاء النِّساء بتهمة الجنس كانت تتستَّر؛ بل تُبارك النشاط الجنسي المنحرف الشاذ لطبقة النبلاء والإقطاعيين والفرسان وكلِّ مَن يملكون الأموال والأرض والسلطة؛ بل إن الصلة الجنسيَّة بين رجال ونساء هذه الطبقة ارْتَدَت ثوبًا دينيًّا مقدَّسًا بما فيها الخيانات والانحرافات والاتصال بالمومسات.

وكان الرِّجال في ذلك الوقت من طبقة الحكام يمارسون الجنس بشتَّى أشكاله وألوانه. عَرَفَ التَّاريخ في ذلك العهد الدُّوق وليم التاسع الذي اشترك في الحروب الصليبية بجيشٍ كبير قيل إن عدد المومسات فيه كان أكثر من عدد الجنود، وإنه عاد مهزومًا بعد أن فقد كلَّ جنوده ولم يبقَ من جيشه إلا المومسات.[٥]

أصبحت المرأة سببَ الكوارث والآلام في الحياة، وأصبحت كبشَ فداء لكل آثام الرِّجال وأخطائهم، ولكل الشرور في العالم. وأصبح الرَّجل هو ممثِّل الله، وهو ممثِّل الخير والسمو، والمرأة أصبحت ممثِّلة الشيطان، والإثم والجنس.

ومن هنا أوجد الرَّجل المبرِّر الذي يحكم به المرأة، واعتمد في هذا التبرير على شيئين:

(١) أن الشر سيظل موجودًا في العالم على الدوام طالما أن المرأة منبعه.
(٢) يجب أن يحكم الرَّجل المرأةَ حتى لا ينتصرَ الشرُّ ومن أجل أن يعمَّ الخير.

وقد ضرب الرَّجل عصفورين بحجر واحد؛ ذلك أنه حكمَ المرأة، وفي الوقت نفسه اعترف بوجود الشر على الدوام وبأنه (أي الرَّجل) سيمارس الشرَّ ما دام موجودًا على الدوام.

وقد استمر الرَّجل فعلًا على مدى العصور منذ بدء أسطورة حواء وآدم يمارس الشر والعدوان، ويعطي نفسَه كلَّ المبرِّرات للقتل من أجل الامتلاك والجشع. وبالمثل أعطى نفسه حقَّ ممارسة الجنس خارج الزواج وداخله، يمارسه مع الخليلات والجواري والسراري والمومسات والزوجات ومَنْ ملكت أيمانُهم، يمارسه بالليل والنهار ويخدع البنات ويدفع للمومسات، ولا يكفُّ أبدًا عن ممارسة الجنس. ومع ذلك فهو بريء براءةَ آدم من الفعل الجنسي؛ لأن حواء الشريرة هي السبب. وقد حكم الرَّجل المرأةَ وفرضَ عليها العفَّة والعذرية

[٥] انظر: Livingston, A History of Sexual Habits.

طوال حياتها فيما عدا حالة واحدة، هي أن يختارها أحد الرِّجال لتكون زوجةً له. حينئذٍ يكون مُباحًا لها أن تمارس ذلك الفعل الجنسي الآثم مع زوجها فقط (ولا تذهب إلى رجلٍ آخر وإلا قُتِلَت)، وهي حين تمارس هذا الفعل مع زوجها فهي تمارسه من أجل إنجاب الأطفال وليس من أجل اللذة الآثمة. وهي تكفِّر عن ذنبها؛ وذلك بأن تلد في الأسى والألم وتصبح بعد ذلك طاهرةً من الإثم؛ ولذلك أصبحت ولادةُ الأطفال عملًا طاهرًا بعكس العمل الجنسي الآثم. مع أن العملَين عملٌ واحد، وأن العمل الجنسي يقود إلى ولادة طفل، وولادة الطفل لا يمكن أن تحدُث بغير الفعل الجنسي.

لكن الرَّجل فصل بين ولادة الأطفال وبين الجنس. كان الرَّجل يحتاج إلى الأطفال ليرثوا أمواله ويحملوا اسمه، فجعل من ولادة الأطفال عملًا شريفًا بل مقدَّسًا، ووضع الأمهات بالتالي في وضعٍ مرتفع يكاد يكون مقدَّسًا في بعض الأحيان. أما جميعُ النِّساء الأخريات (فيما عدا الأمهات) فهنَّ مدنَّسات: الزوجات اللائي لم يلدن، والعشيقات، والمومسات، والخليلات، والسراري، والجواري. بالطبع هناك عاشقاتٌ ومومساتٌ وجوارٍ يلدن أطفالًا لكنَّهن لا يُصبحن أمهاتٍ أبدًا. إنَّ المرأة منهن تظل مدنَّسة بل تزداد بولادة الطفل دناسةً، وطفلها أيضًا يصبح مُدنَّسًا وغيرَ شرعي ويُحْرَم من الشَّرف ومن اسم أبيه.

وهنا نضع أصبعنا على المشكلة الأساسية؛ مشكلة الميراث واسم الأب. كان المجتمع البشري قبل نشوء الأسرة الأبوية مجتمعًا أموميًّا، يَنسب الأطفال إلى الأم. وكان للأم حريةٌ واسعة تشبه إلى حدٍّ كبير حريةَ الأب في مجتمعنا الحاضر، فهي التي تختار الرَّجل، وهي التي تتركه وتختار رجلًا آخر. والرَّجل كان حرًّا أيضًا، لكن حرية الرَّجل كانت أقلَّ من المرأة؛ لأن المرأة تَعْرف أطفالها وتَنسبهم إليها، أمَّا الرَّجل فلا يعرف أطفاله لأنه لا يلدهم. وحينما زادت ملكيةُ الرجل للأرض وأراد أن يعرف أطفاله ليورثَهم انتزعَ النَّسب من الأم، وأنشأ أسرتَه الأبويَّة. ولم يكن في إمكان الرَّجل أن يُنشئ أسرته الأبوية، ولا أن تستمر هذه الأسرة دون أن يفرض على المرأة سيطرته بالقوة وبالقانون.

ومن هنا أنشأ الرَّجل قوانينه الاقتصادية التي تحرِم المرأة من الإنتاج والعمل لتكون عالةً على زوجها وتحت رحمته، وفرض عليها القوانين الاجتماعية التي تبيح للزوج أن يقتل زوجته إذا خانته أو خالفته، وفرض عليها القوانين الجنسيَّة التي تفرض عليها العفَّة والعذرية، وفرض عليها القوانين الأخلاقية والدينية التي تجعلها الجنس الأدنى، والجنس الملوَّث الذي يجب أن يتطهَّر من الذنوب والدنس.

إن المرأة — في رأيه — مخلوقٌ مدنَّس، وبالذات في أيام الدورة الشهرية وفترة الولادة؛ بل في بعض الأحيان يعتبر الطفل المولود مدنَّسًا حتى يُعَمَّد baptism.

في مجتمعات الأمومة كانت هناك دياناتٌ قديمة وآلهة قديمة. لكن الآلهة لم تكن ذكورًا فقط وإنما كانت هناك آلهةٌ ذكور وآلهة إناث. وكانت الديانات تؤكِّد الحياة ولا تفرِّق بين الذُّكور والإناث وتحترم الجنس، بعكس الديانات في المجتمعات الأبوية التي أصبحت ترتكز على الموت وعلى تأثيم الجنس والتفرقة بين الذُّكور والإناث.

الديانات المصرية القديمة كانت تؤكِّد الحياةَ وتحترم الولادةَ والمرأة وترفع مكانة المرأة عاليًا في الحياة وتجعلها مثل إيزيس إلهةِ الخلق والخير والحياة. بعد سيطرة الرَّجل تغيَّرت الديانة وأصبحت ترتكز على الموت والدمار وتقلِّل من شأن المرأة، وسيطر على المجتمع الجشع والملكية والإقطاع والتقاتل على توسيع الأملاك.

وما حدث للديانة المصرية القديمة حدث للديانة الإغريقية القديمة، تحوَّلت من احترام الجسد واحترام المرأة إلى تأثيم الجسد والهروب الصوفي منه بعد أن سيطر الرَّجل في الأسرة والمجتمع، وبدأ الجشع والإقطاع والحروب حتى فقدَ الإغريق حريَّتهم تحت سيطرة إمبراطورية الإسكندر الأكبر.

معظم الآلهة القديمة كانت إناثًا، ويرمزن إلى المطر والخضرة والخير مثل الإلهة باليزم Baalism، والإلهة أستريت Astarte والإلهة ماجنا Magna، وإيزيس Esis.

كانت الديانات القديمة تمجِّد الحياةَ والطبيعة والإنسان وتمجِّد جسد الإنسان ورغباته وتحترم النِّساء والرِّجال وتحترم العلاقة بينهم.

بعد سيطرة الرَّجل وانتشار الملكية والإقطاع والتوريث، تغيَّرت الأفكار، وأصبحت تفصل بين جسد الإنسان ونفسه أو روحه. واعتبرت المرأة ممثلةً للجسد، والرَّجل ممثِّلًا للرُّوح، ومُجِّدت الرُّوح ليُمَجَّد الرَّجل، وحُقِّر الجسد لتُحقَّر المرأة.

الديانة اليهودية كانت أوَّلَ ديانة تُبْرِز هذه التفرقة بين الجسد والرُّوح وبين المرأة والرَّجل، إلى حدٍّ أن الرَّجل اليهودي يقول كل صباح حين يصلي: «أحمدك يا رب؛ لأنك لم تخلقني امرأة.»[٦]

وبالرغم من أن هناك نصًّا آخرَ صريحًا في التوراة يقول: «الله خلق الإنسان في صورته هو؛ في صورة الله خُلِقَ الإنسان، ذكرًا أو أنثى، هو خلقها.» بالرغم من هذا النص فإن

[٦] انظر: Simone De Beauvoir, Second, sex.

رجال الدِّين اليهودي اكتفَوا بالجزء الأول من هذه العبارة، واستبدلوا كلمة الإنسان بالرَّجل، وخرجوا منها أن الله خلق الرَّجل في صورته هو، وأن الله هو روح الرَّجل أو عقله، أما الجسد فهو المرأة.

وكانت الديانة المسيحيَّة في بدايتها تتمثَّل روح المسيح الذي دعا إلى المساواة بين البشر، لا فرقَ بين ذكر وأنثى، ولم ينظر إلى اللذة الجنسيَّة كإثم؛ بل إنه رأى أن هدف الزواج هو العلاقة الزوجية بين الرَّجل والمرأة وليس مجرد الإنجاب؛ ولهذا لم يكن يسمح بالطلاق إذا لم ينجب الزوجان وقال إن الزواج صلةٌ باركَها الله ولا يفصم عُراها إلا الله؛ أي موت أحد الزوجين. وهذا يدل على أن مفهوم المسيحيَّة عن تأثيم اللذة الجنسيَّة والتكفير عنها لم ينبع من المسيح نفسه وإنما من خلفائه. وبالمثل أيضًا لم يساند المسيح الأثرياء والحكام كما فعل رجال الكنائس من بعده، لكنه كان يؤمن بأن «مرور جمل من ثَقب إبرة أسهل من دخول ثَرِي إلى ملكوت الله». لكن الظروف الاجتماعية والاقتصادية القائمة على المِلكية والإقطاع وسيطرة الرَّجل حوَّلت المسيحيَّة إلى ديانةٍ تفصل بين الجسد والروح، وتفصل بين جنس الرِّجال وجنس النِّساء، وتعتبر الرِّجال هم الجنس الأسمى ويمثلهم على الأرض المسيح ابن الله أو روح الله. أما جنس النِّساء فهو الجنس الأدنى؛ لأنه يمثِّل الجسد.

وبهذا اتجهت المسيحيَّة مثل اليهودية إلى ذلك الاغتراب عن الجسد وعن حقيقة الحياة، ونتج عن ذلك تلك الحالة التي أُطْلِقَ عليها «تجربة الاغتراب عن الحقيقة» (alienated experience of reality) وما أحدثته من ازدواجية في حياة الإنسان. وأصبح هناك رأيان يتصارعان:

(١) الرأي الإنساني القديم القائل بالطبيعة الخَيِّرة لجسد الإنسان (وهو مستمَد من الديانات القديمة المؤكِّدة للحياة قبل اليهودية في مصر القديمة والإغريق).

(٢) الرأي الآخر الذي انتشر بعد اليهودية والمسيحيَّة والذي يقود إلى اغتراب الجسد عن الحقيقة والهروب من العالم المادي إلى عالم الروح، وقد ساعد ذلك على تسهيل قيام الإمبراطوريات والمستعمرات.

وقد ظلَّ الصراع بين هذين الرأيين على مرِّ العهود. يقف مع الرأي الأول ذوو العقول المستنيرة المتقدمة من البشر والذين يؤمنون بالمساواة والعدالة، لا فرق بين فقير وغني أو ذكر أو أنثى. ويقف مع الرأي الثاني ذوو العقول الجامدة والذين يؤيدون الاستغلال والتفرقة بين البشر على أساس الجنس واللون والطبقة.

ظهر هذا الصراع واضحًا في القرن الثاني بين الجناح اليميني المتزمت من العلماء الروحانيين وبين الجناح اليساري المتقدم من المسيحيين. قال العلماء المتزمتون إن العالَم خُلِقَ من خلال خطيئة «الشر» «والإثم»؛ ولذلك فإن مصير هذا العالَم نحو عالَمٍ آخرَ روحي بعيد عن ذلك العالم الشرير.

لكن العلماء الأكثر تقدُّمًا رفضوا هذا الفصل الشديد بين العالَمين (عالم الشر وعالم الخلاص والتطهير)، وأكدوا نوعًا من الوحدة بين الأب «الله» أبي المسيح وبين الله الخالق الذي أنزل التوراة والإنجيل إلى الأرض والبشر؛ أي هناك اتصال بين عالم الروح وعالم الأرض أو الجسد.

وفي القرن الثالث حاول أحدُ المفكرين الإغريقيين (أوريجن) أن يوفِّق بين الصراع بأن قال إنه في البداية كان هناك عالَم روحاني، ثم ظهر عالَم مادي بسبب سقوط الأرواح في الخطأ، لكن العالم الروحاني هو مأوى الإنسان الحقيقي والذي يعود إليه بعد التكفير والتطهير والخلاص.[7]

وفي القرن الرابع طوَّر الإغريقيون نظريةَ أوريجن ورأوا المخلوق الأول والإنسان شيئًا واحدًا روحانيًّا ويقابله مخلوقٌ فرعيٌّ آخرُ جسدي مزدوج الجنس (فيه ذكر وأنثى)، وكان أوريجن قد طوَّر نظريةَ القديس بول عن «الجسد الروحي»؛ ليشير إلى مخلوقٍ أصلي كان نوعًا من «الجسد اللاجسدي» والذي ذابت فيه مادةُ جسد الإنسان في روحه بطريقةٍ جعلت المخلوق الأول «روحانيًّا».

في القرن الثاني ظهر في الغرب بعضُ المفكرين من أمثال: جاسين، تيرتيولبن، أيرونوس، الذين دافعوا عن المخلوق الأصلي الجسدي، وقد أدَّى ذلك إلى انتشار النزعة الحسية في الغرب عن الشرق.[8]

وطوَّر رجال الكنيسة هذه الأفكار قائلين إن هناك مخلوقًا جسديًّا أصليًّا لم يكن حسيًّا تمامًا، ثم بُعِث جسدٌ آخرُ لم يكن جسديًّا ولكنه تحوَّل إلى جسدٍ روحي. ولكن هذا التطوُّر والتوفيق بين الجسد والروح لم يَزِد الأمر إلا غموضًا ولم يَحُل الصِّراع.

---

[7] انظر: Origen. De Principiis, 28, 1.

[8] انظر:

justin martyr dial. 80 pp. Tertullian Adi. Marcion. 3, 24:
De spec. 30; lvenaens. Adu. hear. 5. 32. 1.

وظلت المسيحيَّة الإغريقيَّة واللاتينية مؤمنةً بالروحانية والأفلاطونية وفلسفة العالم الآخر والبعث والخلود والحساب والخلاص والتَّطهر من الآثام كرفضٍ للجسد وهروب الروح من الحسية المادية.

وأصبحت المرأة في المسيحيَّة — كما كانت في اليهودية من قبل — كبشَ الفداء الذي يقع بين فكَّي هذا الصِّراع الضَّاري بين الروح والجسد أو بين الخير والشر. وقالوا إنَّ الله خلق الرَّجل صورةً منه، وإنَّ الله روحٌ، روحٌ مائة في المائة، وليس لها جنس ولا أعضاء جنسية. لكنهم اصطدموا بالفكرة الأخرى التي توفِّق بين الجسد والروح، ونتج عنها أن الله ليس ذكرًا وليس أنثى، وإنما مزدوج الجنس، وقالوا إما أن الروح لها جنس أو أن الله له جسد. وحيث إنه من الكفر الاعتقاد بوجود جسد لله أو أعضاء مذكَّرة أو مؤنَّثة، فإن الفكرة يجب أن تُشْطَر نصفين بحيث تُفَسَّر صورةُ الله على أنها روحية فقط لا جنسية، أمَّا الجنس فيُعْزَى إلى شيءٍ آخر، فقد أُلْصِق الجنس بالمرأة وأُلْصِقَت بها كلُّ التُّهم.

وقال المفكِّرون في ذلك الوقت: إنَّ الازدواجية تكون فقط في الأشياء الحسيَّة المادية. أمَّا الله فهو روحي خالص وليس مزدوجًا. كما أنَّ صور الله في الرَّجل لا يمكن أن تكون مزدوجة. وخرج من هذه الفكرة رأيٌ يقول إنَّ الله لا جنسي، وكذلك أول الخليقة البشرية «آدم» لم يكن محدَّد الجنس.

في القرن الرابع جاء أبو الكنيسة الإغريقية «جريجوري نيسا»، وقال إن الله روحي خالص، وإن الجنس بعيدٌ عن الله، وبعيد عن آدم، وإنما أُضيف إليه فقط حين سقط بسبب حواء أو الجنس، ومِن ثَم الموت، ولو أن آدم التصق بروح الله من خلال طاعته للحكمة الإلهية التي من صورتها خُلِقَت روحه، لكان من الممكن أن يكون خالدًا ولا يموت أبدًا. إنَّ جسده المادي يمكن أن يظلَّ في كيانه الروحي على نحوٍ ما يجعله غيرَ قابل للتغيُّر أو الموت. ولكنَّ الإنسان له صفةٌ مادية أخرى لم تأتِ من عند الله، ولكن من العدم الذي وُجِد منه العالَم المادي. إن المادة التي خلقها الله «خيِّرة»، ولكن لها صفةٌ سلبية مأخوذة من العدم الذي انتصر عليه الله بخلق العالم المادي، والذي يعود مرةً أخرى إلى العدم؛ أي من حيث أتى. لكنه يقول إنه لو كان آدم أطاع الله لأصبح جسده مرتبطًا بالروحانية الإلهية وبقي خالدًا، ولكن حينما أدار آدم ظهرَه لله من أجل هذه الرغبة الجسدية الفانية فقد أصبح كِيان الإنسان كله قابلًا للفَناء، ولم يصبح له من عزاء عن الخلود أو علاج للموت إلا التناسل.

ولم يكن نيسا Nyssa واثقًا من أن الجنة سيكون بها زواج، وإنما نوع من التكاثر الملائكي الروحاني الذي نتج عنه تكاثرٌ في عدد الملائكة بغير زواج أو جنس، وأن آدم نتاج هذا التناسل الروحاني اللاجنسي السامي.

أما أوجستين[٩] فقد قال إنَّ الرَّجل هو الروح السامية، وإن الأنثى هي الأدنى ذات الجسد والشهوة الجنسيَّة. إنَّ الرَّجل في صورة آدم هو الزوج الذي هو صورة من صور الله. وفي رأيه أيضًا أنَّ آدم مُزدوج؛ لأنَّه يمتلك روح الذَّكر الإلهية السَّامية وجسد الأنثى المادي الأرضي والأدنى. لذلك حين جاءت حواء فقد جاءت فقط لتكون زوجة آدم وتلد أطفاله؛ أي دورها هو دور الأم فقط، أما أدوارها الأخرى الروحية والطينية والفكرية فهي مرفوضة تمامًا. وقال أوجستين إنَّ الرَّجل فقط صورة كاملة من الله، وإن المرأة لا تصبح صورة من الله إلا إذا انضم إليها زوجها الذي هو رأسها. ويرتكز أوجستين في هذه الفكرة على الآية الموجودة في التوراة التي تنص على أن يصليَ الرَّجل لله دون أن يغطيَ رأسه لأنه صورة من الله، أما المرأة فلا بد أن تغطيَ رأسها وهي تصلي.

وفسَّر ذلك أن المرأة ناقصة، والذي ينقصها بالذات هو «الرأس»، فهي جسد بغير رأس، ومن هنا فكرة أن المرأة لا عقل لها، أو أنَّ عقلها ناقص. وحيث إن الفرق بين الإنسان والحيوان هو العقل، فإن الرَّجل إنسان كامل، أما المرأة فهي جسد شهواني حيواني ينطوي على الإثم والخطيئة بالطبيعة وبإرادة الله.

ومن هذا الاعتقاد الدِّيني والفلسفي جاءت الفكرة العلمية التي قالت بأن المرأة كمخلوق أقلُّ تطورًا من الرَّجل، وأنها في نظام الطبيعة والكون والتطور تأتي بعد الرَّجل. بل إن العلماء الذين آمنوا بنظرية داروين (التي تناقض الأفكار السابقة في كيفية خلق الإنسان والكون) لم يتخلصوا من فكرةِ أن المرأةَ أقلُّ من الرَّجل تطورًا، وأن الرَّجل هو الأصل والمرأة هي الفرع. فقال بعض العلماء إنَّ ذَكَرَ الإنسان تطوَّر قبل الأنثى من القرود، وإنه سبقها في الكفاءة البيولوجية، وإن عقله سبق عقلها في التطور؛ ولذلك حَكَمَ الرِّجالُ النِّساءَ في الأسرة وفي المجتمع.

ومن الأفكار الطِّبيَّة أيضًا التي ورِثناها هي تلك التي تفتَّقت عنها عقول رجال الدِّين ورجال الكنيسة في العصور الوسطى، الذين رغم جهلهم بالبيولوجيا أو جسم المرأة أو

---

[٩] انظر: Augustine. De civitate Dei 14, 11; de Genesi ad. Lit 11. 42.

جسم الرَّجل أو علم الأجنة، فقد أصدروا قرارًا يقول إنَّ الجنين يظل ميتًا حتى يبلغ من العمر أربعين يومًا، ثم تدبُّ فيه «الروح» إذا كان ذكرًا. أما إذا كان أنثى فإنه يظل ميتًا لفترة ضعف فترة الجنين الذكر — أي ثمانين يومًا — ثم تدبُّ «الروح» في الجنين الأنثى. وأصبح مصرَّحًا بإجهاض الجنين الأنثى قبل ثمانين يومًا، أمَّا الجنين الذكر فلا يُجْهَض بعد الأربعين يومًا. وكيف عرفوا الجنين الذَّكر من الأنثى في هذه الأيام الأولى التي يعجز الطِّبُّ الحديث عن معرفتها؟! بالطبع كانت لهم وسائلهم الخاصة. فالمرأة الحامل في الأنثى تفقد وزنها وتصبح شاحبةً عليلة بسبب الأنثى داخلها. أما المرأة الحامل في الذكر فيكسو وجهها اللحم والنضارة لأنها تحمل الجنس الأعلى. وما زال كثير من النَّاس يؤمنون بمثل هذه الخرافات حتى اليوم في ريف مصر؛ بل في مدنها أيضًا.

وقد ورِث أطباء العصر الحديث هذا التراث الطبي من العصور الوسطى وتسرَّبت هذه الخرافات إلى علوم البيولوجيا، وظهر علماء رجال يعتقدون بأنه ما دامت «الروح» تدبُّ في الجنين الذكر قبل الأنثى فإن الذَّكرَ بيولوجيًّا أعلى درجة من الأنثى، وأنه ينضج روحيًّا أسرع من الأنثى؛ أي إنه ينضج عقليًّا أسرع منها، ودعمت الفكرة الشائعة التي تقول بأن عقل المرأة أقل من الرَّجل. ولهذا السَّبب فإن معظم العلماء والمفكرين من الرِّجال وليسوا من النِّساء. وبمثل هذه الأفكار الخرافية قال هؤلاء العلماء إن عقل الرَّجل الأبيض في أوروبا وأمريكا سبق عقل الرَّجل الأسود في أفريقيا من حيث التطور ومن حيث الكفاية؛ ولذلك حكم الرَّجل الأبيضُ الأسودَ، ومعظم المفكرين والعلماء من الرِّجال البيض وليسوا من الرِّجال السود.

وقد ثبت خطأ النظريات جميعًا، واتضح أن أنثى الإنسان هي التي سبقت ذَكر الإنسان في التطور من الحيوانات الثديية،[١٠] وأثبت علم البيولوجيا الحديث أن تكوين المرأة البيولوجي أقوى من الرَّجل، وأن مخ المرأة مثل مخ الرَّجل الأبيض مثل مخ الرَّجل الأسود من حيث التكوين والكفاءة. أمَّا أن الرَّجل حَكمَ المرأة، وأن الرَّجل الأبيض حكمَ الرَّجل الأسود، فهذا يرجع إلى أسبابٍ أخرى وأساليبَ ضد الطبيعة وضد الإنسان، مثل الاغتصاب والعدوان والقتل والخيانة والغدر والكذب والمؤامرات السياسية وفرض القوانين الظالمة القائمة على الاستغلال والقهر الجسدي والنفسي والاقتصادي والفكري. وهذا هو السَّبب في أن عدد المفكرين والعلماء الرِّجال كان أكثرَ من عدد النِّساء، وأنَّ عدد الرِّجال البِيض من

[١٠] انظر: بحث «الأنثى هي الأصل» في هذا الكتاب.

علماء ومفكرين كان أكثر من عدد الرِّجال السود، وأن عدد المفكرين من الطبقات العليا أكثر من المفكرين من الطبقات الدنيا.

هذه كلها أفكار حديثة خرج بها العلماء والبحوث الجديدة التي قام بها الرواد من الرِّجال والنِّساء، وكشفوا النقاب عن كثير من الأفكار الفلسفية الخاطئة التي وقع فيها الفلاسفة الذين عاشوا في عهود الإقطاع والظلم، والذين تصوَّروا أن العنف والعدوان جزءٌ يأبى الانفصال من الطبيعة البشرية، وأن الرَّجل «جسد ورأس» وإنسان كامل وصورة كاملة من الله، أما المرأة فهي جسدٌ بغير رأس، وعليها أن تغطي رأسها وهي تصلي، ولا أدري كيف يمكن أن يكون رأس المرأة غير موجود أصلًا ثم يُطْلَب منها أن تغطيه؟

لكن «تيرتولين» — وهو فيلسوفٌ آخرُ كان واسع الشهرة كأوجستين — قال إن النص في التوراة الداعي إلى أن تغطي المرأة رأسَها يرجع إلى أن حواء هي المسئولة عن الإثم كله؛ ولهذا يجب أن تغطي رأسها احتقارًا لهذا الرأي المدنس الآثم. ويخاطب تيرتولين حواء في هذا الصدد قائلًا:[١١] «أنتِ الباب الذي يقود إلى الشيطان. أنتِ التي فتحتِ الطريق إلى تلك الشجرة المحرَّمة. أنتِ أول مَن عصا أمرَ الله. أنتِ التي أغريته حين عجز الشيطان أن يغريَه. أنتِ حطَّمتِ بسهولة صورةَ الرَّجل الإلهية. أنتِ سببُ الموت. وبسببك أيضًا يموت ابن الله.»

وقد تأثَّر كثيرٌ من الفلاسفة ورجال الدِّين بهذا الكلام إلى حدٍّ أن قالوا إن المرأة تخجل ويحمرُّ وجهها خجلًا وعارًا حينما تفكِّر في الطبيعة التي خُلِقَت بها.

ونَقلَ هذا الكلامَ عن تيرتولين كثيرٌ من المفكرين في الغرب والشرق، وأصبح كثير من المفكرين يتفاخرون بعدائهم للمرأة. كنت أندهش وأنا تلميذة صغيرة كيف يفخر مفكِّر كالعقاد أو توفيق الحكيم بأنه عدوٌّ للمرأة! وقد قرأت لأحد المفكرين العرب — وهو زكي مبارك — كلامًا يشبه كلام تيرتولين عن حواء؛ إذ كتب يقول:

> «المرأة تملِك أصول الشهوات، وهي باب الدمار والخذلان، والمرأة هي الجحيم، هي البلاء يصبُّه الله على رءوس العباد، هي الشقاء والكرب الذي يسبق الموت، والمرأة في جميع أحوالها مصدرُ فساد، ولها مداخل إلى الفتنة يعجز عنها إبليس.»

وردَّد هذا الكلام كثير من فلاسفة الغرب ومفكريه، ومنهم جان جاك روسو والفيلسوف الألماني أرتور شوبنهور الذي قال: «يكفيك أن تنظر كيف تكوَّنت المرأة لتدرك

---

[١١] انظر: Tertullian. De lultn Fem.: 1, 1.

أنها لم تُخْلَق للعمل الجاد، سواء كان فكريًّا أو عضليًّا. إن نصيب النِّساء من الحياة هو التحمُّل والصبر وليس الفعل أو العمل.» أما روسو فقال: إن الرِّجال يعيشون حياةً فضلى بدون النِّساء، أما النِّساء فلا يمكن لهن أن يعشن حياةً فضلى بدون الرِّجال.

وسوف نفهم في الفصول القادمة من هذا الكتاب كيف أن مثل هذا العداء للمرأة ليس إلا إحساس الرَّجل بالنقص والضَّعف أمامها. وقد اتضح أن معظم الرِّجال من أعداء المرأة عانَوا من مشاكلَ جنسيةٍ ونفسية في علاقاتهم بها، من أمثال تيرتولين إلى أوجستين إلى أفلاطون إلى أرسطو إلى أوريجن إلى جان جاك روسو إلى شوبنهور إلى المعري إلى العقاد إلى مبارك، وغيرهم كثيرون.

ولم يحاول تيرتولين ولا زملاؤه من الفلاسفة أن يفكِّروا بعقولٍ هادئة موضوعية؛ لأنهم لو فكَّروا على هذا النحو لأدركوا التناقض الصارخ الموجود في أفكارهم في ذلك الحين. فكيف تكون المرأة بغير رأس وبغير عقل ثم تستطيع أن تفعل بآدمَ ما عجز الشيطان أن يفعله؟ وتستطيع أيضًا أن تحطِّم صورةَ الله وتسبِّب الموت للعالَم وتسبِّب الموت لابن الله؟! إنها بهذه القدرة الجبارة لا تملك رأسًا فحسب، ولكنها تملك قوةً وجبروتًا وإيجابيةً وذكاءً وعقلًا لا يملكه إلا الإله؛ بل إنها استطاعت أن تحطِّم صورةَ هذا الإله.

وربما أحسَّ أوجستين هذا التناقض الصارخ فخرج بفكرةٍ جديدة تُجرِّد حواءَ من شرف الإيجابية والقوة (وإن كانت قوةً شريرة)، وقال إن حواء أقلُّ من أن تدفع آدم إلى السقوط، لكن السقوط حدث حين أراد آدم أن يسقط وليس حين أرادت حواء.

فإن إرادة الله أو إرادة صورة الله هي في النهاية التي تحكم الموقف. ووقع أوجستين في تناقضٍ جديد يخالف الفكرة الأساسية الأولى التي تقول بمسئولية حواء عن الإثم كله؛ لأنه بهذه الفكرة الجديدة يقول إن آدم أو إرادة الله هي المسئولة عن الإثم، وإن حواء ليست إلا أداة. وحاول أوجستين أن يوفِّق بين التناقضات، فقال: إنَّ المرأة ليست جسدًا فقط، ولكن يمكن أن يكون لها عقل أيضًا، ويمكن أن تنقذ نفسها بالتغلُّب على جسدها وشهوتها، وتصبح العذراء الطاهرة التي لا تمارس الجنس.

وانتشرت في القرنين؛ الرابع والخامس، الأفكارُ التي تمجِّد العذرية. كان سوء الأحوال الاقتصادية يَحول دون كثرة الإنجاب، وقد بدأ في تلك الفترة انهيار الإمبراطورية الرومانية، وتردَّدت الفكرة القائلة: روح العذراء الطاهرة يمكن أن تكون عروسًا للمسيح. وبهذا شجَّعوا البنات بالاكتفاء بزواج المسيح في خيالهن.

ومن هنا مفهوم العذرية والشرف والطُّهر والتطهير والخلاص الذي انتشر وساد في المسيحيَّة وبين رجال الكنيسة في ذلك الوقت. كانت الفكرة هي أن الله لعن المرأة لأنها أغرت

آدم، وجعلها تلد في الأسى والألم (لم تَعُد المرأة الحديثة تلد في الأسى والألم وأصبحت تلد بغير ألم بسبب تقدُّم الطب الحديث)، وأن يحكمها زوجها كعقابٍ لها على إثمِها، لكن العذراء هي القمة التي يجب أن تصل إليها أية امرأة تريد أن تَبْرَأَ تمامًا من الإثم؛ لأن العذراء تنسى طبيعتها الأنثوية المدنسة وتعيش كالرَّجل تستمد من طبيعته الفضيلة لتقوِّي جنسها الضعيف. لهذا تتحرَّر العذراء من عبودية جسدها الذي هو بالطبيعة يجب أن يكون تابعًا للرجل. إن الخطيئة جزءٌ من طبيعة المرأة، والعذرية تحرِّر المرأة من الخطيئة ومن الطبيعة الأنثوية أيضًا، فتصبح العذراء رجلًا أو كالرَّجل. إن المرأة في الأصل ليست إلا جسدًا بغير رأس (رأسها هو زوجها)؛ ولهذا فهي إما أن تكون غير قابلة للتطهير والخلاص وتظل امرأة، أو قابلة للتطهير والخلاص، وذلك بأن تتحوَّل إلى رجلٍ وتترك طبيعتها الأنثوية المنحطة. إن العذراء التي تحوَّلت إلى رجلٍ يصبح لها عقل وحكمة. ومن هنا جاءت الفكرة التي شاعت في ذلك الوقت من أنه بعد البعث سيكون في العالَم الآخر ذكورٌ فقط؛ لأن كلَّ الإناث تحوَّلن إلى ذكور وأصبحن ملائكة.

إن المرأة هي رمزُ الجنس والجسد؛ ولهذا فإن خلاصها الوحيد هو بنكران جسدها؛ أي نكران طبيعتها لتكونَ طاهرة. وهذا السَّبب وراء الحكمة التي أمرتها بأن تغطي رأسها (ثم تطورت هذه الحكمة بأن أمرتها بأن تغطي جسدَها كله)، وأن تخلع كل أدوات الزينة التي يمكن أن تجعلها جذابة للرجل. إنها لا بدَّ أن تتجرَّد من كل زينة لتصبح غيرَ جذابة في عين الرَّجل، ويجب أن تغطيَ جسدها؛ لأن جسدها يجذب الرَّجل. والسؤال هنا لماذا يُجذب الرَّجل الذي هو صورة الله الكاملة إلى الجسد المدنس؟ أَمَا كان الأجدر بهذا الرَّجل أن يكون روحانيًّا ساميًا كما قيل عنه، فلا يجذبه هذا الجسد المدنس؟ ألم يفكِّر أحدُ الفلاسفة في أن انجذاب الرَّجل إلى الجسد المدنس، معناه أن طبيعة الرَّجل ليست روحانية وليست سامية كما أُشيع عنه؟ لو أنهم فكَّروا على هذا النحو لكان العلاج ليس هو تغطية أجساد النِّساء، وإنما هو تهذيب طبيعة الرِّجال، أو على الأقل الاعتراف بأن طبيعة الرَّجل وشهوته الجسدية لا تقل عن شهوة المرأة، وأن الرَّجل ليس رأسًا أو روحًا فقط، والمرأة ليست جسدًا بغير رأس، ولكنهما الاثنين؛ الرَّجل والمرأة، كلاهما يشتمل على الجسد والرأس، وكلاهما يمارس الجنس، وكلاهما له عقل ومسئول عن ممارسته الجنسيَّة وغير الجنسيَّة في الحياة بمختلف نواحيها.

وتقول المصادر التَّاريخية إن «أوريجن» استأصل خصيتيه من أجل الامتناع الكامل عن الجنس المدنس، ولكي تصبح روحه طاهرة. لكن الذي حدث أن رُوح أوريجن لم

تطهر على الإطلاق؛ لأن استئصال الخصيتين يزيد من خيالات الرَّجل الجنسيَّة كتعويض عن الشيء المفقود. ولا شك أن الروح الطاهرة لا يمكن أن يكون لها خيال آثم؛ لأن الطهارة ليست الامتناع عن الفعل فقط، وإنما الطهارة هي الامتناع عن الفعل وعن التفكير في الفعل أيضًا.

ولكن الفلاسفة قالوا في ذلك الوقت إن الرَّجل ينجذب إلى المرأة ويحبها كروح قابلة للتطهير والخلاص، ولكنه يحتقرها كجسد وجنس. وقد ورِث العالَم الحديث حتى اليوم هذه الأفكار وقسَّم الرِّجال والنِّساء إلى نوعين:

(١) أمهات طاهرات تم تطهيرهن بسبب الأمومة المقدَّسة والأزواج (نساء عفيفات باردات غير جذابات).

(٢) عشيقات وموسات (وما شابههن) مدنسات ومحتقرات (لكنهن جذابات وملتهبات جنسيًّا).

وكتب أوجستين[١٢] يقول: «إن المسيحي الصالح يتزوج المرأة؛ لأنه يرغب (كمخلوق الله) في أن يحوِّلها ويطهِّرها لتصبح الأم، ويكره فيها الاتصال الجسدي والفساد وجميع وظائفها الجسدية كزوجة.» ووصف أوجستين حبَّ الزوج لزوجته بأن قال: «أنت تحب زوجتك كحبك لعدوك.» إن التناسل في رأيه هو السَّبب الوحيد الذي جعل هناك إناثًا مختلفاتٍ عن الذُّكور، وقال إن المرأة آلة لتوليد الأطفال. ومن هنا نفهم لماذا عارضت الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا فكرةَ تحديد النسل ووسائل منع الحمل على أنها فكرة ضد الدِّين المسيحي وضد الكنيسة وضد الأخلاق. حدث ذلك في عصرنا الحديث في النصف الأخير من القرن العشرين، وما زال يحدث حتى اليوم ليس في أوروبا وحدها وإنما في بقاعٍ كثيرة من العالم، وليس بسبب الدِّين المسيحي فحسب، وإنما بسبب أديانٍ أخرى متعددة تفصل بين التناسل والجنس، وتعتبر الأمهات مقدَّسات، وما عدا أولئك من النِّساء فهن مدنسات.

وقال أوجستين أيضًا: إن الرَّجل حين يرضخ لجسد المرأة أو الجنس الآثم فإنه يفقد حكمتَه الإلهية؛ لأن الجسدَ هنا ينتصر على العقل، ومعنى ذلك أن عضوه الجنسي ينتصب وحدَه بدون سيطرة العقل، وتكون المرأة هنا آلةً بيولوجية صرفة يمارس معها الرَّجل شيئًا أشبه بالعادة السرية.

---

[١٢] انظر: Augnstine. De Sermone Dom. in monte 41.

وقد وصف أوجستين بذعرٍ شديد عضوَ الرَّجل المنتصب، وألقى اللومَ كلَّ اللوم، والمسئوليةَ كلَّ المسئولية على ذلك العضو السيئ الذي ينتصب بعيدًا عن العقل. وقد ذكر بعضُ علماء النفس المعاصرين لأوجستين أن ما قاله أوجستين ليس إلا تعبيرًا عن عقدة نقصٍ كان يشعر بها أوجستين، وأنه كان يعاني من مشكلةٍ جنسية وضَعفٍ في الانتصاب.

وبنى أوجستين على فكرته السابقة فكرةً أخرى، وقال إن انتصاب العضو هو جوهر الإثم، وبذلك فإن المرأة ليست هي الجوهر وإنما هي أداة فقط لتحريك ذلك الجوهر، أو أنها امتدادٌ له. وخرج من ذلك بقوله: إن المرأة ليست إلا أداة تحت سيطرة الرَّجل، قد تكون أداةَ ولادة، وقد تكون أداةً جنسية (عادة سرية فقط)، وهي لا يمكن أن تظهر أبدًا كشخص مثل الرَّجل، والعلاقة بينهما لا يمكن أن تكون علاقةً بين شخصين، وإنما هي علاقة بين شخص وبين شيء، هذا الشيء قد يُستخدم بطريقة صحيحة إذا استُخدم في ولادة الأطفال، وقد يُستخدم بطريقة خاطئة إذا استُخدم في الجنس. ونتج عن تجريد المرأة من شخصها وتحويلها إلى شيءٍ أن أصبحت تبدو في نظر رجال الكنيسة على شكل ثلاث صور أساسية:

(١) المرأة كعاهرة.
(٢) المرأة كزوجة.
(٣) المرأة كعذراء.

المرأة العاهرة هي امرأةٌ جنسية ومحتقَرة. والمرأة الزوجة هي امرأةٌ جنسية أيضًا، ولكنها محكومةٌ بعقل الزوج وخاضعة لحكمته الإلهية من أجل هدف واحد فقط هو ولادة الأطفال (اللذة الجنسيَّة هنا محرَّمة على الزوجة). أما العذراء فهي فقط ترتفع بالمرأة إلى الروحية والمساواة بالرَّجل. ومن هنا نشأت مريم العذراء، وارتفعت مكانتها في المسيحيَّة؛ لأنها ضربت عصفورين بحجر واحد:

(١) ظلت عذراء لم يلمسها رجلٌ ولم تمارس الجنس.
(٢) أصبحت أمًّا وولدت طفلًا (المسيح).

وبرغم استحالة هذا الوضع بيولوجيًّا وعقليًّا وعلميًّا، لكن الله أراد لها ذلك بأن نفخ من روحه فيها، فولدت ابن الله كما قالوا.

وقد استطاع أوجستين وغيره من الفلاسفة أن يطوِّعوا الحقائقَ الواضحة والظواهر إلى أفكارهم الذاتية الخاصة، وأن يقعوا في تناقضاتٍ صارخةٍ لا يقبلها العقل الذي قالوا عنه إنه من ممتلكات الرَّجل فحسب، وإن عقل الرَّجل جزءٌ من روح الله.

إن الفكرة القائلة بتعدُّد الزوجات دافَعَ عنها أوجستين وبرَّرها قائلًا إنها ليست من أجل لذة الرِّجال، ولكن من أجل التناسل وزيادة العدد كإرادة الله وطاعة أمره؛ لأن الله قال «تزايدوا وتكاثروا»، من أجل تقوية بني إسرائيل الذين سيظهر منهم في المستقبل المسيح المنتظَر.

وانتشرت في العالم بعد كلِّ ذلك الأفكارُ التي انتقصت وضْعَ المرأة، وجعلت المرأةَ المتزوجة أقلَّ من العذراء، والزوجة رأسها هو زوجها، وزوجها يملك جسدَها وله حقُّ قتْلها إذا خالفَته الزوجة. انخفضت مكانة المرأة في المجتمع المسيحي عنها في المجتمع الروماني السابق له، مع أن هناك نصًّا صريحًا في الإنجيل يقول إنه ليس هناك مَن هو يهوديٌّ أو إغريقي، ليس هناك مَن هو عبدٌ أو حرٌّ، ليس هناك مَن هو ذكر أو أنثى؛ لأن كلَّكم واحد في يسوع المسيح.

لكن الفلاسفة ورجال الدِّين تجاهلوا هذا النص الواضح من أجل أن تسودَ القيم الاقتصادية المطلوبة في ذلك الوقت، وهي القيم القائمة على الملكية والإقطاع والتوريث، وفرض النظام الأبوي ليورِّث الآباء أطفالَهم الشرعيين فحسب، أمَّا أطفالهم الآخرون غير الشرعيين المدنَّسون الذين ولدتهم نساءٌ مدنَّسات (عشيقاتهم وجواريهم ومومساتهم) فلا حقَّ لهم في الأرض ولا الميراث، ولا حق لهم في اسم الأب.

وقد بلغ من شدة تأثيم الجنس أنْ حُرِّم على الكهنة الزواج حتى يؤدوا الصلاةَ بالنَّاس كلَّ يوم وهم طاهرون. وقد سُمِّي الجنس بعبارة «وحش مفترس في البطن» الذي إذا ما تساهلت «وأعطيته شبرًا واحدًا فسوف يمتد ويحتل ميلًا كاملًا»، وهذا يدل على أن الذين قالوا هذا الكلام لا بدَّ أحسُّوا قوةَ هذه الرغبة الجنسيَّة داخلهم.

وكما حثَّت المسيحيَّة على عدم زواج الكهنة أمرت الراهبات بالامتناع الكامل عن الجنس، وتغطية الجسم والابتعاد عن كل شيء يمكن أن يجعل الجسد جذابًا، حتى لو كان الاستحمام وتنظيف الجسم. وقد قال جيروم (وهو فيلسوفٌ آخرُ في مستوى أوجستين) عبارةً شهيرة هي: «الجسم النظيف يعني عقلًا قذرًا.» وكان يشجِّع العذراء على عدم الاستحمام حتى لا تفكِّر في الجنس، وأن العذراء بغير هذا الاستحمام تصبح ملائكية! وقد ذكر علماء النفس الذين عاصروا جيروم وحلَّلوه نفسيًّا أنه كان لا يمارس الجنس في حياته الحقيقية، لكنه كان أسيرَ خيالات جنسية شديدة الشهوة مع نساءٍ لم يعرفهن، وأنه كان يعاني كبتًا جنسيًّا شديدًا أدَّى به إلى أن يعلن أحيانًا أفكارًا غريبةً بعيدةً عن العقل. وقالوا أيضًا إن أوجستين كان يرفض العلاقةَ الجنسيَّة مع النِّساء؛ لأنَّه كان أسيرَ علاقته بأمه التي كان يحبُّها ويكرهها في الوقت نفسه.

وقد انتشرت بعد ذلك الأفكارُ التي تمجِّد العذراء عامَّة، ومريم العذراء خاصة، وأعطَوا مريم لقبَ إلهة الأرض (وهو لقبُ الإلهة الأنثى القديمة قبل اليهودية) وأم الله. وتوَّجوها بالقمر ونجوم «إيزيس» فوق رأسها، وفي حِجرها الطفل المقدَّس ابن الله. وهي صورة قديمة أُخِذَت من إيزيس وحورس، وبذلك أعطَوا مريمَ مجدَ الإلهات الإناث في الديانات المصرية والإغريقية القديمة. ثم أعطَوها بعد ذلك عرشَ الله وأجلسوها على عرش الله بجوار إله اليهود القديم وابنه المسيح الذي حكم السماء ذاتَ يوم بعظمةٍ أبوية منقطعة النظير.

ومجَّدت الكنيسةُ العذراءَ والعذريةَ منذ ذلك الحين حتى قرننا العشرين. وأصبحت مريم العذراء رمزَ الطهارة والقدسية، وحواء رمز الجسد والإثم. أصبحت مريم الأم العذراء التي وُلِدَت بغير جنس، أما حواء فهي المرأة الجنسيَّة التي أَغْرَت الرَّجل ولم تلد ابن الله أو الإله، وإنما ولدت الشرَّ الذي قتل أخاه وصنع الجريمة والموت.

ورِثت العصور الوسطى هذه الأفكار وجاء «توماس» فيلسوفها ومفكِّرها (كانوا قد قدَّموه قربانًا وهو في الخامسة) وأكَّد ما قاله «أرسطو» من أن الرَّجل خُلِق للأنشطة النبيلة والمعرفة الفكرية، أما المرأة فرغم أن لديها روحًا عاقلة إلا أنها وُجِدت من أجل الجنس فقط، وليست إلا وسيلة للتناسل من أجل حفظ النوع.[١٣]

ويتبع توماس أرسطو أيضًا في نظريته البيولوجية أن الأنثى إنسان ناقص، وهي تكوَّنت أنثى بسبب حادثٍ وقع للحيوان المنوي الذكري الذي هو بالطبيعة يحتوي على إنسان كامل هو الرَّجل.

وقالوا أيضًا: إن آدم لم يكن مؤسِّس البشرية وأصلها فحسب، ولكنه كان أيضًا المادة التي خرجت منها المرأة الأولى.

وهكذا فإن المرأة جزءٌ من الرَّجل، أما الرَّجل فإنسان كامل. وخرجوا من ذلك بأن المرأة أدنى من الرَّجل جسديًّا وأخلاقيًّا ونفسيًّا وروحيًّا ودينيًّا.

وقد سلبوا حواءَ كلَّ شيء حتى حقها في أن تكون ناجحة في الشر ومستقلة به، فقالوا إنها أغرت آدم حقًّا لكنَّ إغراءها لم يكن إلا أداة، وآدم هو الذي حسم وقرَّر وأراد وليست هي. ومع ذلك قالوا أيضًا إن الشر في العالم سببُه حواء، وهي مسئولة عنه، وآدم بريء منه. كيف؟! لكن هذا على غرار: أنت عضضت الكلب!

---

[١٣] انظر: Thomas Aquinas. Summa Theologica. ed: English Domicincan Province 3 vols. 1947. 1, 76, 1.

لكنهم اعترفوا بعد ذلك بسقوط آدم، وقالوا إن سقوط آدم كان يقتضي التكفير عنه في صورة المسيح الذي مسح ذنبَ آدم وذنوبَ الرِّجال فقط؛ لأن المسيح كان رجلًا ولم يكن امرأة. ومن هنا تساءل توماس تساؤله الشهير: «لماذا تجسَّد المسيح في جسدِ رجل ولم يتجسَّد في جسد أنثى أو خنثى أو «لوجوس» مخلوقًا لا جنسيًّا؟» إن سقوط آدم الأول قد مُسِح بتكفير آدم الثاني (سموا المسيحَ آدمَ الثاني)، وإن الكهنة هم امتداد المسيح فوق الأرض، ومِن ثَم الرِّجال أيضًا.

لكن هؤلاء الفلاسفة نسُوا أنهم قالوا من قبلُ إن مريم العذراء بعذريتها وطُهرها وكونها الأم التي لولاها ما جاء المسيح، قد كفَّرت عن إثم حواء. فلماذا لم تمسح ذنوبَ النِّساء كما مسح المسيح ذنوبَ الرِّجال؟ ولماذا أصبح الكهنةُ والرِّجال امتدادًا للمسيح ولم تصبح النِّساء امتدادًا للعذراء؟

لكن يبدو أن هؤلاء الفلاسفة كانوا يَرون الأمورَ بعينٍ واحدة (هي العين الذكرية)، ويفكِّرون بنصف عقولهم فقط (لا بد أنه كان نصف عقولهم الذكري أيضًا).

وقد فكَّر هؤلاء الفلاسفة أيضًا في شكل الاتصال الجنسي الذي سيحدث في الجنة (يبدو أنهم اعتقدوا أن الجنة لا يمكن أن تكون جنةً بغير اتصال جنسي، وهذا يناقض نظرتهم إلى الجنس كإثم)، وقالوا إن الاتصال الجنسي في الجنة اتصالٌ روحي بغير لذة الجنس وبغير ألم الولادة وبغير تمزيق غشاء البكارة؛ لأن كلَّ الإناث في الجنة عذراوات؛ ولهذا نُظِر إلى الزواج في تلك الفترة على أنه من أسوأ الاختيارات أمام المرأة، والأفضل للمرأة أن تظل عذراء (لتضمن مكانًا لها في الجنة). والاختيار الثاني هو أن تكون «أرملة» (تربِّي أولاد زوجها الذي مات، وبالطبع لا تمارس الجنس). والاختيار الثالث هو الذي لا تفعله إلا عند الضرورة وهو الزواج. كانت هناك نصيحة دينية وفلسفية عامة لجميع النِّساء تقول: عند الضرورة تزوجي!

وكان أرسطو من قبلُ قد خرج للناس بنظريته الفسيولوجية عن أن العامل الأساسي الإيجابي في التناسل هو الحيوان المنوي الذكري الذي يحتوي على الجنين الإنساني الكامل،[١٤] ولا يحتاج فقط إلا إلى تجويفٍ داخلي (الرحم) من أجل أن ينموَ ويتغذَّى (لم يعرف أرسطو أن الجنين يتكوَّن من التحام بيضة المرأة بحيوان الرَّجل المنوي، وبدون البيضة لا يتكوَّن

[١٤] انظر: Borren. p. 199.

أيُّ جنين). وظن أرسطو أن المرأة إذا ساهمت في صنْع الجنين فهي تساهم بمادةٍ خام غير حية، أما الرَّجل فهو وحدَه الذي يمنح الطفلَ الحياة. وقال أيضًا إن ممارسة الجنس مع منْع الحمل هو الإثم بعينه، ليس لأن المرأة تنتهك أمومتها، ولكن لأن في ذلك انتهاكًا للحيوان المنوي الذكري وغايته العظمى.

وقال أرسطو إن المرأة تكفِّر عن خطئها الجنسي (حين تتزوَّج) بولادة الأطفال، وبأن واجبها الأساسي بعد إنجاب الأطفال هو أن تلقِّنهم التعاليمَ الدِّينية وحبَّ الله وطاعته. لكن توماس اختلف هنا مع أرسطو وقال إن تعليم الأبناء هو مهمةُ الرَّجل وليس المرأة؛ لأن الرَّجل يملك القوة والسيطرة والحكمة اللازمة للتعليم، وأصرَّ توماس[١٥] بهذا الرأي على أن يُضَم الأطفال إلى الأب في حالة طلاق الزوجين، على أن يبقوا مع الأم ثلاث السنوات الأولى من العمر فقط.

على أن أرسطو وتوماس اتفقا اتفاقًا كاملًا على اعتبار الزواج عملًا غيرَ أخلاقي، وأن ولادة الأطفال تخفِّف من ذلك الخطأ وذلك الفعل غير الكريم، وأن تعليم الأطفال الدِّينَ يساعد على التخفيف من هذا الخطأ، وأن العفة وإعلاء الغريزة هما قمة الفضائل.[١٦]

وقال توماس إن لهيبَ الشهوة الجنسيَّة جزءٌ من العقاب بسبب سقوط حواء، وإنها (أي الشهوة) تعكس فقدانَ العدل الأصلي، وإن هذه الشهوة لا تشبع ولا تُقاوَم، والزواج علاجٌ لها ومن أجل ألا تحدُث خيانة. وقال إن شهوة المرأة أشدُّ؛ لأن كلَّ كِيانها بُنِيَ على الجنس والولادة؛ ولهذا فإن المرأة أضعفُ من الرَّجل في مقاومة الشهوة، وهي أكثرُ من الرَّجل خيانةً.

ثم قال بعد ذلك إن المرأة يجب أن تُمْنَع من ممارسة الجنس أثناء الحيض حتى لا تنجب طفلًا مشوَّهًا، ولكنها يجب ألا تمتنع عن الرَّجل إذا رغِبها وهي حائض؛ لأنها إذا رفضته فقد يعرِّض الرَّجل للزلل والخيانة والإثم.

لم يدرك توماس أنَّه ناقضَ نفسَه هنا؛ لأنَّ هذا معناه أنَّ شهوة الرَّجل عنيفةٌ إلى حدٍّ أنه لا يستطيع أن يصبر يومًا أو يومين أو ثلاثة حتى ينتهيَ الحيض. كما أنه صرَّح للرجل أن يمارس الجنس مع زوجته الحائض (من أجل إطفاء شهوة الرَّجل وحتى لا يُعرَّض

[١٥] انظر: Ziegler Die Ehelehere. 133.

[١٦] انظر: ST. 11–11. 152, 4. Concl.

للإثم) وإن نتج عن ذلك طفلٌ مشوَّه؛[١٧] أي إن مصلحةَ الطفل عنده أقلُّ من إشباع شهوة الرَّجل، وعلاج الإثم أهمُّ من مصلحة الطفل القادم، وهذا يناقض تمجيدَه السابق للأطفال وتحقيره للشهوة الجنسيَّة.

وقال أيضًا إن الزوجة يجب ألا ترفض رغبةَ زوجها المريض بالجذام رغم أن الأطفال معرَّضون للإصابة، أمَّا هي فيمكنها أن تتفادى الإصابةَ بألا تعيش مع زوجها تحت سقفٍ واحد. وقد تصوَّر توماس أن الجذام لا ينتقل إلى المرأة عن طريق العملية الجنسيَّة، أو لعلَّه تصوَّر ذلك لكنَّ إشباع رغبة الزوج كانت لديه أهمَّ من صحة الزوجة والأطفال. وهذا هو منهج الفلسفة الذَّكَرية المتناقضة القائمة على السلطة الأبوية وتشويه الحقائق وبتْرِها وقلبِها من أجل إثباتِ أشياءَ أبعدَ ما تكون عن العقل وعن الحقيقة.

ثم قال توماس إن الرَّجل هو الذي يبدأ ويرغب الجنس، وعلى المرأة أن تستجيبَ له، مع أنه قال سابقًا إن شهوة المرأة أشدُّ، وإن إثم المرأة أشدُّ. وقد اعتقد توماس أنه من المضرِّ لصحة الرَّجل أن يختزن السائلَ المنوي؛ ولهذا وُجِدت المرأة من أجل صحة الرَّجل، وأن البغاء مقبول كشرٍّ لا بدَّ منه؛ لأن طبيعة الرَّجل تحتاج إلى هذا البغاء كصِمَامِ أمانٍ وحتى لا يُختزن السائل المنوي داخل الرَّجل. ألا يناقض هذا الكلام ما سبق أن قاله توماس وغيره من الفلاسفة عن آدم وحواء والإثم والجنس والشهوة؟! لقد حلَّل الرَّجل لنفسه الآن الجنسَ ليس داخل الزواج فحسب، وإنما مع المومسات أيضًا كصِمام أمانٍ وحتى لا تُضَر صحةُ الرَّجل بتخزين السائل المنوي، ولأن شهوة الرَّجل لا يمكن أن تُؤجَّل؛ هذا الرَّجل الذي كان منذ قليلٍ الروحَ السامية، وصورةَ الله والرأس بغير جسد، والذي أغرته حواءُ الآثمة المدنَّسة!

لم يكن توماس يعرف ما نعرفه الآن من أن رغبةَ الرَّجل كرغبة المرأة، وأن صحة المرأة تتضرر أيضًا إذا شعرت برغبةٍ وامتنعت عنها مثل الرَّجل. لم يعرف توماس أن تخزين السائل المنوي لا يضر الرَّجل كما تصوَّر. إن الجسم يفرِّغ السائل المنوي أولًا بأول عن طريق الممارسة الجنسيَّة أو عن طريق الاحتلام أو الإشباع الذاتي (العادة السرية) أو أي شكل من أشكال الممارسة الجنسيَّة، وإن الرَّجل إذا كانت زوجته حائضًا فيمكنه أن ينتظر يومًا أو يومين أو عشرة أو حتى عشرين دون أن يصيبه شيء.

بعد انتشار هذه الفكرة في العالم أصبحت الفلسفة في العصور الوسطى وعند الكنيسة ترتكز على أن الرَّجل ينتمي إلى نفسه، والمرأة تنتمي إلى الرَّجل، وأصبح للرجل

[١٧] انظر: ST. Suppi. 64. 4 Concl.

حرياتٌ ليست للمرأة؛ من حق الرَّجل أن يخون زوجته ويمارس الجنس مع جميع النِّساء فيما عدا الزوجات؛ لأنه بذلك يعتدي على حقِّ رجلٍ آخر. أما النِّساء فليس لهن حقوق. إن الخيانة محرَّمة على المرأة تحريمًا قاطعًا في كافة الظروف والأحوال. المرأة الأرملة لا تمارس الجنس مرةً أخرى ولا تتزوج مرةً أخرى، ولكن عليها أن تربي أطفال زوجها من عشيقاته الأخريات. إنَّ مسئولية المرأة في الخيانة أشدُّ من الرَّجل؛ لأنَّها مسئولة عن تربية الأطفال والحفاظ على الأسرة الأبوية (أمَّا الأب أو الرَّجل الذي تنتسب إليه هذه الأسرة فليس مسئولًا عن الحفاظ عليها)! تبرير للازدواجية الأخلاقية بازدواجية اجتماعية، والحجَّة هنا أقبحُ من الذنب.

وبالرجوع إلى الأفكار السَّابقة نجد أنَّ الرِّجال أدانوا الفعلَ الجسدي — أي الجنسي — وفصَلوه عن الحب، وعرَّفوا الحبَّ على أنَّه شيء روحي مُتَّصل بالله. وفي القرون الوسطى أيضًا استمر هذا الاتجاه نحو فصل الجنس عن الحب، وقالوا إنَّ الحب من عند الله، أما الجنس فهو من عند المرأة أو الجنس الأنثوي المدنَّس؛ ولهذا كان محرَّمًا على المرأة — وبالذات المرأة الحائض — أن تدخل الكنيسة. وقالوا إن دم الحيض يجذب الشياطين والأرواح القذرة. وإن المرأة الحائض تفسد اللبن وتقتل العشب إذا سارت عليه، وفرضوا على النِّساء ألا يتكلمن إلا نادرًا، ولا يتكلمن أبدًا أثناء الأكل. أما فيليب دو نوفير — أحدُ مفكري ذلك العصر الكبار — فلم يكن يريد للمرأة أن تقرأ حتى لا تتعرَّض للشر.[١٨] (يبدو أنه كان يعرف أن الكتابات، وكلُّها من إنتاج عقول الرِّجال ملأى بالشر). وبالرغم من اعتقادهم بأن المرأة بطبيعتها هي الشرُّ المجسَّد إلا أنهم هنا يناقضون ما سبق؛ فالمرأة الآن ساذجة بريئة تُمْنَع من القراءة حتى لا تتعرَّض للشر بغير ألم. هل يقول إن الطب الحديث ضد الدِّين وضد إرادة الله الذي جعل الألم عقابًا للنساء ليتطهَّرن من الإثم؟ أم إنه يقول إن الجنة أصبحت فوق الأرض؟! ونحن نعلم في عصرنا الحديث هذا أن الفاتيكان عارض الولادةَ بغير ألم؛ لأنها ضد الدِّين!

لكن الأفكار تغيَّرت بعد القرن الثالث عشر، وبدأ المفكِّرون يرون مريمَ بشرًا، وكتب روبرت Rupert of Deutz عن مريم يقول: «إن خالقك أصبح زوجك. لقد أحبَّ جمالك. أراد أن يتَّحد بجمالك وقد رغِبك. أسرعي لتقابليه، قد تنالين منه قُبلة، قُبلة من فمِ الله، وتحظين بعناقه.»[١٩]

---

[١٨] انظر: pnilippe de novaire. In Hentsch. p. 84.

[١٩] انظر: Graef, Mary, A History of Doctrine and Devotion. pp. 215–216.

بعد ذلك ارتفعت مكانة الزواج، وأصبح يُنْظَر إليه كأنبل شيء، وتغيَّرت النظرة إلى الجنس وأصبح شيئًا نبيلًا في ظل الزواج. والمرأة أصبح لها عظمةُ الأمومة، وأنها رغم ألم الولادة والأسى المفروض عليها بإرادة الله فهي تجد لذةً في الأمومة وتحقيقًا لذاتها ووجودها. وكان هذا التغيير سبقه تغيير الظروف الاقتصادية، وأصبح المجتمع في القرن الـ ١٥ في حاجةٍ إلى مزيدٍ من الأيدي العاملة لتشغيلها في الصناعات الجديد والأعمال المتزايدة؛ فقد نشِطت التجارة على أثر اكتشاف أمريكا، والدوران حول رأس الرجاء الصالح، وفتح أسواق في الهند والصين، وظهرت الآلات والورش الكبيرة.

وأحد المفكِّرين الذين اشتهروا في ذلك الوقت هو «لوثر» الذي قال: «إذا رأى رجلٌ امرأةً والتهبت شهوتُه فإن الإثم ليس في عينيه وإنما في قلبه غير النقي؛ لأن العينين واليدين والقدمين كلها هدايا من عند الله.»[٢٠] وقال لوثر إن علاج الشهوة ليس بالهروب داخل المعبد في زي الكاهن لتلافي رؤية المرأة، ولكن بالتعلُّم كيف تستخدم هذه الأشياء. وقد ثار رجال الكنيسة ضد «لوثر» الذي حاول أن يُصلِح الكنيسة بعد أن لاحظ أن دَخْلَ كنيسة روما يأتي أساسًا من الضرائب على بيوت الدعارة، وقد آلمه أن يرى أن الكنيسة تمدُّ يدها للشيطان وتحصل منه على طعامها، بل وتنشئ بهذه الإيرادات الملوَّثة الشيطانية قصورَها المهيبة المقدَّسة. ولعل أكثرَ ما آلمه أن الدخل الرئيسي لحصيلة صندوق النذور في الكنائس كان يدخل عن طريق زبائن بيوت الدعارة الذين كانوا يمرون بالكنيسة ويدفعون شيئًا في صندوق النذور قبل ذهابهم إلى المومسات؛ ابتغاءَ غفران الله على الإثم الجنسي الذي هم في طريقهم إليه.

ولم يستطِع «لوثر» أن يُصلِح الكنيسة، واتُّهِم أنه رجل جنسي فاسق لأنه تزوَّج رغم أن قانون الكنيسة لا يسمح له كقس بالزواج. لكن لوثر خرج على قانون الكنيسة وتزوَّج وأنجب. وحين مات «لوثر» اتُّهِم بأن شيطان الجنس ركِبه، وأن رائحة الشيطان الكريهة كانت تتصاعد من قبره.

أما «كالفن» فقال: «إن الروح المقدَّسة موجودة دائمًا أثناء أي اجتماع جنسي بين زوج وزوجته.» ودافع عن حق المرأة في ألا يضطهدها زوجها،[٢١] لكنه لم يوافق على أن تنفصل الزوجة عن زوجها الذي يضطهدها، وعليها أن تبقى معه وتكافح حتى آخر نفس من أجل

[٢٠] انظر: Enarrationes in 1 mose. Wa 43, 344. 25–29.

[٢١] انظر: Co 51. 735–746.

إصلاحه، إلا في حالة واحدة، إذا كانت حياتها معرَّضة للخطر. كان من المستحيل قبل ذلك انفصالُ المرأة عن زوجها (وإن كانت حياتها معرَّضة للخطر) ولم يكن لها حقُّ الزواج مرةً أخرى بعد وفاته.

تغَيَّرت الأفكار بعد ذلك، وارتفعت مكانة المرأة شيئًا فشيئًا. وفي عهد النهضة زادت مكانة النِّساء، وكان المذهب الفلسفي الإنساني قد أخذ القيادةَ في تغيير وضع المرأة في القرنين الـ ١٥، الـ ١٦.

لم يحدث هذا التغيير في المذهب الفلسفي إلا بعد التغيير الاقتصادي والاجتماعي الذي أحدثته حركة التمرُّد بين الطبقات الدنيا والأُجَراء والعمال والفقراء والنِّساء ورغبة المطحونين والمستعبدين في التحرُّر من سيطرة الإقطاعيين والمُلَّاك والأسياد.

وبدأ النَّاس يثورون على الأوضاع والأنظمة الحاكمة، وبدءوا يتمرَّدون على المؤسسات الموجودة في المجتمع التي تحكمهم وتبرِّر لهم ما هم فيه من فقرٍ وذلٍّ واستعباد. إحدى هذه المؤسَّسات كانت الكنيسة التي قالت إن حقَّ الحكام والملوك نابعٌ من السماء وليس من الأرض، وإن الملكية والثراء حقٌّ إلهي أعطاه الله للإقطاعي، وعلى الأجير أن يطيع ويقبل أمر الله، وإن السيطرة للرجل الذكر، وعلى المرأة أن تطيع وتقبل أمر الله.

وشعرَ العبيد والسود والأُجَراء بالاغتراب عن كنيسة طبقية وإله طبقي وديانة طبقية، تحفظ حق طبقة الحكام والأثرياء ولا تحفظ حقوق الأجراء والعبيد والمطحونين. وشعرت النِّساء بالاغتراب عن كنيسة ذَكَرية وإله ذَكَر وديانة ذَكَرية تؤمن بأن الله له الحق في الأمر والنهي والطاعة، وأن الرِّجال يشاركون هذا الحقَّ مع الله.

وقد ظلَّ الفكر الدِّيني الرجولي حائرًا — حتى قرننا العشرين — في تفسير ذلك الحديث الجنسي الأول في حياة البشرية (آدم وحواء)، أو العلاقة بين الرَّجل والمرأة، وما زال بعضهم — ومنهم «كارل بارث» — يكتب في الخمسينيات من هذا القرن قائلًا إن كلمة الله تجسَّدت في المسيح، وإن الله تكلَّم بصوت الذَّكَر،[٢٢] وإن النِّساء مستمعات فقط. وقال إن الفَرق بين الله والرَّجل امتد ليكون أيضًا بين الرَّجل والمرأة، ورفض «بارث» فكرةَ أن المسيح أنثى وذكر معًا؛ أي إنسان كامل. لكن أحد العلماء الآخرين المعاصرين هو تيليش Tillich اختلف مع «بارث» وقال إن إضافة الأنثى إلى المسيح محاولةٌ لجعله إنسانًا كاملًا.

---

[٢٢] انظر: The Humanity of God Bartah. 1956.

لكن «بارث» رفض هذه الفكرة وظلَّ يعتقد بأن المرأة أدنى من الرَّجل، وأن تفكير الرَّجل كامل في حد ذاته، وتفكير المرأة ناقص.

وكان من الغريب — بعد هذه الأفكار التي تنتقص من قدْر المرأة وقيمتها العقلية والإنسانيَّة — أن يكتب «بارث» بعد ذلك ما يفيد أن طبيعة المرأة أسمى من الرَّجل وأنبل، وحياتها أسعد، وأنه إذا استسلم لرغبةٍ مستحيلة فهذه الرغبة هي أن يصبح امرأة.[٢٣]

أما «تيليش» فقد حاول أن يُنصف المرأة كإنسانٍ له عقلٌ كالرَّجل، وحاول أن يبنيَ جسرًا يصل ما بين العقل والعاطفة. وكان ينشد من ذلك تحقيقَ نوعٍ من المعرفة الكاملة، وعلاجَ الانفصام الذي حدث فلسفيًّا ودينيًّا بين العقل والعاطفة، وعارض ما سُمي بالتفكير الذكري (وهو العقل) والتفكير الأنثوي (وهو العاطفة)، وقال إن التفكير الذكري ليس هو التفكير الوحيد، وإن الفهم الكامل يأتي من التفكيرين معًا، وإن التفكير الذكري وحدَه نتج عن معرفةٍ مشوَّهة ناقصة غامضة؛ بل ومحطَّمة أيضًا.

وقال أيضًا إن الازدواجية داخل النفس الواحدة، وإن الله ليس ذكرًا وليس أنثى، وإن الأفكار الدِّينية والفلسفية التي أعطته الذُّكورة أخطأت، وأعلن أن الفكر الدِّيني مُطالَب الآن بتحرير الله من أفكار الفلاسفة ورجال الدِّين وإعطائه الصفة الكاملة.

وشرح تيليش تفسيره لقصةِ آدم وحواء، وقال إن هذه القصة الدِّينية ليست إلا قصة رمزية، والمفروض أن نفهم ما وراءها من معنًى. وقال إن هذه القصة ليست إلا رمزًا للمرحلة التي يمر بها الفرد في اجتيازه من الطفولة أو الاتحاد بالأم أو الوجود الأصلي إلى أن يصبح ناضجًا كفرد مستقل. إنها المرور من مرحلة الحُلم بالبراءة إلى المعرفة الحقيقية بالواقع والحقيقة. وفي هذا المرور يشعر الإنسان بأزمةٍ تشبه أزمةَ المراهق حين يكتشف الجنس فيشعر بالإثم، لكن هذه الأزمة ضرورية لنمو المراهق؛ لأنه بدون اكتشاف الجنس يفقد الفرد نفسَه تمامًا، بمعنًى آخر: إن سقوط آدم في رأي تيليش ليس إلا رمزًا لسقوط المراهق، وهو سقوط ضروري لتحقيق الذات، ولكن من ناحية أخرى يرسب الشعور بالإثم والذنب.

ويكاد الفكر الدِّيني عند تيليش يقترب من الفكر الفرويدي عن النفس والجنس، مع الفارق الكبير في فلسفةِ كلٍّ منهما ومنهجه في التفسير.

[٢٣] انظر: Schtermachers Laban l. quoted in badb church: Dogmatics 114–155.

ولا أظنُّ أنَّ هذا الكتاب يتَّسِع لعرضٍ مُتعمِّق لأَزْمة الفكر الدِّيني والفلسفي في الحضارة الذُّكورية الغربية[٢٤] التي تسود العالم. لكن ما أردت أنْ أوضِّحه من هذا العرض السَّريع لنماذجَ من أفكار بعض رجال الدِّين من مختلف العصور القديمة والحديثة، هو نوعٌ من الإشارة إلى التَّناقضات الصَّارخة التي وقع فيها الكثيرون منهم على مدى عشرين قرنًا وأكثر، وكيف أن أفكارهم واستنتاجاتهم افتقرت حتى لأكثر أدوات التفكير العقلي بدائيةً، بالرغم من ادعائهم بأن الرَّجل هو العقل، والمرأة هي الجسد بغير عقل. وكيف خرجوا إلى النَّاس بحقائقَ لا يمكن أن يصدِّقها عقلُ طفل ولا أقول امرأةً أو رجلًا. وهل هناك عقلٌ يصدِّق أن المرأة جسدٌ بغير رأس، وزوجها هو رأسها؟! هل هناك عقلٌ يوافق على أن رجلًا وامرأة اشتركا معًا في فعلٍ واحد، فإذا بالرَّجل بريء والمرأة وحدَها يُنْسَب إليها الفعل؟ لقد مارس الرَّجل والمرأة أولَ فعلٍ جنسي في تاريخ البشرية، ولولا هذا الفعل ما جئنا وما جاءت البشرية وما جاء الفلاسفة ورجال الدِّين، فهل هناك عقلٌ يقول بعد ذلك إن هذا الفعل هو الإثم؟! وإن حواء كانت السبب؟!

الغريب أن كثيرًا من العقول في عصرنا الحديث هذا لا تزال تؤمن بكثير من الأفكار السابقة. معظم هؤلاء لم يدرسوا تاريخَ البشرية، ولم يدركوا الأسبابَ الحقيقية التي من أجلِها اضطُهدت المرأة هذا الاضطهاد الجنسي والاجتماعي. معظم هؤلاء لم يربطوا بين التَّاريخ الاقتصادي والتَّاريخ الفلسفي والأخلاقي للبشرية، وبغير هذا الربط لا يمكن للإنسان أن يفهم الأسبابَ الحقيقية لظاهرة الاضطهاد الجنسي للنساء أو الاضطهاد الاقتصادي والاجتماعي لطبقاتٍ معيَّنة في المجتمع، أو الدوافع الحقيقية لنُظمٍ معيَّنة في الزواج أو الطلاق أو القيم الأخلاقية.

مثلًا كان اضطهاد المرأة في الهند شديدًا إلى حدٍّ أن انتشرت (إلى عهدٍ غير بعيد) عادةُ حرق المرأة بعد وفاة زوجها. وكان رجال الأديان يُصرُّون على حرق الأرملة الثرية بالذات؛ لأن أموالها كانت بعد وفاتها تذهب إلى رجال الدِّين بحكم القانون!

[٢٤] لم أتعرَّض للفكر الدِّيني في المنطقة العربية ولا في الإسلام؛ لأنَّ الإسلام من حيث التَّسلسل التاريخي جاء بعد المسيحية واليهودية، ويحتاج في مناقشته إلى كتابٍ آخر. كما أنَّه لا يمكن أن ننكِر أنَّ الحضارة الذكورية الغربية قد أثَّرت تأثيرًا كبيرًا على جميع المناطق في العالم، وبالذات الشرق الأوسط وآسيا وأفريقيا؛ وذلك بسبب الاستعمار الثقافي الذي يتبع بالضَّرورة الاستعمارَ الاقتصادي والعسكري.

كان سهلًا دائمًا على البشر في كل العهود أن يغيِّروا نُظُم الزواج ونُظُم العلاقات الجنسيَّة حسب الحالة الاقتصادية دون أيِّ اعتبار لما سُمِّي بالقيم الأخلاقية. في فترات الفقر وازدياد عدد السكان يُباح قتلُ الأطفال ويُباح الإجهاض، وتُحرَّم العلاقات الجنسيَّة خارج الزواج، ويُشجَّع النَّاس على عدم الزواج، أو على الزواج مع تحديد النسل، ويستطيع أيُّ مجتمع في أي وقتٍ أن يستخرج من قيمه الدِّينية والأخلاقية ما يتمشَّى مع مصالحه الاقتصادية. وفي فترات الرخاء النِّسبي وقلة الأيدي العاملة يُشجَّع النَّاسُ على الإنجاب داخل الزواج وخارجه. في بعض المناطق — جنوب الهند — رأيت بعضَ القبائل الفقيرة تبيح تعدُّد الأزواج في عهود كثيرة لأسباب اقتصادية مختلفة، عند العرب قبل الإسلام، وفي «إسبارطة» في اليونان القديمة كان القانون يبيح تعدُّد الأزواج بشرط أن تنجب الزوجة طفلًا واحدًا، وكان الأطفال الزائدون عن حاجة الدولة يُقْتَلون بأن يُلْقَوا في مقبرةٍ سمَّوها مقبرة «تايجيتوس».

وكان اليونانيون يسمحون بجميع العلاقات الجنسيَّة خارج الزواج بشرط ألا تؤثِّر على ثروة الزوج، أو تنتقل ميراثَه إلى طبقةٍ أدنى أو أطفال رجل آخر.

في المجتمع الروماني كان من حق الرَّجل أن يتبنَّى ابنًا مجهولَ الأب، وكان السَّبب في ذلك اقتصاديًّا بحتًا متعلقًا بالوراثة والملكية. في المجتمع الروماني كان من حق الرَّجل أن يتبنَّى ابنًا مجهولَ الأم ويصبح ابنه، أما المرأة فلم يكن من حقِّها أن تتبنَّى ابنًا مجهول الأب. وكان السَّبب في ذلك اقتصاديًّا بحتًا متعلقًا بالوراثة والملكية.

حين نشِبت الحرب بين أثينا وإسبارطة في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد ابتلعت الحرب أعدادًا من الرِّجال الذين طالت غيبتُهم والذين خلَّفوا وراءهم زوجاتٍ وحيدات. وهنا فكَّر الرِّجال (الذين لم يذهبوا إلى الحرب) في الوسائل التي تمكِّنهم من الاتصال جنسيًّا بهؤلاء الزوجات. وظهرت على الفور أفكارٌ تدعو إلى تحرير النِّساء جنسيًّا. ونشطت عقول الرِّجال في تبرير هذه الدعوة. أحد هذه العقول كان للطبيب اليوناني الشهير أبو قراط الذي بدأ يفكِّر في رحم المرأة كعضوٍ جنسي هام، وقال أبو قراط إن هذا الرحم في حاجةٍ دائمة إلى تغذيةٍ يحصل عليها من الرَّجل (لم يكن أحد من الرِّجال من قبلُ يفكر في حاجة الرحم)، وإن حرمان الرحم من هذا الغذاء الضروري يصيب المرأةَ بنوع من العصبية سمَّاها «هستيريا» (معناها باليونانية الرَّحم). وقد عاشت النِّساء من قبل ذلك في حرمانٍ جنسي دائم، لكنَّ أحدًا لم يفكِّر في إشباعهن. وبسبب «هستيريا» النِّساء قرَّر الرِّجال الاتصالَ بالزوجات الوحيدات من أجل صحة هؤلاء النِّساء، وليس من أجل إشباع رغبة الرِّجال!

وفي الوقت الذي انتشر فيه حزامُ العفَّة الحديدي في القرون الوسطى زاد الفسق بين الرِّجال وانتشرت الدعارة. وكان معظم الأزواج في تلك الفترة يسافرون كثيرًا لأعمال تجارية ويتركون زوجاتهم وحيدات؛ ولهذا ابتكر الرَّجل حزامَ العفَّة الحديدي لتلبسه المرأة فوق أعضائها الجنسيَّة ويغلقه زوجها بالمفتاح ثم يسافر مطمئنًا إلى أن أحدًا لن يعتديَ على أملاكه.

أمَّا هذا الزَّوج فكان نشاطه الجنسي مع المومسات والمحظيات أكثرَ من نشاطه التجاري، لكنه لم يكن يأبه بهذه العلاقات؛ لأنَّ أطفاله من هؤلاء النسوة لم يكن لهم نصيب في ميراثه.

ولم يكن الكهنة ورجال الدِّين أقلَّ نشاطًا من النَّاحية الجنسيَّة عن الرِّجال الآخرين، وانتشر الفساد وازداد عدد المومسات والأطفال غير الشرعيين في جميع الأوقات بما في ذلك الوقت الذي أعلنوا فيه الصومَ الجنسي وحُرِّم الزواج على رجال الدِّين والقسس.

وجاء الوقت الذي أصبحت فيه المومس جزءًا لا يأبى الانفصال عن الحياة، وضرورةً لا يمكن الاستغناء عنها، سواء في السِّلم أو في الحرب.

وقد عرف الرِّجال دائمًا أنَّه لا يمكن جمْع أيِّ جيش للحرب والمحافظة على صحته وقدرته على المواجهة دون إشباع غرائز الجنود الجنسيَّة؛ ولهذا كان على قيادة أي جيش أن تُوفِّر — بالإضافة إلى احتياجات الجنود — نفقاتِ الطعام والمأوى للمئات والألوف من المومسات حسب تَعداد الجيش. ويُقال إن مهنة الدعارة ازدهرت إبَّان الحروب الصليبية، وأنه كان على الصليبيين في عام واحد فقط أن يدفعوا نفقات الطعام والمأوى لثلاثة عشر ألف مومس. وعندما انتهت هذه الحرب أصبح أمام المجتمع الأوروبي مشكلةُ البحث عن مأوًى لهذا الجيش الجرَّار من المومسات. وكان كثير من القسس يديرون بيوتًا للبغاء في ذلك الوقت، ومنهم أسقف اسمه «منيز»[٢٥] قيل إن عدد المومسات في بيوت البغاء التي يملكها يقارب عددَ الكتب في بيته.

وقد انتشرت الأمراض التناسلية بالطبع بسبب نشاط الرِّجال الجنسي مع المومسات والمحظيات، وبلغ من انتشار هذه الأمراض إبَّان عصر النهضة أن أصبحت وباءً عامًّا يهدِّد صحَّة الجميع، وأعلن أحدُ أباطرة أوروبا في ذلك الوقت بيانًا قال فيه إن هذا الوباء الخطير غضبٌ من الله على البشر بسبب خروجهم على الدِّين واستسلامهم لشيطان الجنس.

---

[٢٥] انظر: «التاريخ الجنسي للإنسان»، صلاح حافظ، الكتاب الذهبي.

ولم يكن سببُ هذا الوباء قد عُرِفَ بعدُ؛ ولهذا نسبوه إلى المرأة وسمَّوه المرض «الفينوسي» نسبةً إلى «فينوس» إلهة الجنس اليونانية. وقد أصبح هذا الاسم يُطْلَق من بعدُ على جميع الأمراض التناسلية كالزهري والسيلان، وتُعْرَف هذه الأمراض حتى الآن في أوروبا باسم «الأمراض الفينوسية».

وهكذا نرى أنه بمثلِ ما أُلْصِقَت تهمة الجنس والإثم بحواء، فقد أُلْصِقَت تهمةُ المرض بفينوس، وظلَّ الرَّجل بريئًا طاهرًا، والمرأة سبب الخطيئة وسبب المرض.

بعد كلِّ هذا يمكن القول إن الحضارة التي نعيشها والأفكار التي ما زالت سائدةً حتى اليوم في معظم بلاد العالم تقوم على الركائزَ الأساسية التالية:

(١) احتكار الرَّجل للمال والسلطة والأطفال والميراث.
(٢) احتكار الرَّجل للدِّين والأخلاق والفلسفة والفكر.
(٣) احتكار الرَّجل للجنس والمتعة الجنسيَّة.

ورغم أن المرأة خرجت إلى التعليم والعمل بعد الحرب العالمية الأولى (لحاجة المجتمع إلى سواعد النِّساء بعد أن امتصَّت الحربُ الرِّجال)، إلا أن المرأة حين خرجت إلى العمل لم تكن إلا أداةً اقتصادية لسد النقص في أيدي الرِّجال العاملة، ولسد نفقات الأسرة ومساعدة الزوج أو الأب في الإنفاق. أما بالنسبة للمجالات الثلاثة السابق ذكرُها فقد ظلت المرأة مطرودة منها.

وإن النِّساء حتى اليوم في معظم بلاد العالم لا يمكن لهن — بأي حال من الأحوال — دخولُ أي مجال من المجالات السابقة التي احتكرها الرَّجل لنفسه. ولا يمكن لنا أن ننكر الآتي:

(١) المرأة لا تزال مطرودةً من مجال السلطة والحُكم والسياسة.
(٢) نصيب المرأة في الميراث أقلُّ من الرَّجل. في بعض الأحيان تُحْرَم المرأة تمامًا من الميراث. وفي حالة عدم إنجاب ذكر يرث الأقاربُ بصرف النظر عن وجود البنات.
(٣) المرأة لا تملك أطفالها، وإنما يملكهم الأب اسمًا وشرفًا وقانونًا.
(٤) المرأة لا تملك في الأديان إلا الخضوع للزوج والطاعة.
(٥) المرأة لا تملك الأخلاق إلا أن يعترف بها رجلٌ، وإلا فعليها أن تظلَّ عذراء.
(٦) المرأة لا تملك في الفلسفة إلا وضْعَ التابع للرجل والأقل منه عقلًا.
(٧) المرأة لا تملك في الجنس والمتعة الجنسيَّة إلا أن تكون مومسًا محتقَرة.

هذا هو وضع المرأة بصفةٍ عامة في معظم البلاد المتقدِّمة والمتخلِّفة. وقد حظيت المرأة ببعض الحقوق في بعض المجتمعات الاشتراكية، لكنَّ الأغلبية الساحقة من نساء العالم ما زلن تابعاتٍ للرجال، في أمريكا وأوروبا والشرق والغرب.

ولا تزال النِّساء في مجتمعنا العربي محروماتٍ من معظم حقوقهن، وما زالت الأغلبية منهنَّ متخلفات محجبات العقل والنفس. وبالرغم من أن الإسلام كدينٍ يُعَدُّ أكثرَ تقدُّمًا مما سبقه من أديان، وأنه أعطى المرأة بعضَ الحقوق التي حُرِمَت منها في أديانٍ أخرى، إلا أن رجال الدِّين على مرِّ العصور استطاعوا أن يفسِّروا الدِّين لصالح الرَّجل باستمرار، إلى حدِّ أن المرأة في عصرنا هذا حُرِمَت من كثير من الحقوق التي كانت تتمتَّع بها وقت ظهور النبي محمد رسول المسلمين.

ويَنسب بعضُ رجال الدِّين إلى النبي محمد أنه قال إن النِّساء ناقصاتُ عقلٍ ودين، في حين أن المصادر الإسلامية تقول إن الرسول محمد قال للرجال من حوله وهو يشير إلى زوجته السيدة عائشة: «خذوا نصفَ دينكم من هذه الحُميراء.» وكلمة الحُميراء هنا تعني أن وجهها كان مشربًا بالحُمرة.

ومن كثرة التفسيرات المتعددة والمتناقضة للكثير مما جاء في الإسلام فلا يكاد أحدٌ يعرف بالضبط الآتي:

(١) هل المرأة مساوية للرجل أم إنها أقلُّ منه؟

(٢) هل العلاقة الجنسيَّة بين الزوجين محرَّمة إذا مُنِعَ الحمل؟ إن ما حدث في مجتمعنا المصري بشأن هذه النقطة بالذات يجعلنا لا نعرف على الإطلاق هل تحديد النسل مباح في الإسلام أم محرَّم. أفتى عددٌ كبير من رجال الدِّين أنه حلال، وأن المسلمين في عهد الرسول كانوا يحدِّدون النسل عن طريق العزل (وهو قذف السائل المنوي خارج المهبل)، وقالوا إن الصحابة كانوا يفعلون ذلك والوحي ينزل، وأنه جاء في الصحيحين عن جابر: «كنا نعزل على عهد الرسول والقرآن ينزل.» وفي صحيح مسلم قال: «كنا نعزل على عهد رسول الله فبلغ ذلك الرسولَ فلم ينهنا.» وغير ذلك من الأسانيد التي تثبت أن تحديد النسل حلال. وبناءً على ذلك فقد أنشأت الدولة جهازًا كبيرًا لتحديد النسل في سنة ١٩٦٥م، ونشط هذا الجهاز عشْر سنواتٍ كاملة حتى سنة ١٩٧٥م، فإذا بقرارٍ يُذاع على النَّاس من المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي يقول إن تحديد النسل حرامٌ في الإسلام. وجاء في القرار[٢٦]

[٢٦] انظر: جريدة الأهرام ١٨ أبريل ١٩٧٥م، الصفحة ١١ بعنوان: مشكلة قديمة تُثار من جديد: هل تحديد النسل حرام؟

ما يأتي: وقد ثبَت طبيًّا أن تناول الدواء المانع من الحمل يُلحِق ضررًا بليغًا بالأمهات أو بأولادهن إذا لم ينفع في منْع الحمل وولدن. ولا يعتدُّ بالأسباب الواهية التي يذكرها أنصارُ تحديد النسل كخوفهم من كثرة السكان وتعذُّر التغذية وفساد التربية؛ ففي الآية الكريمة الجوابُ عن ذلك ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾؛ فالرزق على الله وهو مكفول، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. وساق القرار أسانيدَ أخرى تحرِّم تحديد النسل. ومن المعروف أن هناك بعض البلاد العربية الإسلامية تبيح تحديد النسل.

(٣) جاء في الإسلام أن الرِّجال قوَّامون على النِّساء بما أنفقوا من أموالهم، فهل إذا أنفقت المرأة على الرَّجل أصبحت هي القوَّامة؟ وهل إذا تساوت المرأة مع الرَّجل في تحمُّل مسئولية الإنفاق تصبح مساويةً للرجل؟

(٤) جاء في التفسيرات أن المرأةَ ترِث نصفَ ما يرث الرَّجل؛ لأنها غير مسئولة عن الإنفاق، فهل إذا أصبحت المرأة مسئولةً عن الإنفاق مثل الرَّجل (كما يحدث في كثير من الأُسَر التي تعمل فيها المرأة) يصبح من حق المرأة أن ترِث نصيبًا كالرجل، وأن تصبح الأنثى كالذكر في منع الأقارب من الميراث؟

(٥) جاء في الإسلام أن شهادة الرَّجل تقابلها شهادةُ امرأتين، فهل إذا تعلَّمت المرأة وأصبحت وزيرةً مثلًا أو طبيبة أو أستاذة بالجامعة، هل تظل عاجزة على أن تدلي بشهادتها وحدَها في الوقت الذي يفعل ذلك أيُّ رجل وإن كان أُميًّا لا يعرف القراءة ولا الكتابة؟

إن قانون القضاء المصري رقم ١٨ سنة ١٩٥٢م لا ينصُّ على أن القاضي لا بدَّ أن يكون رجلًا، وإنما تنصُّ المادة ٢ منه على أنه لا يجوز تعيين أحد في وظيفة قاضٍ إلا بعد التحقُّق من كفايته وصلاحيته للقضاء. لكنَّ الرِّجالَ المهيمنين على القضاء استطاعوا أن يمنعوا دخولَ المرأة فيه. يقول هؤلاء الرِّجال إنه لَمَّا كانت المرأة أقلَّ رتبةً من الرِّجال في الشهادة (شهادة الرَّجل تقابلها شهادة امرأتين)؛ فالمرأة إذن ليست مؤهَّلة بطبيعتها لتولي عمل القاضي؛ لأن الشهادة لا تزيد عن تقريرِ حادثة، في حين أن القضاء حكمٌ في نزاع.

وهل الحكم في نزاعٍ أشدُّ خطورة من إسعاف مريض وإنقاذ حياته من الموت؛ العمل الذي تفعله آلاف الطبيبات المصريات كلَّ يوم؟ وهل تصبح المرأة مسئولة عن أرواح النَّاس وتعجز عن الحكم في نزاعٍ حول قطعة أرض أو الإدلاء بشهادة في حادثة سرقة؟!

(٦) هل حقًّا لا توجد ولايةٌ للمرأة على الطَّلاق في الإسلام؟ ذهبت إحدى أستاذات الجامعة بالقاهرة إلى الضَّابط المسئول في مصلحة الجوازات لاستخراج جواز سفر لابنتها

الطَّالبة بالجامعة، التي حصلت على بطولةٍ رياضية، وقرَّرت الجامعة تسفيرها مع الفريق الرياضي إلى فرنسا.

وقال الضابط للأستاذة: لا أستطيع أن أستخرِج جواز سفر لابنتك بدون موافقة ولي أمرها.

وقالت له الأستاذة: أنا وليةُ أمرها منذ وُلِدَت؛ فقد طلَّقني أبوها وهي طفلة وتوليت الإنفاقَ عليها وأصبحتُ وصيةً عليها. وأخرجتِ الأستاذةُ الأمُّ ورقةً تثبت أنَّها وصيةٌ على ابنتها.

وقال الضابط: الوصاية شيءٌ والولاية شيء آخر يا سيدتي. والقانون هنا أنه لا ولاية للمرأة في أي ظرف من الظروف.

وسألت الأستاذة: وما سلطة هذه الولاية؟!

وقال الضابط: الولاية للرجل، وهو الذي يقرِّر سفرَ ابنته إلى الخارج أو زواجها. المرأة لا يمكن أن تنوبَ عنه في هذين الأمرين لأي سبب من الأسباب.

وهكذا حُرِمَت الابنة من السَّفر، وحُرِمَت الأستاذةُ الأمُّ من حقٍّ يتمتع به الرَّجل الذي طلَّقها وأهمل ابنته ولم يفكِّر في رؤيتها أو السؤال عنها، ولا أقول الإنفاق. فهل مثل هذه القوانين الظالمة يُقرُّها الإسلام؟!

(٧) هل حقًّا أن الإسلام يبيح للرجل أن يطلِّق زوجته ويشرِّد أطفاله من أجل نزوة جنسية؟!

(٨) هل حقًّا أن الإسلام يوافق على المادة ٦٧ من قانون الأحوال الشخصية في مصر التي تنص على الآتي:

> لا تَجب النفقة للزوجة إذا امتنعت مختارةً عن تسليم نفسِها بدون حق، أو اضطُرت إلى ذلك بسببٍ ليس من قِبل الزوج. كما لا تستحق النفقة إذا حُبِسَت ولو بغير حقٍّ أو اعتُقِلت أو غُصِبَت أو ارتدَّت أو منعها أولياؤها، أو كانت في حالةٍ لا يمكن الانتفاع بها كزوجة؟!

(٩) هل حقًّا أن الإسلام يوافق على أن الحاكم في البلد هو سلطان الله، ومَن يُهِنْ هذا الحاكم يُهِنْهُ الله، كما قال واحد من أكبر رجال الدِّين الإسلامي في مصر حين وقف على منصة الاتحاد الاشتراكي في المؤتمر القومي العام الذي عُقِدَ بالقاهرة يوم ٢٣ يوليو

١٩٧٥م، وقد نشرت جريدة الأهرام كلمةَ فضيلة الشيخ في ٢٤ يوليو ١٩٧٥م، الصفحة الخامسة، وفيها ما يأتي:

> «الذي يعنيني في موقفي هذا حديثٌ عن رسول الله: مَنْ أعزَّ سلطان الله أعزَّه الله. ومفهوم المخالفة: ومن أهان سلطان الله أهانه الله، وسلطان الله أمير في الخليج أو ملِك في مملكة أو رئيس في جمهورية، هؤلاء جميعًا يُطلق عليهم سلطان الله لا ريب.»

(١٠) هل حقًّا أن الإسلام يوافق على أن تعيش الأغلبية الساحقة من شعبٍ من الشعوب في فقر وجوع على حين تكتز الأقلية الذهب والفضة؟

ولستُ بصدد مناقشة وضع المرأة في الإسلام وفي الفلسفة الإسلامية؛ فهذه المناقشة تحتاج إلى كتابٍ آخر. ولكني قبل أن أنهيَ هذا الفصل أودُّ أن أذكر الآتي:

(١) أنَّ الدِّين (الإسلامي أو المسيحي أو اليهودي أو الهندوكي أو البوذي أو غيرهم) ظاهرةٌ روحية نقية في حياة البشر، ترتكز على الحق والمساواة، وليس على الظلم والتفرقة، وترتكز على الثورة والتقدُّم وليس على الجمود والتخلف. لقد كان عيسى ومحمد بالذات ثورةً على الظلم ودفاعًا عن حقوق الفقراء والنِّساء.

(٢) بدراسة المجتمع البشري منذ نشوء الملكية والتوريث والأسرة الأبوية حتى عصرنا الحديث نجد أن الأديان (بسبب النُّظم الإقطاعية والرأسمالية والاستغلال) قد تحوَّلت من دعوة الحق والمساواة إلى الدعوة لمبادئ النظام الحاكم السائد، وأصبحت الأديان ضمن الأسلحة والمؤسَّسات التي يستخدمها الحكَّام في قهر النِّساء والطبقات الأدنى من الرِّجال، وقد دافعت معظم الأديان عن هذه الأفكار الثلاثة في معظم العهود:

(أ) الملوك والحكَّام وأصحاب الأرض قد عُيِّنُوا بأمر الله، وكذلك الكهنة أو رجال الدِّين الذين هم ممثلو الله فوق الأرض.

(ب) أنَّ الرِّجال امتدادٌ لروح الله على الأرض؛ لأن الله ذكرٌ، وقد اختار الذُّكورَ ليكونوا «الروح» التي تمثِّل الفضيلة والخير، أما الأنثى فهي جسدٌ فقط، والنِّساء امتدادٌ لحواء الآثمة التي كانت السَّببَ في سقوط آدم، ومن ثَمَّ الفساد والرذيلة والموت.

(ج) أنَّ الزَّوج هو الذي يحكم المرأة؛ لأن الرَّجل (مهما فسد) هو أكثرُ عقلًا وحكمةً من المرأة (مهما عظُمت).

الرَّجل والعلم والجنس

حين يسمع النَّاس كلمةَ الجنس والعلم فإن أوَّل اسم يخطر لأذهانهم هو سيجموند فرويد. وكان فرويد فعلًا من أوائل العلماء في العالم الذين درسوا الجنسَ دراسةً علمية، وحرَّروا الجنس من كثير من الأفكار القديمة، وألبسوه ثوبًا علميًّا خاضعًا للمناقشة والبحث والتطوير وليس اتهامات أو إرادات إلهية عليا.

على أن هناك علماءَ آخرين سبقوا فرويد بمئات السنوات، لكن العالَم لم ينتبه إليهم بمثل ما انتبه لفرويد لأسباب متعددة.

أحد هؤلاء العلماء والمفكِّرين القدامى هو الشيخ أبو علي الحسن بن علي بن سينا (الشهير بابن سينا)، الذي تُوفِّي سنة ٤٢٨هـ. وقد سبق ابن سينا علماءَ وفلاسفةَ الغرب في نظرته العلمية الشاملة للإنسان، وتقديره للجسد والأحاسيس الحسية. وكان ابن سينا من الأوائل في العالم أجمع الذي طالَبَ بعدم الفصل بين الجسد والنفس، وإعادة الصلة الأصلية الموجودة في الإنسان بين الجنس والحب؛ فالإنسان وحدةٌ واحدةٌ لا يتجزأ.

وفي كتابه الشهير «القانون في الطب» كتب ابن سينا يقول:[١] «والقوة النفسانية تشتمل على قوَّتين هي كالجنس لهما؛ إحداهما قوة مُدرِكة، والأخرى قوة محرِّكة. والقوة المدرِكة كالجنس لقوتين؛ قوة مدرِكة في الظاهر وقوة مدرِكة في الباطن، والقوة المدرِكة في الظاهر هي الحسية.»

ومن هذا الكلام نرى أنَّ ابن سينا لم يسبق علماء الغرب فحسب في عمل جسرٍ بين النفس والجسد، ولكنه سبق «سيجموند فرويد» في التعريف بالفعل الظاهر والعقل الباطن. ولم يكن فرويد هو أول عالِم عرف ذلك كما يقول الغربيون. ومن أهم ما قدَّمه ابن سينا

[١] انظر: «القانون في الطب»، الشيخ أبو علي الحسن بن علي بن سينا، الجزء الأول، ص٧١.

أيضًا رسالته في العشق،[٢] وقد تمكَّن في هذه الرسالة لأول مرة أن يمنح الحبَّ البشري دورًا إيجابيًّا؛ ففي هذه الرسالة تغلَّب ابن سينا على الهوَّة التي تفصل نشاط النفس الحيوانية (حسب التعبير في ذلك الوقت) عن نشاط النفس الناطقة في الإنسان.

واستطاع أن يصل بين طرفي الحبِّ الجسدي الطبيعي والحبِّ الروحي، وأعطى النفس الدنيا (الجسد) دورًا تشارك به النفس الناطقة العاقلة. وجعل حبَّ الجَمال الظاهري — أي الحب الجنسي — عونًا على الاقتراب من الله. وابن سينا في هذه الرسالة قد طبَّق فكرته الأساسية في النفس وأجزائها، وقد حاول أيضًا أن يجد لها مكانها الصحيح في فكره الفلسفي المتكامل. وقد تفوَّق بذلك ابن سينا على كل سابقيه؛ لأنه استطاع أن يحقِّق لأول مرة انسجامًا متدرجًا بين الجسد والنفس، بينما لم يرَ أسلافُه إلا الصراع والتنافر المستمر بينهما.

لكن ابن سينا بالطبع وقع في بعض الأخطاء التي وقع فيها بعض الرِّجال ومنهم فرويد، وظنَّ أن الرَّجل شيء والمرأة شيء آخر؛ بل إنه تصوَّر أن بَوْلَ النِّساء أقلُّ رونقًا من بول الرِّجال بسبب فضولهن،[٣] وكتب في كتابه «قانون الطِّب» يقول: «بول النِّساء — على كل حال — أغلظُ وأشدُّ بياضًا وأقلُّ رونقًا من بول الرِّجال؛ وذلك لكثرة فضولهن وضَعف هضمهن وسَعة منافذ ما يندفع عنهن، ولِما يتحلَّل إلى آلات أبوالهن من أرحامهن.»

رغم ذلك فإنِّني أعتقد أنَّ ابن سينا كان عالِمًا ومُفكِّرًا وفيلسوفًا عظيمًا، وأنَّ العالَم الغربي لم يُعْطِهِ حقَّه وقدَّم عليه علماءَ غربيين أقلَّ منه قدْرًا. والسَّبب معروف؛ فنحن لا نعيش في عالَمٍ محايد، وحضارتنا بمثلِّ ما تحيَّزت للرجال فقد تحيَّزت أيضًا للعقل الغربي الأبيض، ولم يكن هذا التحيُّز بسببِ ما أُشيع علميًّا أن مخَّ الرَّجل الغربي أكثرُ تطورًا وذكاءً، وإنَّما بسبب خطة الدُّول الغربيَّة الاستعمارية في طمس تراث الشُّعوب في المستعمرات وفصْل ماضيها عن حاضرها، وحاضرها عن مستقبلها مما يسهِّل على الدولة الاستعمارية إضعاف الشعب، ومن ثَم إخضاعه واستغلاله.

---

[٢] انظر: غوستاف فون غربناوم، «دراسات في الأدب العربي»، ص٨٣، رسالة ابن سينا في العشق، ترجمة الدكتور إحسان عبد القدوس.

Aj Denomy Inquiry into the origins of courtly love in medieval studies, 1945. vol. 6. p. 175.

[٣] القانون في الطب لابن سينا، ص١٤٦، (طبعة الحلبي) مؤسَّسة الحلبي وشركاه بالقاهرة.

وعلى أيَّة حال فإنَّ تحيُّز ابن سينا لبول الرِّجال لم يكن أكثرَ غرابةً وبُعْدًا عن التَّفكير العلمي الموضوعي من تحيُّز فرويد لعضو الذكر الجنسي، بحيث بنى نظريته في سيكولوجية المرأة على غياب هذا العضو من جسمها، وقال: «إنَّ النِّساء لسن كما هن نساء، ولكنهن ذكور ينقصهن عضو التناسل. هن يرفضن قبولَ هذه الحقيقة؛ حقيقة أنَّهن ذكور مخصيات، ويعشن بأمل الحصول على عضو الذكر في يومٍ ما بالرغم من كلِّ شيء».[٤]

رغم هذه النَّظرة القاصرة إلى المرأة، فإنَّ فُرويد لعِب دورًا كبيرًا في تحطيم كثير من الأفكار القديمة عن الجنس وعن النَّفس وعن الأحلام، ويحتل الفكر الفرويدي علامةً في الحضارة والعلم الحديث ترك بصماته في تفكير النَّاس طوال هذا القرن العشرين.

وفي كتابه «الطَّوطم والتَّحريم»[٥] حاول فرويد تفسيرَ العلاقات الجنسيَّة في العشائر البدائيَّة، ونشوء المحرِّمات الجنسيَّة (تحريم الأم عن الأطفال الذُّكور)، ونشوء الأديان والاحتفالات الدِّينية الطَّوطميَّة.

وقد رأى فرويد أنَّ أوَّل احتفال في تاريخ البشريَّة كان هو الاحتفال بقتل الأب. وقال إنَّ هذه المأدُبة الطَّوطميَّة — التي ربما هي أول عيد للإنسانيَّة — كانت احتفالًا بذكرى هذا العمل الإجرامي الذي أصبح نقطةَ البدء للتنظيمات الاجتماعية والقيود الأخلاقية والأديان. وقد تصوَّر فرويد أن العشيرة البدائية كان لها حيوان طوطمي يقوم مقامَ الأب، وكان محرَّمًا على العشيرة أن تقتل هذا الحيوان شبه المقدَّس، ولكنها كانت تقيم احتفالًا كبيرًا بعد موته ثم تطلق عِنانها للحزن عليه. وفسَّر فرويد هذا التناقض العاطفي البدائي بالتناقض العاطفي عند الطفل الذي يحب أباه ويكرهه في الوقت نفسه. وواصل فرويد نظريته حول التطور التَّاريخي للجنس والجريمة في حياة البشر قائلًا إنه في العشيرة الإنسانيَّة البدائية كان الأب يَغار من أبنائه الذُّكور الذين كانوا ينافسونه في العلاقة الجنسيَّة بنساء العشيرة؛ ولذلك تجمَّع هؤلاء الذُّكور الصغار واتفقوا على قتْل الأبِ ثم أكلوه. لكنهم بعد جريمة القتل؛ أقاموا احتفالًا كبيرًا لذكرٍ من الأب الذي كانوا يحبُّونه والذي رعاهم من قبل. لكن بعد قتل الأب يشعر الأبناء بالذنب وتأنيب الضمير؛ ولذلك يصبح الأب بعد موته أكثرَ قوةً

---

[٤] Sigmund Freud. some psychological consequences of the anatomical distinction between sexes. collected papers. vol. 5. Hogarth press. 1959.

[٥] انظر: S. Freud. Totem and Taboo.

مما كان في حياته، ومن أجل التخلُّص من الإحساس بالذنب ومن أجل الوفاء لهذا الأب يطيع الأبناء أوامره التي رفضوها في حياته، ويتنازلون عن حقِّهم في أية علاقة جنسية مع نساء أبيهم. ويرى فرويد أن هذا هو بداية تحريم الأم وغيرها من المحارم.

وقد اختلف بعض العلماء — ومنهم «مورجان» «وإنجلز» — مع فرويد في أن العشيرة البدائية عرفت منذ البداية الغيرة من الأب؛ لأن هذه العشيرة البدائية لم يكن بدأ فيها الزواج بعد، ولم يكن هناك حقٌّ للرجل وحدَه في الاتصال الجنسي بالنِّساء، وإنما كان هذا الحق للجميع، رجالًا ونساءً. وخرج مورجان من دراساته الطويلة بين الهنود الإيروكيين ودراسته لتطور المجتمع الإنساني (من الوحشية إلى البربرية إلى المدنية)؛ أن الزواج بمعناه المعروف لم يكن موجودًا في العشائر الإنسانيَّة الأولى، وكان هناك ما سُمِّي بـ «الزواج الجماعي»؛ بمعنى أن الأعضاء المكوِّنين لعشيرةٍ ما، كانوا يستطيعون الاتصالَ الجنسي بأي رجل وأية امرأة من هذه العشيرة، وكان الأطفال يُنْسَبون إلى الأم؛ لأنها هي التي تلد الأطفال. وقال إنجلز إن الشعور بالغَيرة الجنسيَّة لم يكن موجودًا في ذلك الشكل الجماعي للزواج الذي تنتمي فيه جماعات كاملة من الرِّجال إلى جماعات كاملة من النساء بالتبادل.

واعتقد بعض العلماء — ومنهم «وورد» — أن جهل الرَّجل لأبوته في هذه الفترة من تاريخ البشرية هو الذي أنبت الشعور بالغَيرة من المرأة أو الأم التي كانت تَعرف أطفالها بحكم أنها هي التي ولدتهم.

أي إن بدايةَ الشعور بالغَيرة في تاريخ البشرية كان هو غَيرة الرَّجل من المرأة، وليس هو غَيرة الأبناء الذُّكور من الأب. وأن الجريمة الأولى في تاريخ البشرية ليس — كما قال فرويد — أنها قتل الأب، ولكنها جريمة سيطرة الرَّجل على المرأة واغتصابها حقَّها بالقوة. وقد شمل هذا الاغتصاب معنى الاغتصاب الجنسي والاغتصاب الاجتماعي أيضًا من حيث نَسب الأطفال إلى الأب.

وقد أرجع فرويد نشوءَ الشعور بالإثم في تاريخ البشرية إلى جريمة قتل الأب البدائي، وقال إن الأنا الأعلى في الإنسان هو الذي يحمل تقاليدَ الأبوين والمجتمع؛ ولهذا نبع الشعور بالإثم من جريمة قتل الأب. ويدل على ذلك أنه في الفكر المسيحي يلعب الشعور بالإثم النابع من شعور ضد الأب «الرب» الدورَ الأكبر في تكفير هذه الخطيئة، وذلك عن طريق تضحية الابن الذي يتوحَّد بالأب بعد عملية التكفير ويصبح شبيهًا بالرب. وفي سِر القربان المقدَّس (وهو الاحتفال الطوطمي للمسيحيين) يُؤكل الابن، ويتوحَّد المشتركون في هذا الاحتفال بالأب. وعلى هذا فإن الخطيئة الأولى وما صاحبَها من إحساسٍ بالذنب المتولِّد عن أول ثورة ضد الرب (الأب) تنتقل من جيل إلى جيل.

ولا شك أن فرويد وكذلك إنجلز ومورجان وورد (رغم اختلافاتهم الفكرية) قد أوضحوا الأساسَ الجنسي للتاريخ البشري. رأى إنجلز أن تطوُّر التَّاريخ الإنساني ارتكز على الصلات الجنسيَّة، لكنه أدَّى إلى النمو والتقدُّم في العمل والإنتاج إلى أن أصبحت العلاقات الاقتصادية هي التي تسيطر على النظام الاجتماعي. لكنَّ هذا التطور لا يُلغي الدورَ الأساسي للعوامل الجنسيَّة؛ لأن الطاقة الجنسيَّة قادرة على التحوُّل أو التسامي، بمعنى أنها تتحوَّل من فعلٍ إلى جنسٍ إلى فعلٍ إنتاجي في المجتمع.

وقد عبَّر فرويد عن هذه الفكرة نفسِها حين قال: «حين نطقَ الإنسان لأول مرة كانت أصواته نداءً على الرفيق الجنسي، ثم أصبحت جذور اللغة لتنظيم العمل في المجتمع البدائي. وبهذا تغيَّر الاهتمام الجنسي ليصبح اهتمامًا بالعمل، كأنما العمل لم يكن عند الإنسان البدائي إلا بديلًا للنشاط الجنسي؛ لذا فإن الكلمة التي كانت تُنْطَق أثناء العمل الجماعي كان لها تعبيران؛ تعبير عن الفعل الجنسي، وتعبير عن العمل الاجتماعي الإيجابي الشبيه بهذا الفعل الجنسي، ثم أخذت الكلمة تنفصل بالتدريج عن معناها الجنسي لتلصق نهائيًّا بالعمل.»[٦]

وقد أسَّس فرويد نظريته عن التسامي والكبت من هذه الفكرة، واعتقد أن الكبت الجنسي عملٌ ضروري من أجل استمرار المجتمع والحضارة، وكتب يقول: «إني أعتقد أن الثقافة نجحت على حساب إشباع الغرائز واستخدام طاقاتها لدفع ضروراتٍ حيوية.»

لكن العلماء نقدوا فرويد في هذه النظرية عن التسامي والكبت، وأوضحوا أن الطاقة الجنسيَّة لا تتحوَّل إلى عملٍ إنتاجي أو فكر خلَّاق، ولكنها تنحرف عن مسارها الطبيعي لتتخذ أشكالًا متنوعة من الانحرافات الجنسيَّة والعصاب والمشاكل النَّفسيَّة.

وقد تأثَّر فرويد في نظريته عن التسامي والكبت بإلحاح الظروف الاقتصادية والاجتماعية في ذلك الوقت، التي أدَّت إلى تمجيد العمل الإنتاجي. فقد كان المجتمع الأوروبي حينئذٍ محدودَ الإمكانيات، ولم تكن الصناعة تقوم على الآلات، وإنما على الجهد الإنساني؛ ولهذا كان المجتمع في أشد الحاجة إلى عَرَق العمال وجهدهم، ولم يكن في استطاعة المجتمع الرأسمالي أن يحقِّق ذلك إلا بالقوة عن طريق القهر، وأيضًا بجعلِ العملِ شيئًا مجيدًا؛ بل مقدَّسًا.[٧]

---

[٦] انظر: Freud. Introduction to Psychoanalysis. 152.

[٧] انظر: «المرأة والجنس».

وأوضحت الدراسات النَّفْسية[٨] الجديدة عن وجود علاقة بين الكبت الجنسي وانخفاض القدرة الفكرية في الإنسان. وكتب بارون: «إن الأصالة الفكرية تعتمد على تجاوب الإنسان الحر لمشاعره.»

ويكاد فرويد ينتهي إلى هذه الفكرة ويناقض مفهومه السابق عن التسامي والكبت فيقول: إن الكبت ليس إلا ردَّ فعلٍ ضد صعوباتٍ اقتصادية واجتماعية. وكتب: «إن الأساس الذي بُنِيَ عليه المجتمع البشري هو في النهاية من طبيعةٍ اقتصادية؛ ذلك أن المجتمع حين يعجز عن تقديم وسائل العيش لأفراده دون عمل، يجد نفسَه مضطرًّا إلى الحد من عدد أفراده وتحويل طاقتهم من النشاط الجنسي إلى العمل، ونحن هنا أمام هذه الحاجة الأزلية التي وُلِدَت مع الإنسان وما زالت مستمرة حتى يومنا هذا.»[٩]

ورغم الثغرات المتعدِّدة في الفكر الفرويدي إلا أنه لا يمكن أن ننكر أن هذا الفكر قد أضاء بعضَ جوانب الإنسان بطريقةٍ علمية قابلة للمناقشة والملاحظة والتغيير حسب التطور الفكري للإنسان. وبالمثل أيضًا فعل مورجان وإنجلز وماركس وغيرهم من العلماء والفلاسفة الذين حاولوا دراسةَ الإنسان والمجتمع على نحوٍ علمي.

ولعل الميزةَ الأساسية للفكر الفرويدي والفكر الماركسي هي أنهما أعطيا القرنَ العشرين نوعًا من التفسير العلمي للصعوبات التي يعيشها الإنسان كطفل (فرويد) أو طفولة المجتمع البشري (ماركس).

لكن الفكر الفرويدي — بسبب انحصاره داخل النفس وإيمانه بأن مصيرَ الإنسان يتحدَّد حسب تشريح جسمه — عجز عن تفهُّم الظروف الاجتماعية والتَّاريخية والاقتصادية التي جعلت الرَّجل يسيطر على المرأة، وفسَّر فرويد هذه السيطرة على أن «الأنا العليا» عند المرأة أضعف من «الأنا العليا» عند الرَّجل، وأن ضمير النِّساء أضعف من ضمير الرِّجال، واعتقاداتهن الفكرية أضعف. وبنى فرويد نظريته عن نفسية المرأة على أنها ذَكَرٌ حُرِمَ من العضو الذَّكَري، وجعل هذا العضو يلعب الدورَ الأساسي في تشكيل كلٍّ من نفسية الرَّجل والمرأة.

وهذه هي أهم الثغرات في الفكر الفرويدي التي كشفها كثيرٌ من علماء النفس الذين أدركوا أثرَ الظروف الاجتماعية على نفسية الإنسان. وكان من هؤلاء العلماء الطبيبة النَّفْسية

[٨] انظر: «المرأة والجنس».

[٩] انظر: Freud. Introduction to Psychoanalysis.

كارين هورني،[١٠] وكذلك «أرنست جونز» الذي كتب يقول: «إن الإنسان أولًا وقبل كل شيء مخلوقٌ اجتماعي؛ ولهذا فإن تقسيم علم النفس إلى علم نفس فردي وعلم نفس اجتماعي إنما هو تقسيمٌ خيالي. إن عقل الإنسان يتكوَّن من مجموعةٍ من ردودِ فعلٍ تنشأ بينه وبين الآخرين في المجتمع، ولم يعرف أن الفرد يمكن أن يتطوَّر بشكلٍ آخر.»[١١]

وكان «ألفريد أدلر» من أوائل أطباء النفس في العالم الذي رفض أفكار فرويد عن الفروق التشريحية بين الجنسين، وقد نبَّه الأذهانَ إلى الأسباب الاجتماعية في الفروق النَّفْسية بين الجنسين، سواء في مرحلة الطفولة أو مراحل العمر المختلفة. وكتب أدلر يقول: إن الأسباب الأساسية لهذه الظاهرة غير السعيدة (في حياة الأطفال والرِّجال والنِّساء) ترجع إلى الأخطاء في حضارتنا.

وقد نجح إنجلز في كشف هذه الأخطاء في الحضارة حين تتبَّع الأسبابَ الاقتصادية والاجتماعية في تاريخ البشرية، التي قادت إلى أن يسيطر الرِّجال على النِّساء، وقال في كتابه «أصل العائلة»: «إنَّ التَّقسيم الأوَّل للعمل» في تاريخ الإنسان «حدث بين الرَّجل والمرأة من أجل رعاية الأطفال، وكان أول صراع طبقي في التَّاريخ هو الصراع بين المرأة والرَّجل في ظل الزواج الأحادي» Monogamy. وكان أول خضوع طبقي هو خضوع الزوجة لزوجها. لقد كان هذا الزواج تقدُّمًا تاريخيًّا من ناحية، لكنه من الناحية الأخرى أنتج الرِّق (العبيد) والملكية الخاصة، وتلك الظاهرة المستمرة حتى اليوم، وهي أن كلَّ تقدُّم ليس إلا تأخرًا نسبيًّا، حيث إن تقدُّم مجموعة من النَّاس يكون على حساب وشقاء وتخلُّف مجموعة أخرى.[١٢]

وقد اختلف الفكر الفرويدي عن الفكر الماركسي في كثير من الأساسيات، لكنهما اتفقا على فكرةٍ أساسية تقول إن الإنسان في حياته منذ الولادة حتى الممات يخضع لقوًى أكبر منه تعطِّل نموَّه وتعوق وجودَه. وتنتمي هذه القوى في الفكر الماركسي إلى العالَم الاقتصادي والاجتماعي، وفي الفكر الفرويدي تكمُن هذه القوى داخل الإنسان، في الجزء الذي سمَّاه فرويد بـ «الأنا السفلى» (Ed)، حيث الغرائز الطبيعية، وتحتوي ضمن ما تحتوي على غريزة العدوان وغريزة الموت والغريزة الجنسيَّة، وكلها غرائزُ لا تعرف إلا اللذة والإشباع بصرف

[١٠] انظر: «المرأة والجنس»، و«الأنثى هي الأصل».

[١١] انظر: Ernest Jones, free association, Hogarth press, 1959. p. 153.

[١٢] انظر: Fredrick Engies, The Origin of the Family.

النظر عن المجتمع الخارجي. لكن فرويد عاد في مؤلَّفاته الأخيرة (عن الحضارة ومستقبل الوهم) وغيَّر بعض أفكاره، وربط بين علم الاقتصاد والتَّاريخ وبين علم النفس والطب، وقال: «إن المرض النفسي لا ينبع من داخل الإنسان، وإنما هو انعكاس للمجتمع والحضارة الخاطئة.» ويكاد يقترب هذا المفهوم من الفكر الماركسي الذي ربط البناءَ الاقتصادي التحتي (قوى الإنتاج) بالبناء العلوي النَّفسي بعد الفصل الطويل بينهما وما نتج عن هذا الفصل من اغتراب الإنسان عن نفسه وعن مجتمعه.

ويُعبِّر الفكر الماركسي عن نظرةٍ شاملة للإنسان والمجتمع، وهي تشبه نظرةَ أرسطو مع الفارق الكبير الزمني والحضاري بينهما. قال أرسطو: «الإنسان الذي يعيش خارج المجتمع إما حيوان أو إله.» وقد اتفق الفكر الماركسي مع فكر أرسطو في المعنى الأساسي لهذه العبارة من حيث إن الإنسان لا يمكن أن يُفصَلَ عن المجتمع، وأن المجتمع هو الوسيلة الوحيدة التي بواسطتها يستطيع الإنسان إنماءَ ما لديه من إنسانيَّة، ولعل أهمَّ ما وُجِّهَ من نقدٍ للفكر الماركسي أنه انشغل بتحقيق السعادة للمجتمع ولم يهتمَّ بسعادة الفرد، على حين أن فرويد انشغل بتحقيق السعادة للفرد ولم يهتمَّ بسعادة المجتمع.

وقد صدر هذا النقد من بعض العلماء الذين لم يدرسوا الفكرَ الماركسي دراسةً كافية؛ لأن الفكر الماركسي ذهب إلى أبعدَ مما ذهب إليه الفيلسوف «كانْت»، ورأى أن السعادة هي زوال عبودية الإنسان للقوة الاقتصادية والاجتماعية، وفي القضاء على هذه الظروف التي يصبح بها الإنسان وسيلةً لا غاية.

وكانت الأغلبية من البشر قد حُوِّلوا إلى وسائلَ وأدواتٍ لإثراء قلةٍ قليلةٍ امتلكت المال والسلطة.

وقد أُشيعَ عن الفكر الماركسي أنه يحوِّل الفرد إلى أداةٍ في يد المجتمع، مع أن العكس هو الصحيح؛ فإن أساس الفكر الماركسي يرتكز على القضاء على كل الظروف التي تقهر الإنسان وتجعله أداةً أو شيئًا أو وسيلة، وهو يرتكز أيضًا على مساعدة الإنسان في الوقوف أمام القوى الاجتماعية والاقتصادية التي تهدِّده أو تهدِر إنسانيته.

وهذا هو هدف العلم. إن هدف العلم ليس تأكيد عجز الإنسان وتأكيد ضَعفه أمام قوًى مجهولة باطشة في السماء أو قوًى مدمِّرة داخلية في نفسه. ولكن هدف العلم وهدف أيِّ بحثٍ علمي هو مساعدة الإنسان على تقويةِ نفسِه وتأكيد قدرته أمام هذه القوى، وتعريف الإنسان بحقيقة هذه القوى وليس تجهيله بها.

وقد لعِب الفكر الفرويدي دوره العلمي أيضًا في تعريف الإنسان بهذه القوى التي تهدِّده، لكن فرويد تصوَّر أن هذه القوى داخل الإنسان، وهي التي سمَّاها ب «الأنا السفلى»

(Ed)، حيث تكمُن غريزة التدمير أو الموت Thanatos. وهنا أيضًا يتضح الخلاف الجوهري بين الفكر الفرويدي والفكر الماركسي، كلاهما يعترف بوجود قوًى أكبرَ من الإنسان تسعى إلى تدميره أو تعطيل نموِّه وحركته. هذه القوى في نظر الفكر الماركسي في المجتمع الخارجي وفي نظر الفكر الفرويدي في داخل الإنسان ذاته. أما في الفكر الثالث فيقول الفلاسفة إن هذه القوى غير معروفة للإنسان وهي قوًى فوق مستوى الفهم الإنساني، رُمِز إليها بـ «الإله». وقال البعض الآخر من أصحاب هذه الفلسفة إن الحقيقة الخارجية هي من فكرنا فحسب، بمعنى «أن العالم الخارجي غير موجود إلا في عقولنا». لكن «كانْت» رأى هذه الفكرة غير علمية؛ لأنها تعني أن الكون لم يوجد إلا بوجود عقل الإنسان، وهذه الحقيقة تناقض علم الجيولوجيا والفلك والعلوم الأخرى التي أثبتت أن «الكون» وُجِد قبل ملايين السنين من ظهور الإنسان أو الحياة. وارتكزت فلسفة «كانت» على أن العالم كما يبدو لنا ليس العالم كما هو، بمعنى أن هناك عالَمين؛ عالمًا ظاهريًّا وعالمًا حقيقيًّا.

وقد أدرك فرويد في أواخر أعماله الارتباطَ القوي بين علم النفس والطب وعلم الفلسفة والكون وارتباط الدِّين والأخلاق بالأمراض النَّفْسية والانحرافات الجنسيَّة بسبب الإحساس بالإثم وعقدة الذنب. وهذا هو الذي دعاه إلى تأليف كتابه «مستقبل الوهم» الذي حاول فيه أن يفسِّر ظاهرةَ الدِّين من الناحية النَّفْسية. وقد وقع فرويد — رغم نظرته العلمية — في بعض الأخطاء، منها أنه تجاهل دورَ «الأم» في المجتمع الإنساني البدائي، وتصوَّر أن «الرب» ليس إلا «الأب» البدائي، وأن علاقة الإنسان بالرب تشبه علاقة الطفل بالأب من حيث وجود الحب والحاجة إلى الرعاية والرغبة في الإرضاء جنبًا إلى جنب مع الكراهية والرغبة في الانفصال والخوف من العقاب.

ولا يستطيع فرويد أن يتخلَّص من كونه رجلًا (وليس امرأة)، ويكتب قائلًا: «يظل خلق العالَم منسوبًا إلى إلهٍ غالبًا ما يكون ذكرًا، برغم الإشارة إلى إلهاتٍ إناث، وكثير من الأديان تجعل بدأ خلق العالم انتصارَ الإله الذكر على قوة أنثوية شبيهة بالوحش.»

وهذا التَّعبير في حد ذاته يكشف لنا عن أنَّ العالم (في نظر فرويد أو في الفكر الرجولي بصفة عامة) لم يبدأ إلا حينما انتصر الذَّكر على الأنثى التي شُبِّهَت بالوحش.

والسؤال الذي يبرز هنا: ألم يكن هناك عالَم قبل أن ينتصر الذكر على الأنثى؟

وتدل معظم المصادر العلمية والأنثروبولوجية أن العالم كان موجودًا قبل انتصار الذكر على الأنثى، بل قبل وجود الذكر والأنثى على حد سواء، وأن الأنثى في الحياة البشرية

كانت هي الأصل بيولوجيًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا، وكانت هي الإله، ولم يُعْرَف في ذلك الوقت إلا الإلهة القديمة الأنثى التي رمزت إلى الخير والخصوبة والولادة والحياة.[١٣]

وأوضحت الدراسات الحديثة للمجتمع البشري القديم أن الذَّكَر خضع لهذه الأنثى البدائية القوية فترةً طويلة، كان يشعر طوالها بالخوف من قوَّتها، هذا الخوف الذي رسَّب في نفسه شعورًا بالكراهية والغَيرة منها. ويرجِّح العلماء أن هذه الفترة هي التي أنبتت في نفس الذكر الجذورَ الأولى لتلك الظاهرة التي عُرِفَت في علم النفس باسم حسد المرأة أو Woman Envy، وأن الذَّكَر ظلَّ يتطوَّر ويقوى من أجل أن يحظى باختيار هذه الأنثى القوية، وتفضيلها له عن الذُّكور الآخرين، إلى أن اكتسب قوةً كافية استطاع بها أن يرتكب أوَّل حادث اغتصاب في التَّاريخ البشري، وكأنما أراد أن ينتقم بشكلٍ ما من المرأة التي يضمر لها منذ زمن طويل ذلك الخوفَ وتلك الكراهية والغَيرة.

ويعتقد هؤلاء العلماء أنَّ الجريمة الأولى التي وقعت في حياة البشرية لم تكن جريمةَ قتل الأب كما قال فرويد، ولكنها كانت جريمةَ اغتصاب الرَّجل للمرأة. وربما عبَّر فرويد عن هذا المعنى نفسه حين قال: إن بداية العالم كانت انتصارَ الذكر على الأنثى الشبيهة بالوحش (تعبير بدائي عن القوة الشديدة)، وعبَّر عن الفكرة نفسِها حين قال في ختام كتابه «الطوطم والتحريم»:[١٤] «في البدء كان الفعل.»

---

[١٣] انظر: «الأنثى هي الأصل»، في هذا الكتاب.

[١٤] انظر: Freud. Totem and Taboo.

خوف الرَّجل من المرأة وعقدة النقص

في إحدى زياراتي للهند زُرْتُ بعض المناطق الجبليَّة في الجنوب بالقرب من «كونور». وجدت أنَّ هذه المنطقة تسكنها مجموعةٌ من القبائل الهندية التي يعيش رجالها ونساؤها حياةً تختلف عن الحياة التي نعيشها؛ فالرِّجال لا يعملون شيئًا سوى الإشراف على المعابد والرقص في الحفلات الدِّينية والتزين بالمساحيق البيضاء والحمراء، وشعورهم طويلة وآذانهم يتدلَّى منها «الحَلَق» الذي يشبه الحَلَق الذي تُزيِّن به الفلاحةُ المصرية أُذُنها. أمَّا النِّساء فإنَّهن يعملن نهارًا في حقول الشَّاي والبطاطس، وفي آخر النَّهار يَعُدن إلى البيوت ليطبخن ويغسلن ويُطعِمن الأزواج والأطفال. وقد دُعِيتُ يومًا لأشهد حفلًا دينيًّا مع قبيلةٍ من هذه القبائل اسمها «كوتاس Kothas» في قرية Drichijadi، ورأيت الرِّجال بشعورهم الطويلة ومساحيقهم وحلقانهم يرقصون حول المعبد. أما النِّساء والبنات فقد جلسن بعيدًا عن المعبد في مكانٍ مخصَّص بحيث يشهدن الاحتفال من بعيد.

وسألت رئيسَ القبيلة عن سبب ذلك فقال لي إنَّ قطعة الأرض من حول المعبد مُقدَّسة، ولا يجوز للإناث أن يسرن فوقها بأقدامهن، وكذلك يَحرُم على النِّساء والبنات (والأطفال البنات) دخول المعبد.

وعرفت أنَّ هذه القبيلة لها معبدان؛ معبد الإله «شيفا» وبداخله تمثال صغير من الحجر للإله «شيفا»، ولا يدخل هذا المعبد إلا الرِّجال، والمعبد الثاني هو معبد الإلهة «برافاتي» زوجة شيفا، وهي إحدى الإلهات الإناث اللائي يعبدهن الهنود. والغريب أن رجال القبيلة حرَّموا على النِّساء دخولَ هذا المعبد أيضًا بالرغم من أن التمثال الذي يُعْبَد داخله هو تمثال الأنثى. وسألت رجالَ القبيلة عن السَّبب في ذلك، فقال لي رئيسهم ما معناه أن الدِّين للذكور والدنيا للإناث. وطلبت منه أن يشرح لي هذا المعنى، فقال إن النِّساء يملِكن

كلَّ شيء في الدنيا، إنهن يعملن في الحقل وفي البيت ويُطعِمن الجميعَ ويملكن الأطفال لأنهن هن اللائي يلدن، أما الرِّجال فلا يمكن لهم بأي حال من الأحوال أن يعرفوا أطفالهم من أطفال الغير، وليس لهم في هذه الدنيا إلا الإله والمعبد. وقال لي إنَّ من حق الرِّجال أن يحتكروا لأنفسهم الآلهة والمعابد، وإلا فسوف تحكمهم النِّساء وتسيطر عليهم.

وبدراسة الحياة في بعض هذه القبائل وجدت أن الأطفال يُنْسَبون إلى الأم؛ لأن الأم تتزوج بأكثر من رجل، وأن الأب مجهولٌ في حالات كثيرة. وبالرغم من أن الأم هي عائل الأسرة وهي التي تعمل وتنفق على الأزواج والأطفال إلا أن زعماء القبيلة قد وضعوا تقاليدَ وقوانينَ معينةً قالوا عنها إنها جاءت من الإله شيفا، وتنصُّ على أن الرَّجل هو الحاكم وهو الذي يُصدِر القرارات ويوزِّع الرزق على النَّاس. وباسم هذه القوانين استولى الرِّجال على الأجور التي تكسبها النِّساء، ونصَّب الرَّجل نفسَه حاكمًا على الأسرة، وأصبحت النِّساء مجرَّد عاملات يعملن تحت سيطرة الرِّجال، وبدأ بعض الرِّجال بهذه السلطة ينسبون الأطفال إليهم ويفرضون على المرأة زوجًا واحدًا حتى تصبح الأبوة معروفة.

وتُعتبر هذه القبائل مرحلةً متوسطة «بين مجتمع الأمومة في «كيرالا» جنوب الهند وبين المجتمع الأبوي السائد في الولايات شمال الهند»، وتمثِّل مرحلةَ الانتقال من المجتمع القديم الذي سادت فيه المرأة إلى المجتمع الحديث الذي ساد فيه الرَّجل، وقد اتضح أن الرَّجل لم يستطِع أن ينزع من المرأة سيادتها التي أعطتها إياها الطبيعة إلا عن طريق ادعاء قوانين إلهية جاءت من عند الآلهة، وباحتكار الآلهة ومعابدهم للذكور، وتحريم دخولها على النِّساء. وظهر أن الرِّجال لم يحتكروا الآلهة والمعابد إلا حينما شعروا بقوة المرأة في الحياة الدنيا. فالمرأة تملك القدرةَ على خلق الحياة والولادة، وهم لا يملكون هذه القدرة. ويبدو أن المرأة البدائية كانت أقوى من الرَّجل في نواحٍ أخرى غير الخلق والولادة؛ فقد لاحظتُ أن النِّساء الهنديات في هذه القبائل أشدُّ وأكثرُ صلابةً من الرِّجال، وأن يدَ المرأة غليظة مشقَّقة قوية كيد الفلاح المصري، أما يد الرَّجل فقد رأيتها ناعمةً بضة. وكنت أرى الرِّجال جالسين طوال اليوم أمام البيوت في الشمس يدخنون ويشربون ويلعبون النرد، أما النِّساء فكنت أراهنَّ في الحقول يعملن طوال النهار من شروق الشمس حتى غروبها.

في أساطير اليونان القديمة انتشرت قصة النِّساء المحاربات اللاتي أُطْلِق عليهن اسم «الأمازونيات»، وهن نساءٌ قويات قادرات على الحرب والقتال والسيطرة، وقد حكمن المجتمع اليوناني فترةً من الوقت وتمتَّعن باحترامٍ كبير في الأدب اليوناني. لكن الصور التي رُسِمَتْ لهن فيما بعدُ كانت صور نساء بغير صدور، من أجل تجريد النِّساء من مظاهر

أنوثتهن وتحويلهن إلى رجال، كأنما يقول هؤلاء الرسامون إن المرأة لا يمكن أن تكون قويةً بغير أن تتحوَّل إلى رجل.

لكن المصادر تقول إن هؤلاء النِّساء كن نساءً، وكن يمارسن الجنس مع الرِّجال ثم يتركن الطفل بعد الولادة للرجل ليرعاه ويطعمه؛ ذلك أن هؤلاء النِّساء كُنَّ مشغولات بشئون الدولة والحكم، ولم يكن لديهن الفراغ لرعاية الأطفال، هذه المهمة كانت وظيفة الرِّجال المقيمين بالبيوت.

ولم يكن اليونانيون في ذلك الوقت يستنكرون هذا الوضع. كان أمرًا طبيعيًّا للغاية يتفق مع الظروف السياسية والاقتصادية، كون النِّساء هن اللائي يمسكن مقاليدَ الحكم والجيش وشئون الدولة الأخرى.

ويقال أن هؤلاء النِّساء الأمازونيات كن شديدات القسوة مع الرِّجال، وأن المرأة منهن كانت أحيانًا تقتل الرَّجل بعد العملية الجنسيَّة كما يحدث لذكر النحل.

والغريب أيضًا أن بعض المصادر تقول بأن مثل هذا النوع من النِّساء كان يعيش حول نهر الأمازون في أمريكا، وأن بعض قبائل الهنود الحمر كانت فيها النِّساء قويات، وهن اللائي يحكمن، وقد عُرِف عنهن قسوة نساء الأمازونيات اليونانيات.

وهذه المعلومات تغذي هذا الفريق من العلماء الذي يتبنى نظريةَ أن المرأة البدائية كانت في عهود الأمومة أقوى من الرَّجل، وكانت هي التي تحكم، وكان الرَّجل خاضعًا لها، وأنه في هذه الفترة بالذات شعَر الرَّجل بالاضطهاد وأضمر للمرأة الخوفَ والكراهية والغَيرة، وظل يتحيَّن لها من أجل أن يعزلها عن عرشها ويجلس مكانها. وحين جلس الرَّجل مكانَ المرأة كان عليه أن يثأر منها بسبب قسوتها القديمة عليه. وكان في حاجةٍ دائمة إلى أن يقهرها ويقيدها خشيةَ أن تستوليَ على الحكم مرةً أخرى.

وتشير معظم المصادر الأنثروبولوجية إلى أن المرأة البدائية كانت تمتلك قوَّة أكثرَ من الرَّجل بصرف النظر عن حجم الجسم، وأنها هي التي سيطرت على الحياة والنسل لفترات طويلة جدًّا من الحياة البشرية. ولا تزال بقايا مجتمعات الأمومة هذه في بعض مناطق في أفريقيا (أويمبا – أوغندا – داهومي، وغيرها) وفي بعض مناطق في آسيا والهند وأمريكا والجزر من حولها. وقد اتضح من الدراسات الجديدة في علم النفس وعلم البيولوجي أن المرأة أقوى من الرَّجل نفسيًّا وبيولوجيًّا. وتتفق هذه النتائج الجديدة مع الاعتقاد البدائي القديم بقوة المرأة. وكانت الإلهة القديمة هي الأنثى الأم، ترمز إلى الخصوبة والقدرة على خلْق الحياة وولادتها وتغذيتها. وتشير معظم المصادر عن هذه الفترة من تاريخ البشرية

إلى ذلك الخوف المبكِّر الذي شعر به الرَّجل نحو أمه؛ فهي المرأة الأولى التي يعرفها في حياته، وهي أكبر منه وأقوى، وهو يحتاج إليها لتطعمه، وهو يريد أن ينفصل عنها ليصبح فردًا مستقلًّا، ولا يريد أن ينفصل عنها؛ لأنها الأنثى الأولى في حياته، والجسد الأول الذي عرفه واشتهاه، وهو يشعر بالعجز أمامها والرغبة فيها، والخوف من قوَّتها وقدرتها على الحمل والولادة.

أمَّا البنات الصَّغيرات فلم تمثِّل الأم لهن مثل هذا الخوف؛ لأنَّهن كن يرين أنفسهن مثلَ الأم، والمستقبل أمامهن مفتوح ليصبحن كأمهاتهن ذوات الحرية والاختيار والقدرة على خلق الحياة والولادة. ولم يكن أمام الذُّكور في مثل هذه التربية النَّفْسية إلا أن يشعروا بالخوف من جنس النِّساء.

وقد تحيَّر كثيرٌ من العلماء في معرفة أسباب ذلك الخوف الدفين من المرأة الذي يُظهره أحيانًا بعضُ الرِّجال المرضى بالانحرافات الجنسيَّة، أو ذلك الحنين الدفين في نفس بعض الرِّجال لأن يكونوا نساءً يحملن ويلدن. وتلك الظاهرة المسمَّاة «كوفاد Phenomenon of couvade» حين يشعر الرَّجل برغبةٍ في أن يكون أنثى، أو يحاول ذلك عن طريق ارتداء ملابس النِّساء والذهاب إلى جرَّاح ليحوِّله إلى امرأة.

وتشير المصادر إلى أن خوف الرَّجل من المرأة تركَّز في الجنس والولادة ومظاهر الخصوبة، وأنَّ الخوف هنا كان سببه الجهل بهذه المظاهر، وبهذه القدرة التي تملكها المرأة ولا يملكها هو. ولهذا ارتبط خوف الرَّجل من المرأة بمظاهر خصوبتها من حمل وحيض وولادة. وهذا السَّبب في أنَّ خوف الرَّجل من المرأة تركَّز في النَّاحية الجنسيَّة بالذَّات، وأنه بالإضافة إلى فقدانه القدرةَ على الحمل والولادة فهو يسلِّم عضوه التناسلي للمرأة أثناء الممارسة الجنسيَّة، فإذا بها تسحب سائله المنوي وتسحب معه صلابته وقوَّته. ومن هنا الاعتقاد الشائع بأن المرأة تسحب قوة الرَّجل أثناء الجنس، وبعض القبائل الأفريقية حتى اليوم ما زالت تؤمن أن المرأة إذا خطَت فوق ساق رجل نائم فإنه يعجز جنسيًّا. وتعتقد قبيلة أرونتا أن المرأة يمكن بالسحر أن تجعل زوجها عاجزًا جنسيًّا وتُسْقِط عنه أعضاءه التناسلية. وفي الريف المصري حتى اليوم اعتقادٌ شائع بأن المرأة قد تعمل سحرًا لزوجها إذا هجرها فيعجز جنسيًّا. ويحرِّم سكانُ ميري في البنجال على نسائهم أكلَ لحم النَّمر كالرِّجال خوفًا من أن يصبحن قويات. وفي شرق أفريقيا (قبيلة واتاولا) يخفون سرَّ عمل النار على النِّساء خوفًا من أن تحكمهن النِّساء، ويؤمنون بأن الرَّجل الذي يلمس امرأةً في فترة الحيض يسقط ميتًا. ومن هنا عزْل النِّساء عن الرِّجال في فترة الحيض. ثم اعتبار

الحيض نوعًا من الدناسة والنجاسة، وعزْل المرأة الحائض عن الحياة. هناك كثيرٌ من المجتمعات في الهند حتى اليوم تعزل البنت أيام الحيض في حجرةٍ منفصلة وتغلق عليها الباب حتى لا تخرج، ويُلْقَى إليها الطعام كلَّ يوم من شقٍّ في الباب. بعض الرِّجال في مجتمعنا حتى اليوم يعتقدون أن مصافحة المرأة الحائض تفسِد طهارتهم ونظافتهم. وكثير من المعابد تمنع المرأة الحائض من دخولها. وكانت الكنائس في فترةٍ ما تمنع النِّساء من الدخول. وفي الهند حتى اليوم معابدُ كثيرة يحرم دخولها على النِّساء جميعًا بصرف النظر عن الحيض.

وهناك عديد من الأمثلة على شدة خوف الرَّجل من المرأة ومن مظاهر خصوبتها، هذا الخوف الذي جعله يطردها من المعابد ويحتكر لنفسه الآلهة والدنيا والآخرة ما دامت هي قد ملكت الحياة الدنيا وملكت القدرةَ على خلق الحياة. هذا الخوف القديم قِدمَ الزمن، الذي يشعر به الرَّجل ويعيه، وقد لا يشعر به ولا يعيه وإنما يظل هناك كامنًا في عقله الباطن، لا يظهر إلا عندما يشعر الرَّجل بالخطر من المرأة في أية ناحية من نواحي الحياة، وبالذات الناحية الجنسيَّة.

ويقول علماء النفس إنَّ هذا الخوف الدفين القديم في نفس الرَّجل من المرأة هو الذي ولَّد لديه نوعًا من الإحساس بالنقص، وإن هذا الإحساس بالنقص هو الذي دفع الرَّجل إلى أن يشوِّه حقيقة المرأة، فيدَّعي أنها جسدٌ بغير رأس، أو يدَّعي أن جميع مظاهر خصوبتها كالحمل والحيض والولادة نجاسة ودناسة، أو أن أعضاءها الجنسيَّة تستحق الازدراء والتحقير، أما أعضاء الذكر الجنسيَّة فتستحق التمجيد والفخر، أو أنها سببُ الإثم والشر والموت وهو مصدر الخير والفضيلة، أو أنه امتداد روح الله وممثل الله فوق الأرض وهي تمثِّل الشيطان والخطيئة. وبذلك جعل الرَّجل نفسه «الروح» وجعل المرأة هي «الجسد». ومن هنا نشأت أفكار الفلاسفة الرِّجال الذين قالوا إن الرَّجل يمثِّل الله، أو يمثِّل الروح أو العالم الروحي، وإن المرأة تمثِّل الجسد أو العالم الأرضي. وهذا القول يشبه كلام رئيس قبيلة «كوتاس» الهندية حين قال لي إنَّ الدِّين للذكور والدنيا للإناث. ومعنى ذلك أن الله للذكور والأرض للإناث، لكننا نعرف كيف استولى الرَّجل بعد ذلك على الأرض أيضًا وأصبح دور المرأة الوحيد في الحياة هو خدمة زوجها والتفرُّغ للولادة والأطفال الذين أصبحوا مِلْك الأب. على أن الفصل بين الروح والجسد أدَّى إلى الفصل بين الحب والجنس، ونتج عن ذلك الفصلِ علاقاتٌ مشوَّهة بين الرِّجال والنِّساء؛ لأنها علاقاتٌ ناقصة على الدوام، فهي إما علاقات عاطفية بغير جنس، أو علاقات جنسية بغير حب، وكلا النوعين ناقص بل ضارٌّ أيضًا.

وقد اتضح أن الرَّجل لم يلجأ إلى هذا الفصل إلا بسبب خوفه من المرأة وخوفه من الجنس، وأن هذا الخوف رسَّب في نفسه إحساسًا دفينًا بالنقص، فادَّعى لنفسه الألوهية والكمال والسمو الروحي، وألصق بالمرأة الضَّعة والنقص والانحطاط الجنسي.

ويعتقد كثيرٌ من العلماء أن إحساس الرَّجل بالنقص يزيد أو ينقص تبعًا لعلاقته بأمه وبأبيه. ويرى بعضهم أن العلاقة بين الأم والأب داخل الأسرة الأبوية الحديثة تزيد من إحساس الطفل بالنقص، وذلك لسببين:

(١) سيطرة الأب بسبب قوانين الأسرة.

(٢) شدة التصاق الأم بطفلها بسبب تفرُّغ الأمهات للأمومة.

وأثبت بعض علماء النفس أن العلاقات غير المتكافئة داخل الأسرة رسَّبت في نفوس الأطفال الذُّكور والإناث عُقَد النقص. لكنهم وجدوا أن إحساس الذكر بالنقص يختلف عن إحساس الأنثى بسبب اختلاف التربية التي يتلقَّاها كلٌّ منهما. فالولد يتربَّى على أن الذُّكورة قوة وسيطرة وامتلاك، وتتربَّى البنت على أن الأنوثة ضَعف وخضوع وطاعة وإرضاء للرجل بأي شكل. وأصبح جمال الرَّجل في قوَّته الذُّكورية وسيطرته وثروته التي يمتلكها من مال أو أرض، وأصبح جمال المرأة في جسدها وشَعرها وبشرتها ورموشها.

ويرتبط الشعور بالنقص في كلٍّ من الرَّجل والمرأة حسب هذه المقاييس التي وُضِعَت للذكورة والأنوثة، فالمرأة قد تتصوَّر أنها غير مرغوبة جنسيًّا (لسببٍ من الأسباب، وأهمها عند المرأة ألا تكون جميلة الشكل)، وتفقد الثقة في نفسها كامرأة، وتشعر بعقدة نقص، أي تشعر أن أنوثتها أقلُّ من غيرها من النِّساء. وقد تكون هذه المرأة جميلة فعلًا بالمقاييس السائدة لجمال المرأة، لكنها تعتقد في أعماقها أنها ليست مرغوبة. والمهم هنا هو الإحساس الداخلي وليس المظهر الخارجي، فالجمال شأنه شأن المال لا يمكن أن يعطيَ إحساسًا بالثقة لإنسان يفتقد هذه الثقة أصلًا داخل نفسه.

إن المرأة الجميلة قد تطرب لسماع كلمات الإعجاب من الرَّجل، ولكنها تشعر في أعماقها أن هذا الإعجاب ليس موجهًا إليها ذاتها كشخص وإنما هو موجَّه إلى شكلها الخارجي، وهناك أيضًا الرَّجل الثري الذي يرضيه أن يكون محاطًا بالأصدقاء والمريدين، ولكنه يشعر أن هؤلاء النَّاس يصادقونه من أجل ماله وليس لأنهم يسعدون بصداقته وصحبته.

وهناك أيضًا الرَّجل القوي جنسيًّا الذي يرضيه إقبالَ النِّساء عليه لكنه يشعر أن هذا الإقبال يرجع إلى قوَّته الجنسيَّة وليس إلى كونه شخصًا يُحَب.

هذا الفصل بين الحب «للشخص ذاته» وبين الحب لأسباب مادية كالجمال الجسدي. والقوة الجنسيَّة ترجع إلى الفكرة القديمة في التَّاريخ البشري التي فصلت بين جسد الإنسان ونفسه، وأن حب الجسد ليس هو حب النفس. لم يكن هذا الانفصال موجودًا في حياة البشر البدائيين حين كانت الحياة طبيعية والرَّجل لم يسيطر بعدُ. كان الجسد هو النفس، وكان الحب إذا حدث فهو حب للجسد والنفس معًا بغير انفصال.

والحياة البشرية البدائية تشبه حياةَ الطفل الذي لا يفرِّق بين جسده ونفسه، والذي حين يشعر بحب أهله له يدرك أن هذا الحب بغير مقابل وغير مشروط، وأنه موجَّه إلى شخصه كله. لكن ما إن يكبر الطفل قليلًا حتى يدرك أن حب الأم أو الأب له ليس على هذا النحو الكامل، وأنه حب له شروط، وأنه حب يتقبل أشياء ويرفض أشياء، وأهم ما يرفضه هذا الحب هو ما يتعلق بالجنس أو الرغبات الجسدية، ويكتشف الطفل أيضًا أن ما يرفضه الأهل (وهي رغباته الجسدية) هي الرغبات التي تسبِّب له أكثرَ لذة وأكثر سعادة من أي شيء آخر. ولا يجد الطفل من حلٍّ إلا أن يقسم نفسه إلى جزأين: هذا الجزء الذي يحبه أهله والذي هو الأهم طالما أنه يحتاج إلى هؤلاء الأهل. والجزء الثاني هو ذلك الذي لا يحظى بحب الأهل لكنه يمنحه أكبر لذة وسعادة. وعلى هذا يكبر الطفل وهو يشعر أنه شيئان: شيء غير جنسي (أي مجرَّد نفسي) في محيط أهله وأسرته وما شابه، ثم مخلوق جنسي (أي جسد فقط) في محيط آخر، وذلك بدلًا من أن يشعر أنه شيء واحد أو مخلوق واحد، وأن جسده جزء لا ينفصل عن نفسه، وأنه يوجد بين النَّاس في جميع الظروف والأحوال بجسده ونفسه معًا.

ونفهم أنه كلما كان رفْضُ الأهل لرغبات الطفل الجسدية كبيرًا أصبح هذا الطفل في المستقبل أكثرَ ميلًا للفصل بين جسده ونفسه. على أن بعض الأطفال يستطيعون بعد أن يكبروا وينفصلوا عن أهلهم أن يسدُّوا تلك الثغرة بين الجسد والنفس، ويصبح الواحد منهم قادرًا على الحب كشخص واحد كامل (جسد ونفس) كما كان يشعر وهو طفل صغير. وهذه بالطبع إحدى سمات نضوج الشخصية، لكن هناك بعض الرِّجال (والنِّساء) الذين لا يصلون إلى النضوج بحال من الأحوال، كما أنه في حياة كل فرد منا فترة من حياته قبل النضوج وقبل التحام جسده بنفسه حين يشعر أن جسده شيء وأن نفسه شيء آخر، وأن هناك مَن يحب جسده ولا يحب نفسه، أو يحب نفسه ولا يحب جسده.

إنَّ إحساس الثِّقة بالنَّفس ينبع أساسًا من هذه القدرة داخل الإنسان على جعل جسده ونفسه شيئًا واحدًا، وبالرغم من أن الجمال الجسدي وحدَه أو كفاءة الرَّجل الجنسيَّة تقود

إلى أن يخوض هذا الرَّجل عددًا من العلاقات مع النِّساء إلا أن هذا الرَّجل يظل عاجزًا عن إقامة علاقة حب حقيقية مستمرة ومشبعة مع أية امرأة طالما أنه يفتقد الإحساس الداخلي بالثقة في نفسه وقيمته كشخص متكامل. وكم من رجل جذاب جنسيًّا أو قوي جنسيًّا (فاقد الثِّقة في نفسه) يسرع في إنهاء علاقته بالمرأة في بدايتها خوفًا من أنها لو استمرت قليلًا فسوف تكتشف المرأة أنه غير جدير بحبها وتقطع هي العلاقة، ولهذا يبدأ هو بقطعها، وكأنما يقول لنفسه: «بيدي لا بيد عمرو.»

إن هذا الرَّجل المتعدد العلاقات مع النِّساء، الذي يتفاخر بعدد النِّساء اللائي اتصل بهن، والذي يقال عنه: «الدون جوان» ليس إلا رجلًا فاقدَ الثقة في نفسه، ويشعر بعقدة نقص، يحاول جاهدًا أن يسدَّ تلك الثغرة بين نفسه وجسده، وهو يعيش حياةً جنسية وعاطفية غير مشبعة وغير ناضجة تستحق منا الإشفاقَ ومحاولة البحث عن وسائل العلاج، ولا تستحق بحال من الأحوال أيَّ إعجاب.

لو عرف الرِّجال هذه الحقيقة العلمية فسوف يكفُّ الكثيرون منهم — لا شك — عن التفاخر بعدد غزواتهم النسائية والجنسيَّة، ويحولون جهودهم بدلًا من ذلك إلى ما يساعدهم على التئام الجُرح وسد الثغرة بين أجسادهم ونفوسهم، حيث يصبح الواحد منهم قادرًا على أن يكون شخصًا متكاملًا يستطيع التعامل مع المرأة كشخص متكامل، خاصة لو عرفوا أن المرأة (في معظم الأحيان) تحب الرَّجل الناضج الواثق من نفسه، وإن ضعفت عضلاته الجنسيَّة، أكثرَ مما تحب الرَّجل غير المتكامل الشخصية مهما بلغت عضلاته الجنسيَّة من قوة وجبروت.

ولعلَّ هذا يُفسِّر لنا تلك الدَّهشة التي يظهرها الرِّجال من ذوي العضلات حينما يرون امرأة تحب رجلًا بغير عضلات. إنَّهم يتهكَّمون دائمًا على مثل هذه الحالات، وهذا التهكم ليس إلا مداراة لشعورهم الحقيقي، ألا وهو الألم العميق بسبب عجزهم عن إقامة علاقة حب حقيقية، وإدراكهم الدائم لهذا النقص داخلهم، وينطبق هذا الكلام أيضًا على النِّساء اللائي يشعرن بالنقص وإن حظين بدرجةٍ عالية من الجمال الجسدي أو الجاذبية الجنسيَّة، وقد تكون الواحدة منهن ملكةَ جمال أو شيئًا من هذا القبيل والرِّجال يتزاحمون عليها، ومع ذلك يظل إحساسها بالنقص باقيًا، وبأنها ليست المرأة الكاملة القادرة على خوض علاقة حب حقيقية واحدة.

لقد لوحظ أن أكثر النِّساء تزينًا وبهرجةً وإظهارًا لجمالهن الجسدي الأنثوي هُنَّ أكثر النِّساء إحساسًا بالنقص، وأن محاولتهن الدائبة للمبالغة في التجميل والتزين ليست إلا مداراة أو تعويضًا عن ذلك الإحساس الدفين بالنقص وبأنهن نساء غير كاملات.

وكذلك الرِّجال، لوحظ أن أكثر الرِّجال استعراضًا وإبرازًا لعضلاتهم الجنسيَّة والذُّكورية والصفات التي أشيعت عن الذُّكورة والرجولة من حيث القوة والقسوة وعدم الاكتراث بالنِّساء، لوحظ أن هؤلاء الرِّجال هم أكثرُ الرِّجال إحساسًا بالنقص، وأن محاولتهم الدائبة للمبالغة في إبراز العضلات واستعراض صفات الرجولة ليست إلا مداراةً أو تعويضًا عن ذلك الإحساس الدفين بالشك في رجولتهم.

وهناك من الأسباب الكثيرة في مجتمعنا ما يشكك الرِّجال في رجولتهم، والنِّساء في أنوثتهن وما يرسِّب عُقَد النقص في نفوس الكثيرين من الشباب والشابات.

إن أجهزة الإعلام — وبالذات التليفزيون — وكذلك الصحف والمجلات — وبالذات المجلات المصورة — تعرض على النَّاس كلَّ يوم بغير انقطاع ذلك السيلَ من الإعلانات التجارية لترويج البضائع، هذه الإعلانات التي ترتكز أساسًا على أجساد النِّساء العاريات الجميلات الرشيقات الأنيقات أو أجساد الرِّجال ذوي القوة والعضلات والأسنان الناصعة البياض، ينظر النَّاس العاديون إلى هؤلاء بحسرة، يقارنون أنفسَهم بهم، ويشعرون بعد كل مقارنة بتلك المسافة الكبيرة التي تفصل بينهم وبين الجمال، ويتحسَّرون في أعماقهم ويخجلون من أجسادهم وتترسَّب في نفوسهم عُقَد النقص، وأنهم أقل ذكورة (أو أنوثة) من هؤلاء الرِّجال أو النِّساء.

من أجل ترويج البضائع بهذه الإعلانات، من أجل أن تثرى ثراءً فاحشًا هذه القلةُ من أصحاب السلع والصناعات المختلفة يتعذَّب ملايين الرِّجال والنِّساء في أعماقهم بسبب ذلك الإحساس بالنقص وعدم الاكتمال.

وقد اتضح أن عدد الرِّجال الذين يشعرون بنقصٍ في رجولتهم أو ذكورتهم أكثرُ من النِّساء اللائي يشعرن بمثل هذا النقص في أنوثتهن. إن الرَّجل في حاجة دائمة إلى أن يثبت رجولته وذكورته، وإنه في حاجة دائمة إلى ما يؤكد له أنه رجل، وأن رجولته قوية لا تضعُف. وهو في حاجة إلى مَن يجدِّد له هذا التأكُّد من حينٍ إلى حين حتى يظل واثقًا من نفسه ورجولته.

قال لي بعض الأزواج، إن أكثر شيء يؤرِّقهم ليس هو الخوف من أن يُطْرَدوا من عملهم أو يجوعوا أو يتعرَّوا، ولكن ما يؤرقهم دائمًا هو أن يفقدوا قوَّتهم الجنسيَّة يومًا ويصبح عضوهم الذكري عاجزًا عن الانتصاب. وسألت أحدهم: وما الذي يخيفك من هذا؟ قال: زوجتي.

قلت: وماذا ستفعل زوجتك؟

قال: سوف تذيع على النَّاس أنني لم أعُد رجلًا.

قلت: لا أظن ذلك، إنها امرأة طيبة، ومثلها لا يفعل ذلك.

قال: إذا لم تتكلم فهي على الأقل سوف تشعر بأنني لا أرضيها وقد تبحث عن رجل آخر.

سألته: هل تخاف أكثرَ من هذا الاحتمال أم من الاحتمال الأول، أعني هل تخاف على سمعتك بين النَّاس كرجل أم تخاف من ذهاب زوجتك إلى رجلٍ آخر؟

قال: أخاف من الاثنين، لكن ذهاب زوجتي إلى رجل آخر يخيفني أكثر.

سألته: لماذا؟

قال: لأنها زوجتي. هل هناك رجل في العالم يقبل أن تذهب زوجته إلى رجل آخر؟!

وقد وجدتُ من خلال الحديث مع عدد من الأزواج أن أغلبهم يتفقون مع رأي الزوج السابق في أن فقدان الانتصاب أو القوة الجنسيَّة هو أكثرُ ما يؤرق الرَّجل ويبعث في نفسه الخوف والقلق بالذات حين يتعدى الأربعين أو الخمسين، وأنه في حاجة دائمة إلى ما يؤكِّد له أنه مكتمل الرجولة، وأن رجولته — أي قوَّته الجنسيَّة — لا تقل ولا تضعُف.

والسؤال الذي يجب أن يُسألَ الآن هو: لماذا يحدث هذا للرجل أكثر مما يحدث للمرأة؟ وقد أجاب بعض العلماء على هذا السؤال إجاباتٍ علمية قاصرة، منها أن الرَّجل هو الطرف الإيجابي في الجنس، وهو الذي يبدأ، وهو الذي ينتصب، وهو الذي يفعل، وعليه يقع عبء الفعل ومسئوليته، أما المرأة فهي الطرف السلبي الذي يستقبل عضو الرَّجل فقط، وهي لا تفعل شيئًا، ولا تنتصب، ولا يقع عليها عبء الفعل. لكن هذه الإجابة قاصرة؛ لأنه ثبَت أن المرأة ليست طرفًا سلبيًّا في الجنس، وأنها إيجابية كالرَّجل، ولا بد أن يحدُث لها انتصاب في البظر وإثارة كالرَّجل، وأن تصبح عضلاتها الجنسيَّة قادرةً على الممارسة الجنسيَّة الكاملة حتى تصل إلى قمَّة اللذة (الأورجازم) كما يصل الرَّجل، وأن أي نقصان في كفاءتها الجنسيَّة يسبِّب لها درجاتٍ متفاوتة من البرود الجنسي، الذي يقابله الضَّعف الجنسي عند الرَّجل. إذن يمكن القول إنه من الناحية البيولوجية والفسيولوجية[1] فإن المرأة كالرَّجل في حاجة دائمة إلى كفاءة جنسية معينة وإلا تعرَّضت للإحساس بالنقص أو البرود الجنسي.

وحينما لم يجد العلماء في علم البيولوجي وعلم الفسيولوجي ما يردُّ على السؤال السابق اتجهوا إلى علم النفس، وقالوا إن السَّبب الذي يجعل الرَّجل أكثرَ من المرأة تشككًا

[1] انظر الجزء الثاني من هذا الكتاب: «الأنثى هي الأصل».

وقلقًا على رجولته هو أن الطفل الذكر يبذل جهدًا أكبر من الطفلة الأنثى للانفصال عن أمه لإدراكه المبكِّر أنه مختلِف عنها. أما الطفلة الأنثى فيمكنها أن تظل متَّحدة بأمها لكونهما من جنس واحد. لكن تعلُّق الطفل الذَّكر بأمه يُقابله تعلُّق الطفلة الأنثى بأبيها. إذا كان الطفل يبذل جهدًا للانفصال عن أمه فإن البنت تبذل جهدًا كبيرًا للانفصال عن أبيها. لكنهم يقولون هنا إن علاقة الأم بالابن ليست كعلاقة الأب بالبنت. لماذا؟ لأن الأم موجودة في البيت طوال النهار، أما الأب فهو غائب معظم النهار في العمل، ومن هنا قوة الرابطة بين الأم والابن أكثر من الأب والبنت.

لكنَّ بقاء الأم بالبيت وغياب الأب عن البيت، ظاهرةٌ اجتماعية اقتصادية بسبب تقسيم العمل بين الجنسين بنشوء الأسرة الأبوية، بدليل أنه في مجتمعات الأمومة وفي بعض القبائل حتى اليوم في أفريقيا[٢] وآسيا وأمريكا يوجد رجالٌ يعملون داخل البيت ونساءٌ يعملن خارج البيت، والتصاق الآباء بأطفالهم أكثرُ من التصاق الأم بأولادها.

ويرجع الفرويديون هذه الظَّاهرة إلى عقدة أوديب وعقدة الإخصاء التي يشعر بها الطفل الذكر ولا تشعر بها البنت، وملخَّصها أن الطفل الذكر يكتشف وجودَ عضوه ويكتشف اللذة حين يمسكه، وهذه هي العادة السرية التي تبعث في نفس الطفل اللذةَ والخوف معًا؛ الخوف من عقاب الأهل الذين يحذِّرونه ضد الجنس. وحينما يكتشف الطفل أن أخته لا تملك العضو الذي يملكه يظن أنها قد عوقبت وأُخْصِيَت، ويزداد خوفه من أن يُخْصَى مثلها. هذا الخوف يجعله في قلقٍ دائم على عضوه، وعلى وجود هذا العضو وعدم فقدانه، أو عجزه عن الانتصاب.

لكنَّ علماء النفس الجدد فنَّدوا هذه النظرية، وقالوا إن البنت أيضًا تكتشف وجود البظر، وإنها تكتشف اللذة حين تمسك أو تداعب هذا العضو، وإن الأطفال البنات يمارسن العادة السرية كالأطفال الذُّكور، وإن هذه العادة السرية تبعث في نفس البنت اللذةَ والخوف معًا؛ بل إن خوفها من العقاب أشدُّ من خوف الولد، ولأن الكبت والمحظورات حولها أشدُّ منها حوله.

وهناك مَن يقول إنَّ اهتمام الرَّجل بالجنس أشدُّ من اهتمام المرأة، وبالتالي قلقه على الجنس أشدُّ من قلق المرأة؛ لأن طبيعة الرَّجل الجنسيَّة أعنفُ من طبيعة المرأة، وإن الرَّجل

[٢] سبق شرحُ هذه النقطة في الجزء الثاني من هذا الكتاب «الأنثى هي الأصل».

لا يستطيع أن يمتنع عن الجنس لفترة طويلة كما تستطيع المرأة، وإن الرَّجل في حاجة إلى إشباعٍ أكثرَ من المرأة؛ ولهذا السَّبب فإن طبيعة الرَّجل الجنسيَّة تميل إلى التعدُّد والتنوُّع أكثر من المرأة التي هي أحادية بطبيعتها، أي إنها تكتفي بزوج واحد طَوال حياتها، ومن هنا إباحة تعدُّد الزوجات للرجال اجتماعيًّا وأخلاقيًّا ودينيًّا وتحريم تعدُّد الأزواج للنساء.

على أن هذا التفسير أيضًا ليس له دلائلُ بيولوجية، فقد أثبت علم البيولوجي في السنوات الأخيرة أن طبيعة المرأة الجنسيَّة ليست أقلَّ منها في الرَّجل، وربما تزيد عليه؛ وذلك لأسباب ترجع إلى مراحل التطور الجنسي في الحيوانات الثديية إلى أن نتجت أنثى الإنسان (المرأة) وذكر الإنسان (الرَّجل).[٣]

يتَّضح من كل ذلك أنه علينا أن نبحث عن الإجابة المطلوبة خارج جسم الإنسان، بمعنًى آخر علينا أن نبحث عن الإجابة في المجتمع وفي الأسباب الاجتماعية والتَّاريخية التي جعلت الرَّجل أكثرَ قلقًا على قدرته الجنسيَّة من المرأة.

إن دراسة المجتمع وتاريخ الإنسان تدلنا على أن الرَّجل البدائي حين انتزع من المرأة النَّسب لينشئ أسرته الأبوية التي يعرف فيها أطفاله وينسبهم إليه من أجل أن يورثهم أرضه، لم يكن في إمكان الرَّجل أن يفعل هذا إلا بفرض الزواج الأحادي على المرأة، أي فرض زوج واحد للمرأة (لو تزوَّجت المرأة رجلين لاستحال على الرَّجل أن يعرف أطفاله من أطفال الآخر).

لكنَّ فرضَ زوج واحد على المرأة البدائية كان شديد الصعوبة؛ لأن طبيعة المرأة الجنسيَّة كانت عنيفة وكانت متعددة (كانت المرأة تتزوج عددًا من الرِّجال وتَنسب أطفالها إليها ولم يكن يُعرف الأب)، ومن أجل أن ينشئ الرَّجل أسرته الأبوية ومن أجل استمرار بقاء هذه الأسرة الأبوية كان لزامًا على الرَّجل أن يقمع طبيعةَ المرأة بشتى وسائل القمع الجنسي (حزام العفة الحديدي وغيره من الوسائل). ومن أجل أن ينجح القمع الجنسي كان لا بدَّ أن يصاحبه قمعٌ اقتصادي، بحيث يحرم على المرأة العمل والإنتاج وقصر وظيفتها في الحياة على الزواج والأمومة بغير أجرٍ سوى إعالة زوجها لها. ومن أجل أن ينجح القمع الجنسي والاقتصادي كان لا بدَّ أن يصاحبها قمعٌ فكري وفلسفي وديني وأخلاقي، بحيث

[٣] انظر أعمال شيرفي وكينزي وماسترز وجونسون. وقد سبق شرحُ هذه النقطة في الجزء الثاني من هذا الكتاب «الأنثى هي الأصل».

يُحْكَم بالإعدام (جسديًّا أو نفسيًّا أو أخلاقيًّا) على المرأة التي تخرج عن قوانين الأسرة الأبوية الصارمة، وأهمها قانون الزوج الواحد.

وضع الرَّجل كلَّ هذه القوانين الصارمة ضد المرأة التي أحسَّ منذ البداية أنها أقوى منه، وأنه لا يستطيع أن يحكمها إلا بفرض هذه القوانين. إن إحساس الرَّجل القديم بقوة المرأة وخوفه الشديد من هذه القوة هو الذي جعله يفرض عليها كلَّ هذه القيود العنيفة، وهذا أمرٌ طبيعي فإن قوة الشيء هي التي تحدِّد القوة المطلوبة لإخضاعه وحكمه.

وقد أدرك الرَّجل وهو يضع قانون الزوج الواحد للمرأة، أن مثل هذا القانون يتعارض مع طبيعة المرأة الجنسيَّة القوية، لكنه تصوَّر أنه يستطيع أن يحارب هذه الطبيعة (أو يُضْعفها على الأقل) من أجل إنشاء مؤسَّسته الاقتصادية الصغيرة القائمة على الملكية والتوريث. كما أنه تصوَّر أيضًا أنه بإضعافه لطبيعة المرأة (بكل وسائل القمع السابقة) فسوف يستطيع الزوج الواحد أن يرضيَ زوجته ويكفيها بحيث لا تفكِّر في الذهاب إلى رجلٍ آخر.

ومن هنا فرض الرَّجل على نفسه عبئًا أدرك منذ البداية أنه عبء كبير، لكنه كان مضطرًّا إلى تحمُّل هذا العبء (أو التظاهر بأنه قادر على حمله) من أجل نشوء الأسرة الأبوية وملكية أطفاله.

ويمكن القول إن الرَّجل أدرك منذ البداية ضخامةَ العبء الذي فرضه على نفسه، وأدرك أيضًا عجزه عن القيام بهذا العبء. وبهذا مزَّق الرَّجل نفسَه بين شيئين متناقضين:

(١) أنه قادر على القيام بهذا العبء بالضرورة الاقتصادية والاجتماعية.
(٢) أنه عاجز عن القيام بهذا العبء بالضرورة البيولوجية والنَّفْسية.

هذا هو الوضع الصعب الذي وضع الرَّجل نفسَه فيه، والذي يفسِّر إلى حدٍّ كبير ذلك القلقَ الشديد الذي يشعر به الرِّجال خوفًا من فقدان قوَّتهم الجنسيَّة، أو خوفًا من عجزهم عن إرضاء زوجاتهم جنسيًّا. إن هذا القلق مبعثه الخوف من أن يعجز الرَّجل منهم عن إرضاء زوجته فتذهب إلى رجل آخر. وبرغم أن الأسرة الأبوية في العصر الحديث قد فَقَدَت (في كثير من المجتمعات الاشتراكية والطبقات الفقيرة) السَّببَ الأساسي الذي قامت من أجله، وهو الملكية والتوريث، برغم أن كثيرًا من الآباء في عصرنا هذا لم يعودوا يملكون شيئًا يورثوه لأطفالهم، وأن النظام الأبوي بالتالي قد فقد أهمَّ ركن فيه، إلا أن الرَّجل ما زال متمسكًا بأسرته الأبوية، مستعذبًا سلطتَه كأبٍ وزوج بعد أن تعوَّد على هذه السلطة

التي منحته صفات الذُّكورة التي يتفاخر بها، ومنحته ملكية الأطفال والزوجة، ومنحته أيضًا الشرفَ والاسم الذي يعطيه للطفل، وإلا أصبح غير شرعي.

وقد ظل النظام الأبوي سائدًا في حياة البشر آلاف السنين، واستطاع أن يغيِّر الكثير من طبيعة كلٍّ من الرَّجل والمرأة، وأن يفرض على الإنسان نوعًا واحدًا من الرِّجال هم الرِّجال ذوو السلطة والقوة الجنسيَّة والإيجابية، ونوعًا واحدًا من النِّساء هن النِّساء من ذوات صفات معينة هي الطاعة والخضوع والعفة الجنسيَّة (أو البرود الجنسي) والسلبية والتضحية من أجل الزوج والأطفال.

ليس من السهل الآن بعد كل هذه السنوات وبعد أن فَقَدَ النظام الأبوي — في كثير من الحالات — أسبابَ وجوده أن يتحوَّل الرِّجال والنِّساء إلى طبيعة الإنسان الأولى، وليس من السهل على الحضارة الذُّكورية أن تعود وتصبح الأبوة فيها مجهولةً (وهذا أمرٌ لا مفر منه إذا ما عاد النَّسب إلى الأم).

إن إصرار الرَّجل الحديث (الذي لا يملك شيئًا يورِّثه لأطفاله) على معرفة أبوَّته ليس له ضرورة اقتصادية، وإنما له ضرورة نفسية واجتماعية وأخلاقية.

لكن علماء التَّاريخ يقولون إن الضرورة الاقتصادية هي التي تتحكَّم في مسار تاريخ البشرية، وإن أيَّ ظاهرة أو نظام في حياة البشر يبدأ أولًا لأسباب اقتصادية، ثم يدعم نفسَه بالأسباب الأخلاقية والدينية والنَّفْسية والاجتماعية.[٤] على أنه بزوال السَّبب الاقتصادي ينهدم الركن الأساسي، وسوف يتبعه بفتراتٍ متفاوتة زوال الأسباب الأخرى واحدًا بعد الآخر.

إن قلق الرَّجل على قوَّته الجنسيَّة قلق نفسي واجتماعي، وسوف يتخلص منه الرَّجل حينما يدرك أنه غير مطالَب من قِبَل زوجته أو من قِبَل مجتمعه أن يُثْبِت دائمًا كفاءته أو فحولته الجنسيَّة. وحينما يشعر الرَّجل أنه غير مطالَب دائمًا أن يرضيَ زوجته جنسيًّا وإلا انتهزت فرصة ذهابه إلى العمل وذهبت إلى رجلٍ آخر، حينما يغيِّر المجتمع مفهومه عن الرجولة، ويغيِّر معنى كلمة «رجل» فلا تعني الذُّكورة أو الفحولة الجنسيَّة أو القدرة على إشباع الزوجة جنسيًّا، حينما يدرك الرَّجل أنه بغير حاجة إلى أن يثبت أبوَّته البيولوجية وأنه يستطيع إنسانيًّا أن يحب أطفال رجال آخرين كما يحب أطفاله، حينما يدرك المجتمع

[٤] سبق شرحُ هذه النقطة في بحث «المرأة والجنس» من هذا الكتاب.

أنه حين فرض على البشرية نوعًا واحدًا من الرِّجال (وهو النوع الذي يُظْهِر صفات الذُّكورة فقط من حيث القوة الجنسيَّة والعدوان والسيطرة) أنه قد سبَّب القلق والعذاب للأغلبية الساحقة من الرِّجال الذين يشتملون بالطبيعة على جزأين: الذكري والأنثوي معًا، وأنهم من أجل التكيف مع المجتمع يدَّعون من الصفات ما ليس فيهم، ويتظاهرون بقوة ليست عندهم، ويحاربون على الدوام الأجزاء الإنسانيَّة والرقيقة فيهم.

وكم يتخلَّص كثير من الرِّجال من قلقهم ويستريحون حينما يدركون أنهم غيرُ مطالَبين على الإطلاق بأن يكونوا «رجالًا» بمعنى الكلمة، أو أن يتقمَّصوا هذا النمط الواحد من الرِّجال الذي فرضوه على أنفسهم؟!

والمشكلة الآن ليست فقط تحريرَ النِّساء من سلطة الرِّجال واضطهادهم، ولكن المشكلة أيضًا هي تحرير الرِّجال من أنفسهم ومن نظامهم الذي فَرض عليهم القلق والعذاب بمثل ما فَرض على المرأة التعاسة والحرمان والقهر.

إن هذا الإدراك القديم الدفين في نفس الرَّجل أنه غير قادر على إرضاء المرأة هو أحدُ الأسباب الذي يصيب كثيرًا من الرِّجال بالإحساس بالنقص، وما يتبعه هذا الإحساس من محاولة لتغطية النقص بقشرة خارجية من التكبُّر والاستعلاء وادعاء العظمة والقوة. إن عقدة الإحساس بالعظمة هي الوجه الآخر لعقدة الإحساس بالنقص، وهما وجهان لعملة واحدة؛ ولهذا يقول علماء النفس إن الرَّجل الذي يعاني من عقدة العظمة يعاني في الوقت نفسه من عقدة النقص (مثل الماسوشية والسادية وهما أيضًا وجهان لعملة واحدة)، وكلما زادت عقدة النقص زادت عقدة العظمة.

ومن هنا نستطيع أن نفهمَ حقيقة هؤلاء الرِّجال الذين ينفشون أوداجهم (كالديوك) الذين ينظرون إلى النَّاس (وبالذات النِّساء) شزرًا، والذين يبرمون شواربهم ويبرزون عضلاتهم ويدقون الأرض غطرسةً وكبرياء، الذين يقول الواحد منهم عن نفسه إنه «حمش»، هؤلاء هم أكثر الرِّجال معاناةً من عقدة النقص.

إنَّ نضج الرَّجل (أو المرأة) مرتبطٌ بقدرة هذا الرَّجل على التخلص من الإحساس بالنقص، هذا الإحساس الذي يترسب في نفسه كطفل تربَّى وعاش وسط أسرة أبوية احتلت فيها العلاقات الإنسانيَّة بين الأم والأب من ناحية، وبين الأطفال والأهل من ناحية أخرى.

وإنَّ نضج الرَّجل (أو المرأة) مرتبطٌ أيضًا بقدرة هذا الرَّجل على التخلص من الإحساس بالذنب، هذا الإحساس الذي يترسَّب في نفسه كشخص عاش في أسرة ومجتمع بشري مزَّق الإنسان إلى جزأين متنافرين متناقضين هما الجسد والنفس، وألصق تهمةَ الإثم بالجسد.

إن الرَّجل الناضج هو الذي لا يفصل بين جسده ونفسه، ويحس في أعماقه أنه شيء واحد، وهو ذلك الرَّجل الذي لا يشعر أنه أقل من ذلك الرَّجل الوسيم ذي العضلات الذُّكورية الذي يُطِلُّ عليه كلَّ يوم من شاشة التليفزيون معلنًا عن بضاعة جديدة، أو مؤديًا لدور البطل في فيلم من الأفلام. إنه الرَّجل الذي تصالح هو ونفسه وجسده، وتآلف هو وجميع أجزائه الذكرية والأنثوية فلم يَعُد يُخجِله أن يبكي تأثُّرًا، ولم يُخِفْهُ أن يفشل عضوه الجنسي في الانتصاب أحيانًا، ولم يَعُد يخفي رقَّته وحنانه وإنسانيته خوفًا من أن يُتَّهَم بأنه ليس رجلًا أو بأنه امرأة، إنه الرَّجل الذي وثق في نفسه وتغلَّب على عقدة النقص والخوف القديم من المرأة، وأصبح يشعر أنه ليس أقلَّ منها، وأنها ليست أقوى منه، وأن الرَّجل كالمرأة والمرأة كالرَّجل، ولا يمكن الفصل بينهما، ولا يمكن اعتبار أحدهما أسمى من الآخر.

إن مجرد تشبيه الرَّجل بالمرأة (لفظيًّا) يُعَد نوعًا من أشد الشتائم والإهانات للرجل، ومن هنا ندرك كم يصبح النضج الحقيقي شيئًا متعذرًا لكثير من الرِّجال، وكم يفضِّل الأغلبية الساحقة من الرِّجال أن يكونوا كما فَرض عليهم المجتمع أن يكونوا، بدلًا من أن يكافحوا من أجل أن يكونوا على حقيقتهم.

أن يصبح الرَّجل نفسَه الحقيقيةَ أمرٌ بالغ الصعوبة في مجتمعنا وفي معظم مجتمعات العالم، لكن ذلك لا يمنع من أن هناك رجالًا استطاعوا أن يتحدَّوا المجتمع وأن يفرضوا أنفسهم الحقيقية غير عابئين بتقييم المجتمع لذكورتهم أو رجولتهم. إنهم — لا شك — قلةٌ من الرِّجال، ولكنها القلة العظيمة ذات العبقرية العلمية والفنية التي استطاعت أن تسهم في تغيير كثير من الظواهر والحقائق الثابتة من حولنا، إنها هذه القلة من الرِّجال الذين لم يَعُد في أعماقهم الدفينة أيُّ خوف من المرأة، أو أي إحساس بالنقص أمامها.

على أنه هناك من الرِّجال الذين برزوا في الحضارة، ومع ذلك كانوا يعانون من مشاكل في علاقتهم بالمرأة بسبب الخوف منها وعقدة النقص، وليس ذلك لأن طاقتهم الجنسيَّة تحوَّلت إلى فكر وفن وثقافة، وإنما لأنهم كانوا أذكياءَ العقل وذوي مواهب استطاعت ألا تنهزم أمام المشاكل النَّفْسية والجسدية، ولأنهم قاوموا نقصَهم بإرادة حديدية، ومَن يدري لو كانت أتيحت لهم فرصٌ أفضل للنضج الجنسي والنفسي ربما كانوا أخرجوا إلى العالم أفكارًا وفنونًا أعظمَ من التي أخرجوها، ومن هؤلاء يذكر التَّاريخ: دافنش ورفائيل ومايكل أنجلو وبتهوفن وموزار وجوجول وتشيكوف ودوستوفسكي وبودلير وبروست وأفلاطون والمعري وابن الفارض والحلاج والسهروردي والعقاد وديكارت وسبينوزا وكانْت وشوبنهور وهيجل وكيركجارد ونيتشه ورسو وبلزاك، وغيرهم.

إنَّ بعض هؤلاء من شدَّة خوفهم من المرأة كان يُفضِّل عليها الإشباعَ الذاتي (العادة السِّريَّة) أو يفضِّل الرِّجال أو الأطفال أو المومسات. بعض الرِّجال لا يستطيعون ممارسة الجنس إلا مع مومس. إنَّ وضع المومس الأدنى اجتماعيًّا واقتصاديًّا يُقلِّل من خوفه من المرأة فيعالج من عجزه الجنسي. وكثير من الأزواج يتسللون من فراش زوجاتهم الجميلات ليذهبن إلى فراش المومس حيث الراحة النَّفْسية وعدم الخوف.

إن الرَّجل لا يشعر بخوف من المومس؛ لأن علاقته بها مؤقتة وسريعة، وهو يدفع نظير الممارسة الجنسيَّة ثم يخرج دون أن يتعامل مع هذه المرأة في مختلِف الحياة الأخرى كما يحدُث مع زوجته. وهناك أبياتٌ من الشِّعر اليوناني القديم بتوقيع شاعر اسمه «أنتيباتر» كتب يقول مخاطبًا المومس التي كان يذهب إليها:

بستة قروش أشتريك يا «يوريا» يا فتنةَ أثينا ...
لا أشعر بحرجٍ بين ذراعيك ولا ضيق ولا خوف ...

الإحساس بالذَّنب

لا يُمكن لأي رجل أو امرأة أن ينكر أنه مهما بلغ من إدراك معنى الجنس فلا يزال هناك في أعماقه البعيدة إحساس بالذنب يصاحب ممارسته الجنسيَّة أو مجرد التفكير فيها، هذا الإحساس بالذنب ليس إلا رواسب الفكرة القديمة بأن الروح طاهرة والجسد آثم مدنس، وهو أيضًا رواسب باقية من الطفولة، حُفِرَت في الذاكرة والعقل منذ سمِع الطفل لأول مرة في حياته كلمة «عيب» من أمه أو من أبيه.

ومن المعروف علميًّا أن الشعور بالذنب يعوق النموَّ الطبيعي للسلوك الجنسي محوِّلًا الطاقة الجنسيَّة عن مسارها الطبيعي إلى مسارٍ آخر أكثرَ التواءً وتعقيدًا.

يمكننا أن نقول إذن إن الانحرافات الجنسيَّة أكثرُ انتشارًا حينما ينتشر الكبت والتربية المتزمتة والجهل بالجنس؛ ولهذا انتشرت الانحرافات الجنسيَّة في الماضي عنها في الحاضر، وقد لعِب علماء النفس والجنس في القرن الأخير دورًا هامًّا (لأسباب اقتصادية أساسًا) في تنبيه الأذهان إلى موضوع الجنس وأهميته، وأصبحت تربية الأطفال أقلَّ تزمتًا مما سبق، إلا أن الحضارة التي نعيشها لا تزال حضارةً ذكورية تمشي على ساق واحدة، وما زال الفصل قائمًا بين الجسم والعقل، وبين الحب والجنس، وبين الرَّجل والمرأة، وبين الفقير والغني، والأبيض والأسود، والسيد والأجير، والغربي والشرقي.

وما زال الجنس ضمن الموضوعات المحاطة بالضباب والخزعبلات والإثم أو الشعور بالذنب، هذا الشعور الذي يفسد (بدرجاتٍ متفاوتة) حياةَ النَّاس الجنسيَّة، أو يحوِّل طاقتهم الجنسيَّة الطبيعية إلى نواحٍ أخرى تسمَّى بالانحرافات. وقد يكون هذا الانحراف أحيانًا نوعًا من الهروب من العملية الجنسيَّة الكاملة مع الجنس الآخر التي ترسَّبت في أعماق الشخص على أنها نوع من الإثم، وبذلك تصبح الممارسة الجنسيَّة مع الجنس

نفسِه أو العادة السرية أو استبدال جسد المرأة بملابسها الداخلية وغير ذلك، تصبح هذه الممارسات أقل إثمًا في نظر فاعلها من العلاقة الكاملة مع الجنس الآخر.

إن شكل وحجم الإحساس بالذنب في نفس الشخص منَّا يتحدَّد حسب موقف أبيه وأمه من الجنس منذ كان طفلًا، وحسب موقف المجتمع الذي يعيش فيه تجاه الجنس.

قليل جدًّا من النَّاس يستطيع أن يتحرَّر تمامًا من هذا الإحساس بالذنب في مجتمعٍ مثل مجتمعنا العربي الذي يقوم على التديُّن الشديد والعفَّة والتزمت (نظريًّا أو ظاهريًّا) والقيم التقليدية التي سادت مئات السنوات والتي نظرت إلى الجنس كإثم وعيب، وفصلت بين النِّساء والرِّجال.

ولا أظن أنَّ هناك مجتمعًا في عالمنا البشري تخلَّص من القيم التقليدية التي تنظر إلى الجنس كإثم وعيب؛ فالمجتمعات الأوروبية، وإن تحرَّرت جنسيًّا بعض الشيء لأسباب اقتصادية، إلا أنها لا تزال ترزح تحت وطأة النُّظم الرأسمالية الاستغلالية، ولا يزال عالقًا بها بقايا المبادئ المسيحيَّة المتزمتة التي مجَّدت الرهبنة والعذرية والامتناع عن الجنس، ولا تزال تخضع للنظام الأبوي الذي يعطي الرِّجال جميعَ الحقوق في البيت والمجتمع وفي الدنيا والآخرة، ولا يعطي النِّساء إلا الخضوع والطاعة، وأحيانًا بعض الحريات الظاهرية السطحية التي لا تزيد من إنسانيَّة المرأة بقدرِ ما تُنقِصها وتجعلها أداةَ جنس مربحة تجاريًّا أو متعةَ فراغ ولهو.

على أنه هناك حقيقةٌ لا يمكن إغفالها، وهي أن معظم النَّاس تؤمن نظريًّا بمبادئَ معينة، لكنها عند الممارسة الفعلية تمارس شيئًا آخر قد يكون مناقضًا تمامًا للمبادئ النظرية التي تؤمن بها، وينطبق هذا الكلام على النشاط الجنسي أكثرَ مما ينطبق على أي نشاط آخر. وقد خرج كينزي وزملاؤه من بحثهم الجنسي المعروف الذي أُجرِيَ في المجتمع الأمريكي على أن ٩٥٪ من الرِّجال الأمريكيين يقعون تحت طائلة القانون بسبب ممارستهم الجنسيَّة غير القانونية. وقال أحدُ العلماء الباحثين في علم الإنسان إن المبادئ الدِّينية والأخلاقية التي تحرِّم جميع الممارسات الجنسيَّة (فيما عدا ما كان منها داخل مؤسَّسة الزواج) لا يمكن أن تسريَ إلا في ٥٪ من مجموع العدد الكلي للبشرية.

إن الفكرة التي قالت بأن الامتناع عن ممارسة الجنس نوعٌ من السمو الإنساني والأخلاقي لم تَعُد فكرة مقبولة علميًّا أو خلقيًّا؛ لأنه ثبَت أن الإنسان الذي لا يعيش علاقةً جنسية سوية ومستقرة ومشبِعة يصبح عاجزًا عن تبادل الحب أو الصداقة الحقيقية مع الآخرين. بمعنًى آخر يصبح عاجزًا عن أن يكون إنسانًا.

ومع ذلك هناك كثير من النَّاس ما زالت كلمة «الجنس» عندهم مرادفة لكلمة «الإثم»، وما زال في مجتمعنا كثير من الآباء والأمهات ممن يصمتون حين يفاجئهم الطفل بسؤال عن الجنس، أو يردُّون ردودًا مبهمة أو مضلِّلة أحيانًا، وبالذات إذا جاء سؤال الطفل أمام عدد من أفراد الأسرة أو الغرباء. بعض النَّاس يعترفون بأهمية الجنس سرًّا أو مع شخصٍ يثقون فيه، لكنهم ينكِرون ذلك علنًا أمام الآخرين، سببُ هذا الإنكار أنهم خائفون من إبداء رأيهم الذي يتعارض مع الرأي الجماعي العام المتحيِّز ضد الجنس، وهذا الرأي الجماعي أيضًا من ضمن الأسباب التي تساهم في خلق الإحساس بالذنب وما يعقبه من انحرافات جنسية.

إحدى صفات الإنسان أنه وُلِد ضعيفًا عاجزًا في حاجةٍ إلى حماية أهله ورعايتهم لعدة سنوات حتى يستطيع أن يمشيَ على قدميه ويطعم نفسَه. خلال هذه الفترة التي يحتاج فيها الطفل إلى أهله (والتي قد تطول وقد تقصُر باختلاف الطبقات والمجتمعات) يصبح الطفل، بسبب هذه الحاجة الملحَّة إليهم، عاجزًا عن مخالفتهم؛ لأنه بذلك يعرِّض نفسَه للحرمان من رعايتهم. هذا الخوف من فقدان رعاية الأهل هو الذي يفرض على الطفل الطاعة، وكبْت رغباته الحقيقية، وتبنِّي رغبات أهله. إن تجربته أيضًا تعلِّمه أن تبنِّي رغبات أهله يجلب له الثناء ومزيدًا من الرعاية والحب، أما العصيان فيجلب له التأنيب واللوم.

ويقبل الطفل قيمَ أهله بغير مناقشة، ويهضمها منذ سنوات عمره الأولى: ما هو إثمٌ في نظرهم يصبح إثمًا في نظره، وما هو خيرٌ عندهم يصبح خيرًا عنده.

إن التمرُّد على قيم الأهل لا يحدث إلا بعد أن يكبر الطفل ويصبح قادرًا على إدراك أن قيم أهله وأفكارهم ليست هي القيم والأفكار الوحيدة في الحياة، وأن هناك قيمًا وأفكارًا أخرى. حينئذٍ يبدأ لديه الإحساس بالذنب؛ إذ إنه يكتشف أنه يشعر في أعماقه برغباتٍ أدرجها (حسب مقاييس أهله) تحت قائمة العيب والممنوع والحرام والشر والخطأ. مثل هذا الشعور يُفْقِده الأمانَ الذي كان عليه، ويضعف ثقته بنفسه بالرغم من أنه قد يكون في ذلك الوقت قد انفصل عن أهله ولم يَعُد بحاجة إليهم، ولم يَعُد يخاف منهم، ولم يَعُد معرَّضًا لرضائهم أو غضبهم.

وهناك من الأسباب التي تجعل الإحساسَ بالذنب يصاحب الممارسةَ الجنسيَّة أكثرَ من أي ممارسة أخرى، والسَّبب الأول — كما ذكرتُ سابقًا — هو موقف المجتمع المعادي للجنس، هذا الموقف يؤثِّر على أي فرد في المجتمع مهما تصوَّر هذا الفرد أنه لا يأبه بالمجتمع. إنَّ ضغط المجتمع على الفرد الواحد يشبه الضغط الجوي، قد يحسُّه الفرد وقد لا يحسُّه، ولكنه موجود دائمًا وله آثاره التي تشتد أو تقل حسب قوة شخصية الفرد ونضجها، وحسب نوع المجتمع.

والسَّبب الثاني هو أن الآباء والأمهات بالرغم من أن كثيرًا منهم في السنين الأخيرة قد غيَّروا موقفَهم من الجنس (حتى لا يُرسِّبوا في نفوس أطفالهم الإحساسَ بالخوف أو الإثم)، إلا أنه من النادر جدًّا أن يشير أبٌ أو أمٌّ إلى الجنس بكلمة طيبة فيها شيءٌ من الثناء أو القبول. لقد أصبح عدد كبير من الآباء والأمهات يمتنعون عن التأنيب أو العقاب القديم، لكنَّ موقفهم من الجنس ما زال موقفًا سلبيًّا، بحيث إنهم لا يرفضون ولا يقبلون، وهذا السبب في حدِّ ذاته إشارةٌ إلى أن الجنس ما زال شيئًا شائكًا. على أن أغلب الآباء والأمهات ما زالوا حتى اليوم يفزعون حين يرون طفلهم يداعب أعضاءه الجنسيَّة، وقد لا يتلقى الطفل صفعةً على يده أو وجهه كما كان يحدث قديمًا، لكنَّ النظرة المستاءة من الأم أو النصيحة من الأب بأن مداعبة الدمية أو اللعبة أفضل من مداعبة جسده تجعل الطفل يدرك أن الجنس شيءٌ غير مباح أو غير لائق.

وهناك كثيرٌ من الأطفال يربطون بين الجنس والقذارة (وبالذات في الطبقات المستريحة اقتصاديًّا) بسبب مبالغة الأهل في تنظيف الطفل وصرامتهم في تدريبه على التبوُّل والتبرُّز بحيث لا يلوِّث نفسه، مرسِّبين في نفسه إحساسًا بأن إفرازات جسده قذارة، لأن الأعضاء الجنسيَّة ملاصقة وقريبة من فتحات الشرج والبول؛ ولهذا يربط الطفل بين هذه القذارة والجنس، ويصبح الجنس في نظره شيئًا ملوثًا باعثًا على الغثيان.

إنَّ الآباء والأُمَّهات المتحررين يستطيعون أن يُخفِّفوا من وطأة الإحساس بالذَّنب عن أطفالهم، لكنهم لا يستطيعون بحالٍ أن يخلِّصوا أطفالهم تمامًا من هذا الشعور بالإثم؛ ذلك أن الطفل منذ طفولته يشعر برغبةٍ جنسية، تتجه بالطبيعة نحو الأشخاص الذين يعيشون معه في البيت (الأب والأم والأخوات)، لكنه يكبت هذه الرغبة ويجعلها سرًّا بينه وبين نفسه مع إحساس كبير أو صغير بالذنب حسب علاقته بأهله ودرجة نموِّه النفسي والجنسي.

لا يستطيع الطفل أن يتمرَّد على أهله خاصةً إذا كانوا من النوع المتحرِّر المحب، وليسوا من النوع المسيطر؛ فالإنسان عادةً يستطيع أن يتمرد على السلطة أكثرَ مما يستطيع أن يتمرد على الحب.

إن الأطفال الذين يكبرون حاملين معهم عبء الإحساس بالذنب ثقيلًا هم في أغلب الأحيان هؤلاء الأطفال الذين عجزوا عن التمرد على آبائهم أو أمهاتهم بسبب الحب أكثرَ من أي سبب آخر، ولأنهم عجزوا عن التفرقة بين أنفسهم وبين آبائهم أو أمهاتهم، الذين كانوا محبِّين ومتحرِّرين، لكنهم كانوا من هذا النوع من الآباء أو الأمهات الذين يوثِّقون علاقتهم العاطفية بأطفالهم إلى حدٍّ أن يعجز الطفل عن الخروج عليهم.

لا يستطيع الطفل أن يدرك الأسبابَ الاجتماعية والاقتصادية والتَّاريخية التي جعلت المجتمع يحرِّم الاتصالَ الجنسي بين الأم وابنها أو بين الأب وابنته، لكن الطفل يشعر بهذه الرغبات، وقد تظل معه هذه الرغبات فترةً طويلة حتى بعد أن يكبر. هناك رجالٌ يظلون عاجزين عن الزواج بسبب تعلُّقهم الشديد بأمهاتهم، وهناك أيضًا البنت التي ترفض الزواج لتبقى مع أبيها الذي تحبُّه، وأحيانًا يفشل هؤلاء في حياتهم الزوجية بسبب ذلك الحب والتعلُّق الشديد بالأم أو بالأب.

ولأن المجتمع يحرِّم على الطفل الاتصالَ بأحد أفراد الأسرة فإنه يبحث خارج الأسرة عن وسيلة لإشباع رغبته. ويمكن القول: إن الجنس هو الذي يفرِّق بين الطفل وأسرته؛ ولهذا يصاحب الجنس إحساس بالذنب.

إذا أدرك الآباء والأمهات هذه الحقيقة فإن واجبهم يستدعي منهم ألا يتدخَّلوا أو يتطفَّلوا على حياة أولادهم أو بناتهم الجنسيَّة، إنَّ من المهم للأولاد والبنات أن تكون لهم حياتهم الخاصة إذا ما كنا نريد لهم أن يكونوا أشخاصًا مستقلين. ولا شك أن نموَّ الرغبات الجنسيَّة هو الذي يشكِّل النواةَ التي تساعد على استقلال الابن أو الابنة. وهناك رأي يقول إن قليلًا من الإحساس بالذنب ليس ضارًّا بالمراهق (أو المراهقة)؛ لأنه يشجِّعه على البحث عن رفاقٍ من عمره يفهمونه ويتقبَّلون رغباته الجنسيَّة أكثرَ مما يتقبَّلها أهله. ولكنَّ الأفضل أَن يحدُث هذا بسب نمو المراهق جنسيًّا ونفسيًّا وليس بسبب الإحساس بالذنب.

ومن المفروض أن الإحساس بالذنب لا بدَّ وأن يتلاشى بعد أن يكبر الإنسان وينضج ويصبح قادرًا على إقامة علاقة مستقرة ومشبعة مع الجنس الآخر. لكن هذا لا يحدُث في كثير من الأحيان؛ فالحب الذي يمارسه الرِّجال مع النِّساء ليس حبًّا كاملًا في معظم الأحيان، ومن النادر أن يحدث ذلك الحبُّ الناضج الذي يتَّحد فيه الرَّجل والمرأة اتحادًا جسديًّا ونفسيًّا، ومن أهم الأسباب التي تجهض الحبَّ وتجعله ناقصًا (إما حبًّا جسديًّا صرفًا أو روحيًّا صرفًا) هو ذلك الإحساس بالذنب الناتج عن التعلُّق بالأب أو الأم.

كلما كان الطفل متعلقًا بأمه أصبح عاجزًا عن الانفصال عنها، وحتى إذا انفصل عنها فإنه يحاول أن يجد بين الآخرين بديلًا لها، إنه يبحث عن أمه بين النِّساء الأخريات، ويتزوجها ويشعر في علاقته الجنسيَّة مع زوجته بنوع من الذنب يشبه الإحساسَ بالذنب الذي شعر به (وهو طفل) نحو أمه، وهذا هو السَّبب في أن كثيرًا من الرِّجال لا يشعرون بإشباع جنسي حقيقي مع زوجاتهم، ولا يجدون هذا الإشباع إلا مع نساءٍ غير زوجاتهم، كالعشيقات أو المومسات. ومن هنا يُقسِّم الرِّجال النِّساءَ إلى قسمين: نساء عفيفات

محصنات طاهرات هن الزوجات والحبيبات (أو بديلا الأم)، ونساء ساقطات قادرات على منحهم المتعةَ الجنسيَّة. يميل الرِّجال إلى الفصل بين الحب «الطاهر» والجنسي «الملوث» بسبب ذلك الإحساس بالذنب الذي ترسَّب في طفولتهم إزاءَ شعورهم الجنسي نحو أمهاتهم، وكبْتهم هذا الشعور في عقلهم الباطن.

ويقول العلماء إن الطفل حينما يرفض أن ينظر إلى أمه كمخلوق جنسي فإنه يخلق فكرةَ إمكان وجود «المرأة بغير جنس» التي يُسقِطها على كل امرأة تذكِّره بأمه، أو كل امرأة يحاول أن تعوِّضه عن علاقته العاطفية بأمه.

قال لي أحد الأزواج إنَّه ظلَّ عاجزًا عن الاتِّصال الجنسي بعروسه شهرَ العسل كلَّه مع أنَّه كان يمارس الجنس بكفاءة مع عشيقته القديمة، وقد نجح في الاتِّصال بعد أن كسر قدسيتها في عينه، وذلك بأن جعلها ترتدي قميصَ نوم مُتهتِّك جعلها أشبه بعشيقته منها بأمه. وزوجٌ آخر قال لي إنَّه اكتشف بعد الزَّواج أن زوجته لها صوتٌ مثل صوت أمه، وأنه بمقدارِ ما كان يحب هذا الصوت فقد أصبح يكرهه؛ لأنه يسبِّب له نوعًا من الضَّعف الجنسي الذي يصل أحيانًا إلى العجز الكامل.

وقال لي شابٌّ تزوَّج فتاة عن حب شديد: إنَّه ظلَّ شهرين كاملين عاجزًا عن الاتِّصال بها؛ لأنَّها كانت تبدو أمامه كالملاك الطاهر، وكلما كان يحاول لمسَها يتراجع مستغفرًا الله كأنه مقبل على إثم كبير. وقال لي مُعبِّرًا عن شعوره في ذلك الوقت: كانت تبدو في عيني ملاكًا طاهرًا إلى حدِّ أنَّني تصوَّرت أنَّ إبليس نفسه لا يستطيع أن يلمسها.

وقد وجدت أنَّ معظم الأزواج يعانون بدرجاتٍ متفاوتة من هذه المشكلة (حسب درجة تعلُّقهم بالأم)، وأن الرَّجل مهما بلغ من النضج النفسي والعاطفي والجنسي فإن علاقته الجنسيَّة بزوجته يظل يشوبها شيءٌ ما يحول بينه وبين الإشباع الجنسي الكامل الخالي من أي إحساس بالذنب.

والزوجة هنا أيضًا تلعب دورًا لا يمكن إغفاله، إن معظم الزوجات يحاولن (للأسباب السابقة ولأخطاء التربية والكبت) أن يدَّعين العفة والملائكية والقداسة في نظر أزواجهن، وبهذا يساعدن على تعميق الإحساس بالذنب في نفوس رجالهن.

وعلى هذا قلما تخلو علاقةٌ زوجية جنسية من الإحساس بالذنب، اللهم إلا في القليل النادر حين يلتقي بالصدفة رجلٌ ناضج مستقل بامرأة ناضجة مستقلة، فينشأ بينهما حب حقيقي ناضج يتَّحد فيه الجسد والعقل اتحادًا خالصًا بغير إحساس بالإثم. وهذا أمرٌ نادر جدًّا بسبب المحظورات والمحرَّمات المنتشرة في جميع المجتمعات، وبسبب تراث البشرية الطويل المتحيز ضد الجنس والمرأة.

إنَّ أكثر الرِّجال ميلًا لفصل الحب عن الجنس هم هؤلاء الذين عجزوا عن الانفصال العاطفي عن أمهاتهم، وهؤلاء يعيشون فيما يسمى «بالخيالات الجنسيَّة»، إنهم في الحقيقة عاجزون عن إقامة علاقة حب مع امرأة حقيقية؛ ولذلك هم يحلِّقون في الخيال صانعين لأنفسهم امرأةً تتناسب مع أحلامهم الجنسيَّة.

إن الوقوع في الحب كما يقولون، ينتج حينما يلتقي الرَّجل بامرأة حقيقية تقترب على نحوٍ ما من المرأة التي صنعها في خياله. وقد اتضح أن صورة الأم تحتل جزءًا كبيرًا من خيال الرَّجل الذي أحب أمَّه وارتبط بها فترة طويلة. ومن هنا أهمية انفصال الابن مبكرًا عن أمه ليعيش الحياةَ الحقيقية مع الجنس الآخر وليتحرَّر خياله من صورة أمه ويصبح خياله ناضجًا أيضًا ومستقلًّا. ولهذا يجب أن تنشغل المرأة بأعمالٍ خارج البيت في المجتمع، وألا تتفرغ أبدًا للبيت والأمومة إلى أن ينفصل عنها الابن بسهولة الممارسة ولا يحبذها؛ ولهذا فإن استمرار وجود الإحساس بالذنب لدى أي شخص يعني أن طاقته الجنسيَّة لا تعبِّر عن نفسها بشكل صادق كامل، أو أنها تنحرف عن مسارها الطبيعي. والعلاج في هذه الحالات هي أن يدرك الإنسان الأسبابَ الحقيقية التي ولَّدت لديه الإحساس بالذنب، ويمكنه على هذا النحو التخلُّص من هذا الإحساس وقبول الممارسة الجنسيَّة على نحو طبيعي.

ولعل الآباء والأمهات يدركون الآن أن الحب الذي يُعْطَى للطفل كالدواء له جرعة معينة إن زادت قد تُمرِض الطفل وقد تقتله، وكم من أمهاتٍ يقتلن أطفالهن بذلك التعلق والحب الشديد. وهذه ظاهرة منتشرة في أسرِ الطبقات المستريحة اقتصاديًّا، حيث تكون الأمهات عاطلاتٍ بغير عمل داخل البيت أو خارجه (الخدم يقومون بأعمال البيت، والتقاليد أو عدم إكمال التعليم يمنعها من العمل خارج البيت)، هؤلاء الأمهات العاطلات لا يجدن أمامهن من عملٍ سوى الالتصاق الشديد بأطفالهن والعناية الشديدة بهم، متصوِّرات أن هذا الحب وهذه العناية هما قمَّة الأمومة المثالية المؤدية لواجباتها كاملًا، غير مدركات أنهن يفسدن حياةَ أطفالهن في المستقبل، وأنهن أيضًا يملأن الفراغ الضخم داخلهن، الذي كان يجب أن يُمْلأَ بعملٍ خلاق منتج في المجتمع الكبير.

نفهم بعد هذا أن حياةَ الأطفال والرِّجال النَّفْسية والعاطفية والجنسيَّة تُفسَد وتُشَوَّه بسبب فراغ الأمهات في البيوت، وبسبب تضخيم المجتمع الذُّكوري وتمجيده الشديد لدور الأم وعلاقتها بأطفالها، وجعل تربية الأطفال وحبهم مهمةَ الأم الأساسية والوحيدة (لتظل في البيت)، واختفاء دور الأب في تربية الأطفال وحبهم. وقد نشأ هذا الوضع بسبب

القيم القديمة التي ارتكزت عليها الحضارة التي نعيشها والتي تشكِّل الأسرةُ الأبوية نواتَها الأساسية، وما تبِع ذلك من تقسيم العمل بين الرِّجال والنِّساء.

ولعل هذا هو السَّبب في أن بعض العلماء أصبحوا يصِفون هذه الحضارة بأنها عرجاء، أو أنها تمشي على ساق واحدة؛ لأنها أحدثت خللًا في التوازن بين العلاقات الإنسانية جميعًا، في الحب والجنس والصداقة والعمل والسياسة والفن. وقد تصوَّر الرَّجل خطأً أن سعادة أسرته الأبوية واستمرارها إنما ترتكز على قهر النِّساء نفسيًّا وجنسيًّا واقتصاديًّا ليصبح الرَّجل هو المسيطر والحاكم والمرأة هي الخاضعة المحكومة. وقد نجح الرَّجل في قهر المرأة وتشويه حياتها النَّفْسية والجنسيَّة والفكرية، لكنه لم يدرك أنه بمثلِ ما شوَّه حياة النِّساء فقد شوه حياةَ الرِّجال أيضًا النَّفْسية والجنسيَّة والفكرية، وأنه لم يفقد السعادةَ داخل أسرته الأبوية فحسب، ولكنه سبَّب التعاسة في المجتمع البشري كله الذي أصبح قائمًا على قهر الكبير للصغير، والقوي للضعيف، والغني للفقير، والسيد للأجير، وأصبحت العلاقة بين الأفراد وبين الدول قائمةً على التنافس والاستغلال والحرب والقتل والعنف الذي هو أهم السمات البارزة في هذه الحضارة.

لقد بدأ العلماء الناضجون (من الرِّجال والنِّساء) ينتبهون إلى المضار النَّفْسية والفكرية والاجتماعية التي نتجت عن تقسيم العمل حسب كون الشخص ذكرًا أو أنثى. وأصبح معروفًا الآن أن وظيفة النِّساء في الحياة لا يمكن أن تكون الزواج والأمومة فقط، وأن قصر وظيفة الزواج والأمومة على المرأة أحدث خللًا في علاقة الأم بأطفالها، وفي علاقة الأب بالأم، وفي جميع العلاقات الإنسانيَّة داخل الأسرة وفي المجتمع الكبير.

وقد خرجَت في السنين الأخيرة أعدادٌ كبيرة من النِّساء إلى العمل خارج البيت والمساهمة في الإنتاج والخلق الفكري، ونحن نتوقَّع أن يتلاشى بالتدريج في نفوس الصغار والكبار الآثار النَّفْسية والانحرافات التي نتجت عن العلاقة الوثيقة بين الأطفال الذُّكور وأمهاتهم المتفرغات للأمومة فحسب.

وقد أوضحت البحوث النَّفْسية الحديثة[١] أن أطفال الأمهات العاملات (خارج البيت) أكثرُ استقلالًا وأسرع نموًّا من الناحية النَّفْسية والجنسيَّة والاجتماعية من أطفال الأمهات المتفرغات بالبيوت.

[١] انظر الجزأين الأول والثاني من «المرأة والجنس»، في هذا الكتاب.

الرَّجُل والسادية

أشيع أنَّ الرَّجل يميل إلى «السادية» في الجنس، وأنَّ المرأة تميل إلى «الماسوشية». «والسادية» اصطلاحٌ عُرف في علم النَّفس على أنَّه نوعٌ من الانحراف الجنسي بسبب أنَّ اللَّذة الجنسيَّة لا تحدُث إلا بعد إحداث ألم بالشخص الآخر. «والماسوشية» هي أن تحدُث اللَّذة بعد استقبال الألم الذي يحدِثه الشخص الآخر. وقد اتجه علم النَّفس أخيرًا إلى ضم الاصطلاحين في كلمة واحدة هي «السادوماشية»، حيث لوحظ أنَّ الشخص الذي يجد لذةً في إحداث الألم يجد لذةً بالمثل في استقبال الألم، وأن الإنسان «السادي» يصبح «ماسوشيًّا» أيضًا، والعكس صحيح.

وقد يتغلَّب العنصر السادي داخل الشخص أحيانًا أكثرَ من العنصر الماسوشي (أو العكس)، على أنه وُجِد أن الذي يُظهِر ميولًا سادية يشعر أيضًا بميولٍ ماسوشية.

وقد جاءت كلمة «السَّادية» من اسم الماركيز «دي ساد» الذي عُرِف في التَّاريخ بميله الشديد إلى العدوان والسَّيطرة وإحداث الألم بالآخرين. أمَّا كلمة «الماسوشية» فقد جاءت من اسم رجل آخر هو «ساشر ماسوش» الذي عُرِف بميله إلى استقبال الألم والخضوع للآخرين. لكن الذين درسوا شخصيةَ هذين الرَّجلين وجدوا أنَّ الماركيز «دي ساد» كان يجد لذةً في أن تضربه المرأة أحيانًا، وأن «ساشر ماسوش» كان يتحوَّل في بعض الأحيان إلى رجلٍ عدواني شديد القسوة.

وقد خلَّف هذان الرَّجلان من بعدهما كتاباتٍ كثيرةً عرف منها النَّاس عنهما انحرافاتٍ جنسية أخرى، منها أن الماركيز «دي ساد» كان يجد لذةً في الاتصال الجنسي بالحيوانات، وأن «ساشر ماسوش» كان يثيره فِراء المرأة أكثرَ من المرأة ذاتها.

وجد «كينزي» وزملاؤه في بحثهم المعروف أن أفلام الجنس وغيرها من التجارة الجنسيَّة المتفشية في المجتمع الأمريكي (حيث عمل البحث) تقوم أكثرَ ما تقوم على العنف

وإثارة النَّاس جنسيًّا عن هذا الطريق؛ ولذلك انتشرت السادية والماسوشية عند معظم النَّاس، وأصبح من النادر أن يتحرَّر منها رجل أو امرأة. وينطبق هذا الكلام على معظم المجتمعات المتشابهة والمتأثرة بالمجتمع الأمريكي والأوروبي. ولا شك أن مجتمعنا العربي أحدُ هذه المجتمعات، والأفلام الأمريكية الجنسيَّة ترِد إلينا بسرعة الصاروخ، ويشاهد الرِّجال والنِّساء والأطفال حلقات التلفزيون القائمة على الجنس والجريمة أو الجريمة الجنسيَّة أو الجنس المجرَّم، وكلها ألوان من العنف والبطش والإثم والإيلام التي تشعل خيال الرِّجال والنِّساء والأطفال بالصور السادية والماسوشية للجنس.

وعلى هذا يمكنني أن أقول إننا جميعًا قد أُصِبْنا بدرجات متفاوتة من السادية والماسوشية، هذا بالإضافة إلى العوامل التَّاريخية والاجتماعية والنَّفْسية التي ورِثناها عن أجدادنا القدامى والتي جعلت الاغتصاب الجنسي مبعثًا للذة عند كثير من الرِّجال والنِّساء.

وتشير المصادر التَّاريخية إلى أن الاغتصاب الجسدي للمرأة كان مصاحبًا للاغتصاب الاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي الذي أوقعه الرَّجل بالمرأة. إن الذي يدرس قانون الزواج في معظم أنحاء عالمنا يدرك أن عَقد الزواج هو عَقد اقتصادي وجنسي في وقت واحد قائم على اغتصاب الرَّجل لحقوق المرأة الجنسيَّة والاقتصادية معًا.

ولم يكن لهذه الحضارة الذُّكورية أن تقوم وتستمر وتزدهر لولا عَقد الاغتصاب هذا، وقد بنى الرَّجل اغتصابه على فكرةٍ من دعامتين:

(١) الأقوى هو المالك.
(٢) الرَّجل هو المالك.

ولم يكن في وسع الرَّجل أن يحافظ على وضعه من حيث القوة ومن حيث المِلكية إلا بالعنف والعدوان. ولم يكن للأسرة الأبوية أن تستمرَّ وتزدهر إلا بالعنف والعدوان، ولم يكن للحضارة أن تستمر وتزدهر بغير العنف والعدوان، وإلا فكيف يحكم الرِّجال النِّساءَ، وكيف تحكم الأقلية (التي تملك) الأكثريةَ التي لا تملك؟!

إن العنف هو السلاح الوحيد لمن لا يملك قوةَ الإقناع العقلي. ولا يمكن لأي عقل أن يقتنع أن الزوج (وإن كان أغبى الأغبياء) هو الوصي على زوجته (وإن كانت أذكى الأذكياء).

العنف أو العدوان إذن ليس إلا إحدى الظواهر التي ولدتها هذه الحضارة القائمة على دعامتين غير إنسانيتين. العنف هو وسيلة غير إنسانيَّة للحُكم والإخضاع، لكنه الوسيلة الممكنة في مجتمعٍ قائم على الاستغلال واغتصاب الحق من صاحبه.

والاغتصاب قد يكون اقتصاديًّا حينما اغتصب الإقطاعيون والرأسماليون جهودَ الطبقات الأدنى والعبيد. وقد يكون الاغتصاب اقتصاديًّا وجسديًّا كما حدث حين امتلك الرَّجل جسدَ المرأة بقانون الزواج، وحين حرَّم عليها العمل والاستقلال الاقتصادي.

وقد لوحظ أن الرَّجل يميل إلى العنف والسادية مع مَن هم أقلُّ منه درجة أو طبقة، ولكنه يعامل مَن هو أعلى منه برقةٍ وأدب؛ فالرَّجل يرفع صوته على مرءوسه أو خادمه، لكنه يخفض صوته حين يتكلم مع رئيسه. والرَّجل قد يصفع زوجته في لحظة غضب لكنه لا يستطيع أن يصفع زميلته في العمل أو رئيسته إذا كانت امرأة.

وتتغيَّر معاملة الرَّجل للمرأة جنسيًّا حسب وضْع هذه المرأة في المجتمع. ولا شك أن وضْعَ المومس الاجتماعيَّ أقلُّ من وضع الزوجة؛ ولذلك يمارس الرَّجل ساديته أو ماسوشيته مع المومس بحريةٍ أكثرَ مما يمارسها مع زوجته.

لقد قابلت عددًا من المومسات في سجن القناطر (المتهمات بالدعارة)، ودرست حياةَ بعضٍ منهن دراسةً مستفيضة. قالت لي إحداهن إن أحد الرِّجال كان يحمل معه في كل زيارة سوطًا (كرباج) لتضربه به ضربًا مبرِّحًا قبل أن يصيب عضوه الجنسي شيئًا من الانتصاب. وقد صرَّح لها هذا الرَّجل أنه لا يستطيع أن يطلب من زوجته أن تضربه، وإلا استغلت فيه هذه الناحية وأصبحت هي المسيطرة وليس هو، وأنه لا يستطيع أن يحقِّق رغبته الجنسيَّة الماسوشية هذه إلا مع المومسات. وامرأة أخرى قالت إن بعض الرِّجال كانوا يضربونها قبل الاتصال بها، وإن هؤلاء الرِّجال كانوا يتحرَّجون من ضربِ زوجاتهم، إما لأن الزوجة من طبقةٍ أعلى منه ويخشى أهلها، وإما لأنه رجل مثقف ولا يريد أن يهبط من نظر زوجته.

على أننا نعرف أنه ما زال عندنا كثير من الأزواج الذين يضربون زوجاتهم، والذين يتوقون إلى أن تضربهم الزوجات بالمثل، لكن الواحد منهم يكبت هذه الرغبة خشيةَ أن يقول عنه النَّاس إنه زوج تضربه زوجته، والأفضل له أن يشاع العكس. وهو في النهاية يستطيع أن يذهب إلى مومس ويدفع لها من ماله نظير أن تضربه.

لا شك أنَّ نضْج شخصية الرَّجل (من حيث الثقة بالنفس واتحاد الجسد بالنفس والتخلُّص من عقدة الذنب) تحرِّر الرَّجل من بقايا السادية والماسوشية التي ورِثها من الظروف التي أحاطت به في الأسرة والمجتمع. على أن هناك بعضَ علماء الجنس الذين يقولون إنَّ جذور المشاعر الإنسانيَّة مترابطة، وإن مشاعر اللذة ليست بعيدةً عن مشاعر الألم بهذا القدْر الذي يتصوَّره النَّاس. وقد وجد هؤلاء العلماء — وأحدهم كينزي — أن

سلوك الإنسان الذي يشعر بقمَّة اللذة الجنسيَّة يشبه إلى حدٍّ كبير سلوكَ الإنسان الذي يعاني قمَّة الألم. وقد كتب كينزي يقول: «إن الشخص (رجلًا كان أو امرأة) الذي يشعر بقمَّة اللذة الجنسيَّة يحرِّك جسدَه بعنف، تنقبض عضلاته بقوة مستمرة شديدة، فيصبح ظهره مقوَّسًا، ويلتوي رأسه وعنقه، وتندفع ذراعاه وساقاه إلى الخارج، يتمتم بكلماتٍ ويئن، يتوجَّع أو يصرخ على نحوٍ يشبه حالةَ شخص يعاني من قمة الألم والعذاب.»

وقد حاول بعضُ العلماء — منهم فرويد — دراسةَ حياة الأطفال النَّفْسية والجنسيَّة من أجل تفسير ظاهرة السادية. لاحظ فرويد مثلًا أن الطفل الذي يشهد العملية الجنسيَّة بين أبيه وأمه كان يميل إلى الاعتقاد بأنها اعتداءٌ من الرَّجل على المرأة. إن مثل هذا التلاحم العنيف بين جسدين يرتبط في عقل الطفل بالعدوان والإيلام؛ لأنه كطفل لم يعرف من خبرته القليلة في الحياة هذا النوعَ من التلاحم الجسدي، وكلُّ ما يعرفه أن الأجسام حين تتلاحم بهذه القوة العنيفة فإنها لا تسبِّب إلا الألم، ولا شكَّ أن العملية الجنسيَّة في حياة الإنسان هي الحالة الوحيدة التي يتلاحم فيها الجسدان بعنف وقوة دون أن يؤلم أحدهما الآخر. ومن عادة الإنسان أن يفسِّر غير المألوف بما هو مألوف. إن بعض الأطفال الذين يكتشفون أن ضرب زملائهم أو ربطهم بالحبال مثلًا يسبِّب لهم إثارةً جنسية يستبدلون بهذه العملية المألوفة عمليةً أخرى غير مألوفة.

إنَّ مثل هذه النزعات السادية مثل الضرب أو الربط بالحبال أو إحداث الألم تستمر لاصقة بهؤلاء الأطفال الذين يعجزون (بسبب الإحساس بالذنب وعقدة النقص وغيرهما) أن ينضجوا وأن يكتسبوا القدرةَ على الحب الناضج المتبادل، وعلى هذا يستمرون بأحاسيسهم الطفولية الأولى ويبقى الضرب أو فكرة الإيلام ماثلةً في أذهانهم تحمل شحنة اللذة نفسها التي يشعر بها الشخص الناضج من علاقة الجنس الطبيعية بغير إيلام أو إيذاء.

وقد لوحظ أيضًا أنَّ بعض الرِّجال من ذوي الميول السادماسوشية يحاولون — عن طريق الإيلام — الوصولَ إلى لذَّةٍ عنيفة لها صورة معينة في خيالهم لا يصلون إليها من خلال علاقة حبٍّ بغير إيلام. إنَّ علاقة الحب لدى هؤلاء أرقُّ وأسمى من أن تُهزمَ جنسيًّا؛ ولذلك كثيرًا ما نلاحظ التناقض الذي يعيش فيه الرَّجل من هؤلاء. إنَّه قد يكون أكثرَ من غيره حرصًا على عدم إيلام زوجته أو حبيبته، ويدفعه هذا الحرص إلى أن يكون أقلَّ إيجابية في الجنس من الرَّجل الطبيعي، لكنه يحاول عن طريق خيالاته السادية الماسوشية أو علاقته السادية الماسوشية بالمومسات أن يعوِّض عن هذا الحرمان الذي يعيشه في ظل الزواج أو الحب.

وبهذا نعود إلى الأسباب التي تجعل الرَّجل يفصل بين الحب والجنس، وبين الجسد والنفس، والأسباب التي ترسِّب عنده الإحساسَ بالذنب وعُقَد النقص، وهي أسبابٌ معظمها اجتماعية وتاريخية.

إن معظم النَّاس رجالًا ونساءً يشعرون من حين إلى حين برغباتٍ سادية ماسوشية، ولا يمكن أن يدَّعي أيُّ زوجين أنهما لم يمارسا معًا أيَّ لعبة من تلك اللُّعب السادية الماسوشية، كأن يشدَّ الرَّجل شعر المرأة، أو يتظاهر بأنه سيضغط عليها حتى الموت، وهذه المرأة التي تدَّعي أنها تتألم، أو أن قبضة الرَّجل قد هشَّمت عظامها إلى غير ذلك من اللُّعب التي يتفنن فيها الأزواج والزوجات كتمهيد للعملية الجنسيَّة أو كوسيلة لرفع درجة الإثارة أو الرغبة.

على أن هذه المداعبات والملاعبات الجنسيَّة، وإن كانت تُدْرَج تحت السادية والماسوشية، إلا أنها بعيدة كل البعد عن أفعال المركيز دي ساد وأمثاله القساة الذين يضربون ويسيحون الدم، أو «ساشر ماسوش» وأمثاله الذين عشقوا الذل والمهانة ولسع الكرباج.

ويمكن القول: إن نضج الشخصية يحرِّر الإنسان من الرغبات السادية الماسوشية، كلما زاد النضج ضعُفت هذه الرغبات أو تلاشت. والنضج هو قدرة الرَّجل (أو المرأة) على الحب بمعناه الحقيقي من حيث التبادل القائم على التساوي، أن يشعر الرَّجل أن المرأة مساوية له، وأن تشعر المرأة أن الرَّجل مساوٍ لها، وأن يشعر الرَّجل أنه يحب بكل كيانه جسدًا ونفسًا بغير انفصام بينهما وبغير إحساس بالنقص أو الذنب، وأن تشعر المرأة أنها تحب بكل كيانها جسدًا ونفسًا بغير انفصام بينهما وبغير إحساس بالنقص والذنب. فهل يمكن أن تحدث مثل هذه العلاقة المتساوية بين الرَّجل والمرأة في ظل الحضارة القائمة على سلطة الرَّجل وخضوع المرأة؟

إنَّ الأمر يستدعي كفاحًا شاقًّا مستمرًّا من جانب الرَّجل والمرأة على حدٍّ سواء للوصول معًا إلى النضج المنشود الذي هو أمرٌ نادر فعلًا. إن هؤلاء الذين تساعدهم ظروفهم الاجتماعية والنَّفْسية للوصول إلى هذا النضج يكتشفون سعادةً لم تعرفها الأغلبية من الرِّجال والنِّساء.

إنَّ السيطرة يقابلها الخضوع، وإنَّ الحرية تقابلها العبودية، وإن الحُكم الاستبدادي المطلق يقابله الخضوع الذليل المطلق. هذه هي الأضداد التي تصنع الأساس الذي تقوم عليه السادية والماسوشية، والتي يكون فيها الألم شيئًا ثانويًّا، ومن أجل أن نفهم هذا لا بدَّ لنا من تتبُّع حياة الطفل وكيف تنمو داخله تلك النزعةُ المسمَّاة بالنزعة العدوانية.

وقد اختلفت آراء علماء النفس والجنس حول منشأ هذه النزعة العدوانية في الإنسان. ويميل العلماء من ذوي النظرة الجزئية إلى الحياة البشرية إلى اعتبار أن العدوان غريزةٌ طبيعية في الرَّجل. وقد كان فرويد أحدَ هؤلاء العلماء الذين قالوا إن العدوان غريزةٌ نابعة من داخل الإنسان. وقد ميَّز فرويد بين نوعين من الغرائز؛ النوع الأول ينشد المحافظة على النوع وهو الغريزة الجنسيَّة، والنوع الثاني متعلِّق بالمحافظة على الفرد ذاته أي غريزة «الأنا». وبعد دراساتٍ للصراعات بين هذه الغرائز سَمَّى فرويد الغريزةَ الأولى بغريزة الحياة Erose، والثانية بغريزة التدمير أو الموت Thanatos.

وقد شرح فرويد السادية والماسوشية على أنهما امتزاجُ الغريزة الجنسيَّة وغريزة التدمير. ورأى فرويد أن جميع الدوافع الغريزية تنبع من امتزاج هاتين الغريزتين بدرجات مختلفة، فالماسوشية هي الميل إلى تدمير الذات، والسادية هي الميل إلى تدمير الآخر أو العدوان. ومن هذا المعنى يقول فرويد إن غريزة العدوان في كل شخص، وإنها إن لم توجَّه إلى العالم الخارجي فسوف توجَّه إلى الداخل لتحطيم الذات. أي إن الشخص من أجل أن يحميَ نفسه من التدمير الذاتي فلا بد له من تدمير أشخاص آخرين أو أشياء أخرى.

وقد عبَّر فرويد عن هذا الرأي بوضوح حين كتب إلى أينشتاين يقول له: «إن الحرب ليست إلا تحويلًا لغريزة التدمير، وذلك بتوجيهها نحو العالم الخارجي.»

ولا يختلف عن هذا الرأي العلماء الذين يقولون إن العدوان ينبع من بعض خلايا المخ، وهي أفكار تدل على تجاهل هؤلاء العلماء — ومنهم فرويد — للعوامل الاجتماعية والبيئية والتربوية التي تلعب الدورَ الأكبر في تشكيل الشخصية العدوانية.

إنَّ إرجاع العدوان والحروب في العالم إلى خلايا المخ أو غريزة التدمير في كل إنسان معناه أن هذه الحروب ضرورةٌ بيولوجية، ولا يمكن للإنسان أن يعالجها أو يتحكم فيها إلا باستئصال بعض خلايا المخ، وهذا تبرير للحروب ولكل أنواع التعذيب الوحشي الذي تُحْدِثه الأنظمة الاستبدادية والاستغلالية بالنَّاس.

وقد رفض كثيرٌ من العلماء هذا التبرير البيولوجي للحرب، أو إرجاع أسباب الحرب إلى الطبيعة البشرية؛ لأن هذا التبرير يصرف أذهان النَّاس عن النُّظم الاجتماعية والاقتصادية التي تسبِّب الحروب، كما أنه يعني أن الحرب لا بدَّ وأن تظل ملازِمة للإنسان كجسده؛ ذلك أنها جزءٌ من الطبيعة البشرية الثابتة.

إن النظرية العلمية الحديثة في تطوُّر المجتمعات الإنسانيَّة وعلاقتها بفكرة الطبيعة البشرية تنكر وجودَ ما يسمى بالطبيعة البشرية الثابتة أو الدائمة، وإنما الطبائع البشرية

هي ظواهر نسبية تتغيَّر وتتكيَّف حسب البيئة التي نعيش فيها، وقد أصبح معظم العلماء الآن لا يحبِّذون اصطلاح «الغرائز البشرية»، ويفضِّلون عليه اصطلاح «الدوافع البشرية» التي يتعلَّم الإنسان معظمها خلال سنوات الطفولة.

إن نزعة العدوان التي عُرِفَت بين الرِّجال ليست غريزةً أو طبيعةً أصلية ثابتة وملازِمَة لذكورة الرَّجل، ولكنها ظاهرة زمنية وحضارية وتاريخية تلعب فيها العوامل البيئية والتربوية الدورَ الأكبر، بل إن بعض العلماء أثبتوا أنه في الحيوانات أيضًا لا يوجد شيء اسمه طبيعة ثابتة ودائمة، ولكن هناك صفات تتغيَّر دائمًا حسب التربية والتعليم.

بعض هذه التجارب قام بها أحدُ علماء النفس الأمريكيين، اسمه «كيو»، على عدد من القطط ليرى ما إذا كان عداء القطط للفئران صفة طبيعية في القطط أم صفة مكتسبة، أخذ الباحث مجموعاتٍ من القطط الوليدة[1] وعرَّضها لظروف مختلفة، فصل بعضها عن الأم وعن البيئة الخارجية وعزلها في جوٍّ بعيد عن الفئران، أو جعلها تعيش مع أمهاتها من القطط. وفي نهاية التجربة وجد أن المجموعات التي رُبِّيَت مع أمها بالطريقة المألوفة وفي البيئة المألوفة اعتبرت الفئران طعامًا لها وراحت تأكلها، أما المجموعات التي عُزِلَت فلم تُظهِر أيَّ عداء للفئران ولم تعتبر الفأر طعامها.

وخرج «كيو» وغيره من العلماء الذين أجرَوا مثل هذه التجارب بأن الصفات التي نعتبرها طبيعيةً ليست إلا صفات مكتسبة من الظروف.

ويدل على ذلك أيضًا أننا في معظم المجتمعات نعتبر أن الصفة الطبيعية للرجل هي السيطرة والقوة، وأن الصفة الطبيعية للمرأة هي الخضوع والضَّعف. ولكن هناك قبائل في أفريقيا وآسيا تخالف ذلك. في قبيلة «أرابيش» في غينيا الجديدة، وهي منطقة جبلية، وُجِد أن الرِّجال والنِّساء جميعًا لهم صفاتٌ مما نسميها أنثوية. إنهم لا يميلون إلى السيطرة أو التنافس أو العدوان، وإنما ترتكز علاقتهم على تبادل الثقة والتعاون والحب، وهم لا يفرِّقون مثل ما نفرِّق بين الرَّجل والمرأة أو بين الكبار والأطفال، ويقترب مجتمعهم من المجتمع المثالي بغير طبقات، بل إن لِعِبَ الأطفال عندهم لا يقوم على التنافس أو التقاتل، كما يحدث عندنا. وقد سمَّى بعض العلماء قبيلةَ أرابيش بأنها أسرةٌ واحدة كبيرة وسعيدة.

وعلى عكس الأرابيش نجد قبيلة «موندو جومر» في غينيا الجديدة أيضًا. هناك يتَّصف الرِّجال والنِّساء جميعًا بالصفات التي نطلق عليها صفات ذكورية. إنهم يميلون إلى العنف

[1] انظر: K. J. Eysenck, Uses and Abuses of Psychology. Pelican: 1962. p. 179.

والعدوان والسيطرة والتقاتل لأي سبب تافه. يبدأ الطفل حياته هناك في جوٍّ تشيع فيه الكراهية والعدوان وهو يتعرَّض للضرب من الكبار وأحيانًا للقتل، وفي قبيلة «تشامبولي» نجد أن المرأة هي القوية المسيطرة والرَّجل هو الطرف الخاضع الأضعف. إنَّ المرأة هناك هي التي تختار الرَّجل، والعلاقات بين النِّساء سهلة وسوية وقائمة على الثقة والعمل والجهد، أما العلاقات بين الرِّجال فهي متعثرة، قائمة على الشك والريبة والنميمة، ويعتمد الرِّجال على النِّساء في حياتهم الاقتصادية والجنسيَّة والاجتماعية؛ ولذلك يتصفون بالضَّعف والخجل وعدم الاستقلال. المرأة هي التي تكدُّ وتعمل، أما الرِّجال فهم يرقصون أو يغزلون أو ينشغلون ببعض الفنون مثل الرسم والغناء. وقد رأيت في جنوب الهند قبائلَ من هذا النوع يعيشون في المناطق الجبلية حيث يُزرع الشاي والبطاطس، وتعمل النِّساء في الحقول وداخل البيوت، ولا يفعل الرَّجل شيئًا إلا الإشراف على المعبد والزينة والرقص في الحفلات الدِّينية. وقد رأيت يدَ الرَّجل منهم ناعمةَ الأصابع وصغيرة، أما يد زوجته فهي كبيرة وغليظة خشنة.

وهناك كثير من الأدلة الأخرى التي لا يمكن حصرُها والتي تدل على أن الصفات التي نطلق عليها الصفات الطبيعية للذكر أو للأنثى ليست إلا صفات مكتسبة من المجتمع والبيئة والتربية، وأن العلاقة بين الجنسين ليس لها نمطٌ واحد أزلي، وأن الأخلاق الجنسيَّة تتغير وتتبدل حسب النُّظم الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع. أوضحت إحدى الدراسات الجديدة للبوشيمان (Bochimans) بصحراء كالاهاري (Kalahari) العلاقة بين الضرورة الاقتصادية والأخلاق الجنسيَّة. هؤلاء البوشيمان يعيشون في مجموعاتٍ أسرية صغيرة حول آبار مياه جديدة قليلة لا تكاد تكفي السكان؛ ولهذا فإن قانونهم الجنسي غاية في القسوة، والاختلاط بين الجنسين ممنوع منعًا باتًّا، والسَّبب في ذلك أنهم لا يريدون مزيدًا من الأطفال، وهم يقتلون الطفل الثاني في أحيان كثيرة.[٢]

إنَّ الصِّفات الجنسيَّة لدى الإنسان تتشكَّل (كأي صفاتٍ أخرى) حسب المجتمع والبيئة والظروف والتَّربية، وقد افترض العلماء أنَّ الصِّفة الطَّبيعيَّة هي الصِّفة الشَّائعة في المجتمع أو الصِّفة الموجودة عند الأكثرية من الأفراد. وهذا افتراضٌ غير صحيح؛ لأنَّ هناك مجتمعات مثل المجتمع المصري والسوداني مثلًا التي تفرض البرود الجنسي على الأغلبية من البنات

---

[٢] انظر: Elizabeth Thomas. The Harmless People. Secher and: Warburg. 1959.

والنِّساء، وذلك بقطع بظورهن في عملية الختان الشائعة، فهل يمكن أن نقول إن الصفة الطبيعية للمرأة المصرية هي البرود الجنسي لمجرد أن الأغلبية من النِّساء باردات جنسيًّا؟! وقد اكتشف كينزي في بحثه أن أكثر من ٣٠٪ من الرِّجال الأمريكيين قد مارسوا الشذوذ الجنسي في فترةٍ ما من الفترات، وهذه نسبة عالية قد تصدم عددًا كبيرًا من النَّاس الذين يؤمنون بالطبيعة الثابتة.

وهناك أيضًا أمثلة أخرى من بحث كينزي الذي أجراه في منتصف هذا القرن على النِّساء والرِّجال الأمريكيين. وقد كان كينزي مهتمًّا بالسلوك الجنسي عند الإنسان، واكتشف كينزي أن النشاط الجنسي عند الإنسان، الذي يقود إلى الأورجازم، ينقسم إلى ستة أنواع رئيسية.

(١) إثارة الشخص لنفسه (العادة السرية أو الإشباع الذاتي).
(٢) الاحتلام أثناء النوم حتى الأورجازم.
(٣) مداعبات جنسية سطحية بين الجنسين حتى الأورجازم دون ممارسة العملية الجنسيَّة الكاملة.
(٤) العملية الجنسيَّة الكاملة بين الجنسين.
(٥) الجنسيَّة المثلية أو ممارسة الجنس مع الجنس نفسه (الشذوذ الجنسي).
(٦) الاتصال الجنسي بالحيوانات وفصائل أخرى.

وقد حاول كينزي أن يدرس الأنشطة الجنسيَّة المختلفة للنساء والرِّجال من مختلف الطبقات داخل المجتمع الأمريكي ومن مختلف الثقافات، وقد اتضح له أن النشاط الجنسي يختلف من طبقةٍ إلى طبقة، ومن شخص إلى شخص حسب درجة الثقافة ونوعها. ومن مكانٍ إلى مكان حسب نوع البيئة التي يعيشها الإنسان.

وبعد أن تفقَّد كينزي نتائجَ بحثه كتب يقول: «إن النتائج والأرقام التي خرجت بها من البحث تكشف عن اختلافاتٍ شديدة في الأنشطة الجنسيَّة بين الطبقات المختلفة التي تعيش في مدينة واحدة أو في حي واحد من المدينة، إن هذه الاختلافات لا تقل عن الاختلافات التي اكتشفها علماء الأنثروبولوجيا بين مختلف الأجناس في أقصى الأماكن في العالم.»

ومن أهم الاختلافات التي خرج بها كينزي هي تلك التي تتعلَّق بالعادة السرية بين مختلف المجموعات. لقد وجد أن ٩٠٪ من طلبة الجامعة يمارسون العادة السرية والاحتلام والمداعبات الجنسيَّة السطحية مع الجنس الآخر، وأن ١٠٪ فقط لهم اتصال جنسي كامل

بالبنات أو النِّساء. لكن بين الشباب من الطبقات الأقل الذين لم يدخلوا الجامعة فإن ٦٧٪ منهم يمارسون الاتصال الجنسي الكامل بالمرأة كنشاطهم الجنسي الأساسي. وتختلف أيضًا نظرة النَّاس إلى النشاط الجنسي حسب طبقتهم الاجتماعية ودرجة ثقافتهم. في مجتمعنا المصري ينظر أفراد الطبقة العاملة وذوو الدخل المحدود إلى العادة السرية كانحراف جنسي يقود إلى الجنون أو العمى وأنها حرام ومخالفة للدين. وهو موقف يشبه موقف النَّاس في المجتمعات البدائية جدًّا. في الطبقات المتوسطة المتعلمة يُنظَر إلى الشاب الذي يمارس العادة السرية على أنه أفضل خُلقًا من الذي يمارس العملية الكاملة مع الجنس الآخر؛ ولذلك تنتشر العادة السرية في الأسر المتوسطة وبين المتعلمين عنها بين أفراد الطبقة العاملة. وفي الطبقات الكادحة والعاملة والأرياف تنتشر العلاقات الجنسيَّة بين الجنسين وخارج الزواج، حيث إن القيم الأخلاقية أقل تزمتًا من الطبقة المتوسطة. لقد وُجِد أنه كلما تأزَّمت الحالة الاقتصادية لمجموعةٍ من النَّاس قلَّ تمسُّكهم بالقيم الأخلاقية السائدة، وأصبحت الأولوية لسدِّ الحاجات الاقتصادية. إن الآباء في الأسر الفقيرة قد يبيعون بناتهم بالزواج وبغير الزواج من أجل سد الرَّمق.

تدل المصادر التَّاريخية على أنَّ القيم الأخلاقية لم تثبت على حال؛ فهي تتغير من عهد إلى عهد، ومن طبقة إلى طبقة، وهي ترتبط بالظروف الاقتصادية أساسًا؛ أي بالملكية والتوريث. في الطبقات الثرية ذات الأملاك، لا خوف على العلاقات الجنسيَّة إلا من حيث تأثيرها على الميراث، أين يذهب: إلى طفلٍ من صلب الرَّجل أم إلى طفل رجل آخر؟ إن الرَّجل في مثل هذه الطبقة الثرية لا يهمه أن تذهب زوجته إلى رجلٍ آخرَ بشرط ألا يكون هناك أطفال من هذا الرَّجل. والزوج أيضًا يذهب إلى نساءٍ أخريات غير زوجته بشرطِ ألا يرث أطفاله غير الشرعيين أو أطفاله من الجواري والعشيقات. بمعنًى آخر فإنَّ الحرية الجنسيَّة مكفولة لهذه الطبقة بشرط ألا تمس هذه الحرية الثروة والميراث.

أما في الطبقة الفقيرة الكادحة فإن الجوع والفقر يجعل الرِّجال والنِّساء أكثرَ انشغالًا بإشباع حاجات غريزة الأكل وغريزة البقاء أكثرَ من انشغالهم بالأخلاقيات والقيم الآتية من السماء. إن معركتهم الأساسية لا تزال فوق الأرض، وليس لديهم من الفراغ أو الجهد ما يساعدهم على الارتخاء لحظةً، والتساؤل ما إذا كان ما يفعلونه يندرج تحت الخير أو الشر، أو الفضيلة أو الرذيلة. إن كلَّ ما يسدُّ رمقهم ويحفظ حياتهم من الموت جوعًا هو الفضيلة، وإن كان هو التفريط في الجسد. إن التفريط في الحياة أهم عندهم من التفريط في الجسد. وهم لا يفرِّقون كثيرًا بين حاجة الجسد إلى الطعام وحاجته إلى الجنس. إن حياتهم أقربُ إلى الطبيعة وإلى الصدق من تعقيدات الفلاسفة من الطبقة المتوسطة.

بل إنَّ القيم الأخلاقية في الطبقة المتوسطة ليست ذات طابع فلسفي أو فكري بحت. إنها ترتكز على القيم الاقتصادية أساسًا. فالرَّجل لا يعيبه شيء إلا جيبه، وما دام جيبه ممتلئًا بالفلوس فهو يتزوج مَن يشاء ويدفع المهر، ويغيِّر زوجاته كما يشاء ما دام قادرًا على الإنفاق على بيوته وزوجاته. والمرأة لا بدَّ لها أن تتزوج رجلًا واحدًا فقط حتى يرث الأطفال مالَ أبيهم بغير منازع من طفل غريب. والمرأة التي تخون زوجَها تُعاقَب بشدة؛ لأن مال الأب هنا مهدَّد بالذهاب إلى دم رجل غريب. أما إذا كانت المرأة ذاتَ مال أو حَسَبٍ فهي قد تسيطر على زوجها بمالِها وحسَبِها، وفي هذه الحالة يغمض زوجها عينيه عن خروجها ودخولها، وقد يشتمُّ الخيانة لكنه لا يفتح فمه؛ لأنها هي التي تنفق على البيت.

تحدَّث كثير من الصُّحف في القاهرة وخصوصًا في العامين ١٩٧٤م، و١٩٧٥م عن تلك الظاهرة التي أصبحت تنتشر، وهي أنَّ كثيرًا من الأسر التي تعاني من المشاكل الاقتصادية (بسبب الأزمة الاقتصادية الراهنة) قد أصبحت تتاجر في بناتها بعقود زواجٍ شبه رسمية للرجال من البلاد العربية الثرية.

وتحدَّث كثير من الصحف في القاهرة أيضًا عن ظاهرة العنف أو العدوان التي أصبحت منتشرة في المجتمع المصري هذا العام (١٩٧٥م)؛ حوادث خطف البنات والنِّساء، وحوادث الاغتصاب، وحوادث القتل والأمواس التي أصبح يحملها عددٌ متزايد من الشباب والرِّجال.

وفي إحدى الصحف[٣] ظهر برواز بالخط الأسود العريض تحت عنوان «اقتراح اليوم» يطلب: «إقامة نظام القاضي» الليلي «يُقدَّم إليه الذين يخطفون البنات أو يعتدون على رجال الأمن، أو يعتدون على النَّاس بالمطاوي فيحكم عليهم في نفس الليلة، هذا نظام موجود في بعض البلاد المتقدمة».

ولم تحاول الجريدة بالطبع أن تبحث عن أسبابِ هذه الظاهرة؛ لأنها كانت تتبنَّى في تلك السنين الأخيرة الأفكارَ الرأسمالية الاقتصادية وتساند الاتجاه الذي بدأ يقوى حينئذٍ في المجتمع المصري من أجل هدم بعض القواعد الاشتراكية في الاقتصاد المصري، هذه القواعد التي بدأت ثورة يوليو ١٩٥٢م في وضعها سنة ١٩٦٢م، والتي ما كانت تبدأ حتى تتعثر لأسبابٍ متعددة، أهمها ذلك الصراع الرهيب بين الأقلية التي تملك كلَّ شيء،

[٣] انظر جريدة الأخبار الصادرة بالقاهرة صباح يوم ٢٥ أغسطس ١٩٧٥م، الصفحة السادسة، في برواز خاص بعنوان «اقتراح اليوم».

والأغلبية الساحقة الكادحة التي حُرِمت كلَّ شيء حتى التنظيم السياسي الذي يمثِّلها حقيقةً ويجمعها على شكل قوة.

في هذه الفترة بالذات في السنتين الأخيرتين (١٩٧٤م، ١٩٧٥م) تأزَّمت الحياة الاقتصادية للأغلبية الساحقة من الشعب المصري، وأصبح الحصول على ضروريات الحياة كالسكر والأرز أو قطعة صابون مشكلةَ المشاكل للملايين من الكادحين والكادحات.

وبمثلِ ما يحدث في جميع المجتمعات وفي جميع الأزمنة، تبدأ الأزمة الاقتصادية أولًا ثم تتبعها أزماتٌ أخرى اجتماعية ونفسية وأخلاقية تتمخَّض عن ظواهرَ كالسرقة والاختلاس والرشوة (تكلَّمت الصحف عن هذه الظواهر التي انتشرت أخيرًا) والعنف والعدوان والإدمان، وانتشار بيع المخدِّرات وتعاطيها (وبالذات بين الطبقات الدنيا من النَّاس) كنوع من الهروب من المشاكل الاقتصادية اليومية التي يعجزون عن حلها ولا يجدون من وسيلةً للتنفيس عن عجزهم إلا رفض الواقع أو الهروب منه بالعقاقير المخدِّرة.

والذي يتابع الدراسات لمثل هذه الظواهر في العالم يكتشف الآتي:

(١) هذه الظواهر منتشرة في المجتمعات الخاضعة لنظمٍ رأسمالية متقدمة مثل أمريكا وبعض البلاد الأوروبية.

(٢) هذه الظواهر بدأت تنتشر في البلاد النامية التي تخضع للنظم الرأسمالية أو تربط نفسَها بها.

(٣) هذه الظواهر نادرةٌ في معظم المجتمعات الاشتراكية وفي بعض البلاد الرأسمالية التي تتبع بعضَ التعديلات الاشتراكية في نُظمِها الاقتصادية، بحيث تؤجِّل حدوث أزمة أو هوَّة بين أصحاب الأموال والعمال مثل المجتمعات الاسكندنافية شمال أوروبا والمجتمع الياباني والمجتمع الإنجليزي، إلا أن بعض هذه المجتمعات كثيرًا ما تواجه الأزمة أو التناقض الأساسي بين الرأسماليين والعمال، وتصبح في حاجة إلى مزيد من التعديلات الاشتراكية، أو التعرُّض لمشاكل التضخم والبطالة، ومن ثَم مشاكل العنف والجريمة والإدمان وانتشار المخدِّرات وغير ذلك من ظواهر.

والذي يدرس الظروف الاقتصادية التي يعيشها المجتمع المصري في السنين الأخيرة، وكيف ارتفعت الأسعار بشكل جنوني مع عدم زيادة الأجور، ونشاط تجار السوق السوداء والتهريب والسرقة والرشوة، ومئات الطوابير من الفقراء والكادحين الواقفين بالساعات أمام الجمعيات للحصول على علبة شاي أو قطعة صابون أو كيلو سكر، وكيف صاحبَ

ذلك هذه الظواهر من عنف وإجرام، وأيضًا كيف انتشرت المخدِّرات وبيع الحبوب المخدِّرة، ليدرك الارتباط بين العوامل الاقتصادية والظواهر المَرضية النَّفْسية والاجتماعية.

لكنَّ الربط بينهما يكشف عن الأسباب الحقيقية لهذه الظواهر، ومن ثَم الخطورة أو التهديد الذي يمكن أن تتعرَّض له الأقلية التي تملك وتسيطر.

وهذا هو السَّبب في أن الربط لا يحدث، والتفسير الحقيقي لهذه الظواهر لا يتم، وإنما نقرأ تفسيراتٍ تبعد الأذهانَ عن الأسباب الحقيقية، فيكتب البعض أن العنف أو العدوان ينبع من داخل المخ، وعلاجه هو علاج المخ بالكهرباء. أو يقول بعض الأطباء (غير الواعين بالعوامل الاقتصادية) إن الإدمان مرضٌ نفسي بسبب مرض خلايا المخ، والعلاج هو تسليط موجات الكهرباء على رأس المدمن.

وضمن هذه الاجتهادات أيضًا القول بأن العنف والعدوان يرجع إلى انتشار الحبوب المخدِّرة،[٤] أو أن انتشار المخدِّرات أدَّى إلى انتشار العدوان والجرائم، وهكذا … يدور النَّاس في فلك الظواهر في حلقةٍ مفرغة، وتنفصل الأسبابُ عن ظواهرها أو تنفصل المسبِّبات عن السببيات ويتوه العلاج بينهما.

وقد انتشرت المخدِّرات والمنبِّهات في العالم الرأسمالي في السنوات الأخيرة انتشارًا شديدًا بين الشباب إلى حدِّ أنها أصبحت تمثِّل خطرًا من أخطار الصحة النَّفْسية العامة. وخرج عدد من العلماء الذين درسوا مشاكل الإدمان بأن هذه الظاهرة ليست مرضًا في نفوس الشباب وعقولهم، ولكنها ظاهرة لمرض اجتماعي واقتصادي خطير جعل الشباب يؤمنون بفساد الحكام وفساد النظم والقوانين داخل الأسرة وفي المدارس وفي أماكن العمل.

وقد أصبح المجتمع الأمريكي بالذات (كأكبر مجتمع رأسمالي في العالم) مهددًا بثورات الشباب والنِّساء والزنوج، وأصبح الإدمان وإقبال الشباب من الجنسين على المخدرات والمنبهات إحدى مشكلاته الاجتماعية والرئيسية تليها مشكلة العنف والجرائم التي أصبحت تتم في النهار أيضًا.

وقد أوضحت الدراسات أن مثل هذه المشكلات الاجتماعية تنتج عن مشكلات اقتصادية بسبب ازدياد معدل التضخم (أكثر من ١٠٪ عام ١٩٧٤م)، وازدياد معدَّل البطالة (أكثر من ١٠٪ سنة ١٩٧٤م أيضًا)، وهذان المعدَّلان يكشفان عن أزمة الاقتصاد الرأسمالي القائم

[٤] انظر جريدة الجمهورية، ٢١ أغسطس ١٩٧٥م، الصفحة الخامسة، تحت عنوان: «الحبوب المخدِّرة وراء حوادث العنف الأخيرة». وجريدة الأهرام، ١٨ أغسطس ١٩٧٥م، الصفحة الثالثة.

على المِلكية الخاصة، الذي تنفجر أزمته من حين إلى حين بسبب اتساع الفجوة المستمرة بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج.

حينما زرتُ الولايات المتحدة في ديسمبر سنة ١٩٧٤م شهدتُ بعض مظاهر هذه الأزمة، كان التليفزيون في مدينة نيويورك لا يكف عن عَقد الندوات التي تبحث أزمةَ البطالة الشديدة التي حدثت هذا العام ونتج عنها إخراج العديد من الرِّجال والنِّساء من أعمالهم. وبالمثل كان علماء النفس يبحثون أسبابَ انتشار الجرائم. ولم يكن معظم العلماء ينتبهون إلى الأزمة الاقتصادية الراهنة التي أدَّت إلى صراعٍ حادٍّ بين العمال والرأسماليين ترتَّب عليه تضخُّم في الأسعار وبطالة بين العمال، ولكنهم كانوا يحاولون إثبات أن مركز العدوان في المخ. والسؤال الذي لم يتناولوه هو: لماذا ينشط هذا المركز في مجتمعاتٍ ويضعُف في مجتمعاتٍ أخرى؟ لماذا تتمتَّع بعض المجتمعات بالأمن والسلام والتعاون بين البشر، وتقوم بعض المجتمعات الأخرى على العنف والقتل والعدوان؟ لقد اشتهر المجتمع المصري مثلًا بأنه مسالِم لا يعشق الحرب، فهل معنى ذلك أن خلايا العدوان في أمخاخ المصريين ضعيفة أو غير موجودة؟ وإذا انتشرت ظاهرة العنف والعدوان هذه السنين الأخيرة فهل معنى ذلك أن تنشيطًا ما حدث في خلايا مخ المصريين بسبب تغيُّرات أثيرية في الجو أو قوًى مجهولة في السماء؟!

إنَّ الصراع الدائر في هذه الحضارة الرأسمالية الرجولية ليس صراعًا بين نوعين من الأفكار؛ أفكار حقيقية وأفكار غير حقيقية، ولكنه صراع بين نوعين من النَّاس؛ نوع معه السُّلطة والمال، ونوع مضطهَد ينشد التحرُّر من السلطة ومن الفقر. ومن الطبيعي حينما تكون السلطة والمال في قبضة الأقلية القليلة فإنها لا تتمكن من حماية سلطتها ومالها إلا بالقوة والقهر والعدوان والضرب بيدٍ من حديد على كلِّ مَن يهدِّد سُلطتها أو مالها.

يقول بعض العلماء الأمريكيين إن السلوك العدواني يحدُث للإنسان بسبب نشاط بعض خلايا المخ، وإنه يمكن علاج العدوان باستئصال جزء من المخ بجراحة، أو إضعاف مركز العدوان في المخ بالعقاقير أو الأجهزة الإلكترونية، ويدعم هؤلاء العلماء رأيهم بتجاربَ معملية على خنازير ونسانيس وأسود ورجال مجرمين داخل السجون. إحدى التجارب تقول إن جزءًا من مخ الرَّجل المجرم استؤصل بالجراحة فأصبح الرَّجل من بعدها مسالمًا غيرَ ميال للإجرام. وأيضًا هناك العقاقير التي تقوم مقام الجراحة من حيث إبطال عمل بعض خلايا المخ أو وسائل كالكهرباء أو الأجهزة الإلكترونية.

من المعروف أن هناك أمراضًا عضوية تحدُث لبعض خلايا المخ وتسبِّب انحرافاتٍ جنسية أو تخلفًا عقليًّا أو انحرافًا في السلوك كالإجرام. لكنها حالات قليلة جدًّا، وتحتاج في علاجها إلى الوسائل السابقة من حيث الأدوية أو الجراحة أو غيرهما.

لكن من المعروف أيضًا أن السلوك العدواني حينما يصبح ظاهرةً فإنه يشمل أعدادًا كبيرة من النَّاس، وأن المشاكل الجنسيَّة والنَّفْسية حينما تصبح منتشرةً بين الرِّجال والنِّساء والشباب فإن ذلك يعني أن هناك أسبابًا في المجتمع وفي الأسرة وفي التربية تؤدي إلى انتشارِ مثل هذه الظواهر المَرضية.

وقد أثبت عددٌ من العلماء — ومنهم الدكتور ميكالو ساكون، ولينج، وكوبر، وزاس، ورايخ — أن الأسباب الحقيقية للعدوان ليست في خلايا المخ، وإنما في الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي يعيشها النَّاس، وأن علاج العدوان يجب ألا يوجَّه إلى رأس الرَّجل وإنما إلى المجتمع والأسرة التي يعيش فيهما هذا الرَّجل.

وقد اتضح أن مناخ الأسرة الأبوية بكلِّ ما فيها من علاقاتٍ غير متساوية بين الأب والأم وبين الكبار والأطفال تنبت البذور الأولى للعدوان في نفس الطفل.

ومن أجل التبسيط في الشرح والتوضيح يمكن لنا أن نستخدم التعريفَ العلمي التقليدي لمعنى العدوان في علم النفس، وهو يُعرف على أنه نوع من الطاقة النَّفْسية التي تساعد الإنسان على أن يميز نفسَه كفرد مستقل. بمعنًى آخر أنه الدافع وراء رغبة الإنسان في تأكيد ذاته، أو الرغبة في القوة، أو الرغبة في أن يصبح الإنسان في نظر نفسِه فردًا مستقلًّا منفصلًا عن الآخرين. ويقول علماء النفس إن كَبْتَ هذه الرغبة في الطفل يوقف نموَّه النفسي، وحين يكبر ليصبح رجلًا يظل يشعر بالنقص، وبأنه شخص بلا شخصية مستقلة، وبلا وجود، وأنه لا شيء أو لا أحد، يعيش كالظل أو كظل الآخرين.

ويمكن القول إن الطفل (ذكرًا أو أنثى) يشعر منذ البداية الأولى لحياته بدافع إلى تحقيق الذات، والبحث عن شخصيته المستقلة وتفرُّده كشخص، وأن هذا الدافع لا يقل قوةً عن الدافع إلى الجنس. إن إحدى صفات الأطفال المميزة أنهم يميلون دائمًا إلى إثبات ذواتهم، وأن جزءًا كبيرًا من خيالهم الطفولي يمتلئ بتلك الرغبات والتصوُّرات مثل: أنا كبير، أنا قوي، أنا أستطيع أن أفعل أيَّ شيء.

ويشعر معظم الأطفال أن البيت سجنٌ كبير، وأن الأهل هم السجَّانون. وتختلف درجةُ هذا الشعور باختلاف عقلية الآباء والأمهات. على أنَّ الأسرة الأبوية التقليدية ترسِّب هذا الشعور في نفوس معظم الأطفال بسبب الكبت والتربية الصارمة القائمة على سلطة الأب المطلقة.

ويحاول معظم الأطفال كسْرَ القيود والفِكاك من هذا السِّجن، يساعدهم في هذه المحاولات ذلك الدافع الإنساني إلى تحقيق الذات المنفردة والاستقلال. إنها محاولة صعبة ينجح فيها بعض الأطفال ويفشل البعض الآخر، يتوقَّف النجاح أو الفشل في نهاية الأمر على مدى سيطرة الأب ومدى استخدامه لسلطة الأب المطلقة التي تخوِّل له أن يمتلك أطفاله (وزوجته) كما يمتلك ملابسه الداخلية. إنَّ القوانين التي تحكم الأسرة الأبوية في حضارتنا الذُّكورية الحديثة تمنح الأب السلطةَ المطلَقة على زوجته وأطفاله، وتفرض على هؤلاء الطاعةَ العمياء والخضوع الكامل وإلا تعرَّضوا للبطش أو الطرد وعدم الإعالة.

وقد وُجِد أنه كلما زادت سيطرةُ الأب زادت معها رغبةُ الطفل في الإفلات من هذه القبضة والتحرُّر من هذه السلطة، ومن هنا ازدياد الرغبة العدوانية عند الطفل من أجل التحرُّر والاستقلال والانفصال عن أبيه.

ويكبر الطفل وينمو، وفي عملية النمو يزداد إدراك الطفل بقوَّته، وفي الوقت نفسه تتضاءل في نظره قوة أبيه. وهكذا يكبر الطفل وينضج ويستقل عن طريق ازدياد قوَّته مع الانخفاض المستمر لقوة أبيه.

لكن هناك من الآباء مَن يقاوم النموَّ الطبيعي للطفل، هؤلاء الآباء الذين يصرون على أن يظلوا أقوياءَ مسيطرين إلى الأبد، والذين إذا ما أحسُّوا لحظةً أن هذه القوة أو هذه السيطرة قد مسَّها أو خدشها — من قريب أو من بعيد — ابنٌ أو ابنة أو زوجة فإنهم سرعان ما يُبرِزون أسلحتهم حفاظًا على رجولتهم وذكورتهم وسلطتهم الأبوية الممنوحة لهم من قِبَل المجتمع والحضارة بغير قيد ولا شرط.

مثل هؤلاء الآباء (وما أكثرَهم) يعطِّلون نموَّ أطفالهم ويَحولون دون استقلالهم الكامل، ويحمل هؤلاء الأطفال معهم (بعد أن يكبروا) قدرًا كبيرًا من العدوان يقابله قدرٌ مماثل من الاعتماد على الغير وعدم الاستقلال. ولهذا نجد أن الرَّجل العدواني يميل في حقيقة الأمر إلى الاعتماد على غيره. وتظهر حقيقة هؤلاء الرِّجال في علاقاتهم العاطفية والجنسيَّة، وهي أكثر العلاقات كشفًا لحقيقة الإنسان. إنَّ الرَّجل من هؤلاء يتعامل مع المرأة التي يحبها أو يرغبها كما يتعامل الطفل مع أبيه، إنه لا يعرف في علاقته بها إلا واحدًا من اثنين؛ إما أن يُخضعها وإما أن تُخضعه، وإما أن يؤلمها وإما أن تؤلمه. ومن هنا تنشأ السادية والماسوشية. مثل هؤلاء الرِّجال يعجزون عن الحب المتبادَل القائم على التساوي في الأخذ والعطاء، وليس فيه خضوع ولا إخضاع؛ فالحب علاقةٌ سوية تقوم على الحرية والإرادة والثقة بالنفس والاستقلال.

لكن الرَّجل العدواني لا يشعر بالأمان في مثل هذه العلاقة السوية الحرة. إنه يشعر بأمان أكثرَ في ظل العلاقة الأخرى التي تقوم إما على الإخضاع، فيصبح هو الطرف الأقوى المسيطر، وتمنحه السيطرة نوعًا من الأمان. أو العلاقة التي تقوم على الخضوع، فيصبح هو الطرف الخاضع ويشعر بالأمان؛ لأنه سلبي يعتمد على الطرف الآخر، ولا يتحمل عبءَ شيء.

ويمكن القول إذن إنَّ العلاقات السادية الماسوشية هي إعادة خَلْق العلاقات الطفولية بحيث يلعب أحدُ الطرفين دورَ الطفل، ويلعب الطرف الآخر دورَ الأب. إنها أحد مظاهر عدم النضوج وتعطل نمو الشخصية بسبب سيطرة الرَّجل المطلقة في ظل النظام الأبوي الذي هو العمود الفقري للحضارة الحديثة المعاصرة.

ومن المعروف أن القيم الأسرية والاجتماعية والأخلاقية التي نعيشها والتي ترتكز على نكران الجنس (ولو ظاهريًّا) ترسِّب في نفوس الأطفال إحساسًا بالنقص وإحساسًا بالذنب. ولو عُدْنا إلى ما شرحناه عن السادية والماسوشية لوجدنا أن السادية هي نوعٌ من التعويض أو التنفيس عن إحساس بالنقص وإحساس بالذنب. كما أن الماسوشية نوعٌ من التعويض أو التنفيس عن الإحساس بالذنب. وكأنما يقول الماسوشي لنفسه: ليس لي ذنبٌ فيما يحدث لأنه يحدث رغم أنفي وبالقوة القاهرة وبالألم الذي أشعر به الآن. إن لذة الماسوشي تزيد بمقدارِ ما يحس أنه غير مسئول، وأن لا يدَ له فيما يحدث من إثم. بمعنًى آخر تزيد لذة الماسوشي بمقدارِ ما يعود طفلًا ليس عليه أن يتخذ أيَّ قرار، أو يتحمَّل مسئولية اختياره أو إرادته الواعية. إن الطرف الآخر يصبح في نظره السلطةَ المطلقة التي كلما ناله منها العقاب زال شعوره بالإثم وتحرَّر من الإحساس بالذنب. ومن هنا تحدُث إثارته الجنسيَّة.

أي إن العقاب يزيل عن الماسوشي الإحساسَ بالذنب، ويصبح قادرًا مرةً أخرى على معاودة الإثم ثم ينال العقاب الذي يمسح عنه الإثم، فيعود إلى مزاولة الإثم مع العقاب الذي يمسحه، وهكذا يدور في الدائرة المفرغة.

ومن هنا ندرك أنَّ السُّلطة المطلَقة التي تثير في الشَّخص الرغبةَ في اللَّذة والعقاب معًا تشعل في النَّاس الإثارةَ الجنسيَّة وفي الوقت نفسه تنهى عنها بشدة. وهذا التناقض هو الذي يفسِّر ظاهرةَ انتشار التجارة الجنسيَّة والأفلام والفنون الآداب الجنسيَّة الرَّخيصة، ويفسِّر أيضًا أنَّ هذه التِّجارة الجنسيَّة كثيرًا ما تشتمل على صورة خيالية شديدة السَّادية، منها نساء يضربن الرِّجال بالسياط، أو رجال أشداء يغتصبون نساء، وإثارة استعذاب السُّلطة والإخضاع والاستعباد أو الخضوع والعبودية والمَذلة.

مثل هذه التجارة الجنسيَّة تخفِّف عن النَّاس بعضَ الشيء من التوتُّر الجنسي المصحوب بالإحساس بالذنب؛ لأنهم يجمعون في خيالهم الصورتين معًا؛ صورة العشيقة المشتهاة (أو العشيق) مع صورة الأب المسيطر صاحب السلطة.

وتلعب الأم المسيطرة أيضًا الدورَ الذي يلعبه الأب المسيطر في تشويه حياة أطفالها الجنسيَّة من الذُّكور والإناث، لكن سلطة الأم في ظل الأسرة الأبوية وسيطرة الأب لا تكون موجودةً في معظم الحالات. إما أن الأمَّ في الأسرة الأبوية قد فرغت للزواج والأمومة فهذا يدفعها إلى المبالغة في الحب والالتصاق بأطفالها مما يعطِّل أيضًا نموَّهم النفسي واستقلالهم، ومما يفسد أيضًا حياتهم الجنسيَّة فيما بعد.

عرفنا مما سبق أن الرَّجل السادي أو الماسوشي رجلٌ عجز عن الوصول إلى النضوج، بمعنًى آخر أنه عجز عن التحرُّر من إحساسه بالذنب أو النقص. إنه يعجز عن ممارسة الحب الحقيقي، ويعجز عن الوصول إلى قمة اللَّذة (الأورجازم) من خلال علاقةٍ عاطفية جنسيَّة سوية. ومن المعروف أنَّ هذه القدرة، قدرةَ الإنسان على الوصول إلى قمَّة اللَّذة (الأورجازم)، تعتمد أكثرَ ما تعتمد على قدرة الإنسان على أن «يُعطيَ نفسه» عطاءً كاملًا في لحظة معينة، بمعنًى آخر قدرة الإنسان على أن يترك نفسَه للآخر تمامًا، أن يترك جسده ونفسَه معًا، أن يفقد ذاته أو وجوده في تلك اللحظة بغير خوف أو قلق.

وقد لوحظ أن الرِّجال غير الناضجين لا يحصلون على هذه القدرة. إنَّ خوفهم أو قلقهم (بسبب أحاسيس النقص والذنب) يَحول بينهم وبين الارتخاء الكامل بين ذراعي المرأة. إن الرَّجل منهم يظل مشدودَ العضلات، خائفًا من تلك اللحظة التي يمكن أن يعطيَ فيها نفسَه وجسده عطاءً كاملًا. إنه يخشى (بسبب عدم ثقته في نفسه) أنه لو أعطى نفسَه عطاءً كاملًا فسوف يعجز عن استردادها. ويزيد هذا الخوف بازدياد عقدة الخوف عند الرجل. ولهذا يحاول الواحد منهم أن يعطيَ جزءًا من جسده ويحتفظ بالباقي كنوع من صِمام الأمان الذي يساعده على استردادِ ما أعطاه مرةً أخرى. معظم هذا النوع من الرِّجال يمارسون الجنس مع النِّساء بأعضائهم التناسلية فقط، أمَّا بقية أجسادهم وعقولهم ونفوسهم فتصبح كالحارس أو رجل البوليس الذي قد يتدخَّل عند اللزوم من أجل الحماية أو العدوان حسب الظروف.

إن مثل هؤلاء الرِّجال شديدو اليقظة خوفًا من ضياع ذواتهم، شديدو الحساسية، سريعو العدوان لو أن أحدًا مسَّ — من بعيد أو قريب — ذواتهم أو كرامتهم. إنهم يدركون في أعماقهم أن ذواتهم هشة، وأن كرامتهم هشة، وأن أيَّ خدش لهذه الذات أو هذه الكرامة خليقٌ بأن يجعلها تنهار سريعًا وتصبح رمادًا تذروه الريح.

هؤلاء الرِّجال يمكن التعرُّف عليهم بسهولة من عضلات وجوههم المشدودة. وهم أيضًا يعانون من الإمساك المزمن بسبب عضلات أمعائهم المشدودة دائمًا، وعجزهم عن الارتخاء أثناء قضاء الحاجة.

هذه التفرقة تفسد شخصيةَ الاثنين معًا، الولد والبنت، وهي تَحول دون نضوج أيٍّ منهما. إنَّ المبالغة في إشعار الولد بذاته وذكورته تصيبه بعقدة النقص؛ لأنه يحس في أعماقه أنه أقلُّ من الصورة التي يصنعونها له. وإن المبالغة في حثِّ البنت على الانطواء والانكماش والسلبية (باسم الأنوثة والرقة) يصيبها بعقدة العظمة؛ لأنها تحس في أعماقها أنها أفضلُ من الصورة التي يصنعونها لها. وقد علمنا أن عقدةَ النقص مثل عقدة العظمة هما وجهان لعملة واحدة، مثلهما مثل السادية والماسوشية سواءً بسواء. إنَّ الولد الذي يشعر بعقدة النقص يشعر في الوقت نفسه بعقدة العظمة كتعويض، وكذلك البنت التي تشعر بعقدة العظمة تشعر في الوقت نفسه بالنقص.

إنَّ حياة الأطفال، ذكورًا وإناثًا، وسط مناخ الأسرة الأبوية، حيث العلاقة غير متكافئة بين الأب والأم، والتربية الشائعة القائمة على التفرقة بين البنت والولد، كلُّ هذا يسبِّب تلك المشاكل النَّفْسية والجنسيَّة التي يعاني منها الرِّجال والنِّساء في مجتمعنا.

إنَّ من أهم مقوِّمات الصحة الجنسيَّة وسلامتها وقدرتها على إحداث اللذة والسعادة المطلوبة هي أن يكون الإنسان قادرًا في لحظة من اللحظات أن ينسى ذاته، أن ينسى «الأنا». إنَّ القدرة على نسيان «الأنا» أو إلغائها تمامًا في هذه اللحظة هي أهمُّ أسباب الوصول إلى قمة اللذة (الأورجازم) التي بدونها لا يتحقق الإشباع الجنسي الكامل، وبالتالي التمتُّع بالصحة الجنسيَّة.

إن إلغاء «الأنا» أمرٌ خطِر بالنسبة للرجل غير الناضج؛ لأنه لا يستطيع وحدَه تحمُّل مسئولية هذا الإلغاء، والأسهل له أن يعطيَ هذه المسئولية لشخص آخر أو سلطة أخرى أو إرادة غير إرادته، إنه في حاجة دائمًا إلى هذه الإرادة الأخرى من أجل أن تراقبَه وتحميَه حين يفقد هو إرادته. إنه يشعر بالأمان والطمأنينة حيث يعطي نفسه إذا ما سمحت السلطة الأخرى بذلك، كالطفل الذي يشعر بالأمان إذا ما أَذِن له الأب، ويصبح الأب هو المسئول عن فعلِ الطفل وليس الطفل نفسه. ومن هنا يتضح أن الرَّجل الماسوشي ينشد (بالإضافة إلى التخفيف من عبء الإحساس بالذنب) أن يضرب عصفورين بحجر واحد، ذلك أن يكون في حالةٍ من الاستمتاع الجنسي ومن الإحساس بالأمان في وقت واحد. وهو يحقِّق هدفه هذا بأن يجعل الشخص الآخر مسيطرًا على الموقف كله.

أما الرَّجل السادي فهو يكاد يكون عكس ذلك، إنه في حاجةٍ إلى أن يشعر أنه مسيطر على الموقف كله قبل أن تتحقَّق له اللذة الجنسيَّة. وإذا قلنا عن الرَّجل الماسوشي إنه يسلِّم زمامَ الموقف كله للشخص الآخر ويُخرج نفسَه منه، فإن الرجل السادي يأخذ زمامَ الموقف كله ويُخرج المرأة منه. إن وراء هذه الرغبة السادية في السيطرة الكاملة على الموقف (بدون مشاركة الطرف الآخر) إحساسًا داخليًّا عميقًا بالضَّعف، وهذه الرغبة السادية ليست إلا محاولة للتعويض عن هذا الضَّعف. إن الرَّجل السادي لا يحتمل أن يعطيَ المرأة أيَّ قوة؛ لأنه يخشى لو أعطاها شيئًا من القوة فسوف تؤلمه أو تخصيه أو تحطِّمه وتسحقه.

وهذا هو ما يفعله الخوف بالرَّجل، الخوف الذي ترسَّب في نفسه منذ الطفولة. ومن المعروف أن الإنسان حين يخاف فليس أمامه إلا أحد أمرين:

(١) إما أن يستسلم تمامًا، وبهذا الاستسلام الكامل ينزع عدوُّه سلاحه، وتلجأ الحيوانات إلى هذه الطريقة لمواجهةِ ما هو أقوى منها.

(٢) وإما أن يجرِّد الإنسان عدوَّه من كل الأسلحة ويجعله عديمَ القوة بحيث لا يستطيع أن يؤذيه.

والرَّجل السادي يختار (أو تُفْرَض عليه) الحالة الثانية، أما الرَّجل الماسوشي فيلجأ إلى الحالة الأولى، وهي الاستسلام الكامل.

لا بدَّ من الإشارة هنا إلى أن الإيلام، أو إحداث الألم في حد ذاته ليس هو هدف الرَّجل السادي. إنَّ كثيرًا من الصور السادية التي يتخيَّلها الرِّجال هي مجرد أن تصبح المرأة بغير حول ولا قوة، وأن تكون تحت رحمته تمامًا يفعل بها ما يشاء. وكم تمتلئ الأفلام والقصص الجنسيَّة بهذه الصورة السادية! بل كثيرًا ما تتعدى هذه الصور الحياةَ الجنسيَّة إلى نواحٍ أخرى من الحياة مثل السياسة أو الرياضة أو الفنون. وكم يشعر الرِّجال بلذة خفية حين يرون امرأةً مقيَّدة بالحبال أو مضغوطة في جدار أو مهشَّمة العظام، وكم يشعر الرِّجال بلذة وهم يشاهدون المباريات الرياضية العنيفة أو التعذيب السياسي. إن الخوف الملازم لحياة الطفل بسبب العلاقات غير المتكافئة داخل الأسرة الأبوية وخارجها في المجتمع الذُّكوري القائم على انتصار الأقوى على الأضعف والأكبر على الأصغر، هذا الخوف هو السَّبب الحقيقي وراء سادية الرَّجل.

إنَّ الرَّجل السادي حين يجرِّد المرأة من قوَّتها لتصبح بلا حول ولا قوة، إنما يخلق موقفًا يشعر فيه أنه قادر على أن يفعل بها ما يشاء، سواء رغبت هي أو لم ترغب. بمعنًى

آخر، إن الرَّجل السادي يتشكك في أن المرأة يمكن أن ترغبه طواعيةً بمحض اختيارها وكامل حريتها؛ ولهذا فإن عليه أن يحصل بالقوة والإجبار على ما يحصل عليه الرَّجل الناضج بسهولة طبيعية وحرية.

لا يستطيع الرَّجل السادي أن يحصل على لذَّته الجنسيَّة إلا حينما يشعر أنه المسيطر تمامًا، وأن المرأة أصبحت بالكامل تحت رحمته. في هذه الحالة فقط يتلاشى خوفه من المرأة. وحينما يتلاشى خوفه يصبح قادرًا على الإحساس باللذة.

قال لي أحد الأزواج من هذا النوع السادي: إنه يعاني حرمانًا شديدًا من اللذة الجنسيَّة؛ لأن زوجته قوية الشخصية ولا تعرف كيف تستسلم له تمامًا وتصبح في العملية الجنسيَّة تحت رحمته. وهذا هو السَّبب في أنه يذهب إلى مومس تستطيع أن تلهب رغبتَه الجنسيَّة حينما تتظاهر بالإغماء وتهمس له قائلة: «افعل بي ما تشاء!»

وحينئذٍ فقط يكتشف الزوج فحولته الجنسيَّة.

وقد ذكَّرتني حالة هذا الزوج ببعض الأفلام الجنسيَّة التي شاهدتُها في السويد وبعض البلاد الغربية الأخرى. كانت معظم هذه القصص تدور حول مشاكل جنسية بين الزوجين بسبب عناد الزوجة أو تكبُّرها أو رغبتها في التساوي مع الرَّجل. ويحاول الرَّجل أن يُخضعها دون جدوى، وأخيرًا يأخذ الرَّجل زوجته العنيدة إلى إحدى المؤسَّسات الجنسيَّة الحديثة حيث تتدرَّب الزوجة على كيفية الاستسلام والخضوع لزوجها.

ويشتمل هذا التدريب على صورة متكررة من الاعتداء على الزوجة بالقوة والضرب والإذلال. وفي نهاية الفيلم تبدو الزوجة وقد أصبحت أنثى عظيمة الأنوثة ماهرة في إغراء زوجها وإشباعه جنسيًّا بعد أن تتدرَّب على الخضوع واستعذاب العبودية.

إنَّ الرَّجل السَّادي وبالرَّغم من عدوانه الظَّاهري على المرأة إلا أنه في حقيقة الأمر يرغب أو يأمل في أن تستمتع المرأة بالألم الذي يحدثه لها. ومعنى ذلك أنَّ رغبته الحقيقيَّة ليست هي الإيلام، وإنَّما إحداث اللَّذة والاستمتاع. ومن أهم المشاكل التي تواجه الرِّجال السَّاديين والرِّجال الماسوشيين هي صعوبة حصولهم على المرأة التي يشعرون معها أنَّها فعلًا تحصُل على اللَّذة بهذه الطَّريقة السَّادية أو الماسوشية، وهذا هو السَّبب في أنَّ هؤلاء الرِّجال لا يجدون أمامهم إلا المرأة المومس التي تدَّعي على الأقل أنَّها مُستمتعة، والتي لا يمكن لها أن ترفض ما يفعله الرَّجل معها نظيرَ ما دفعه من المال. وهناك أيضًا عدد غير قليل من الزوجات (بسبب القهر داخل الأسرة الأبوية ولأنها تحتاج إلى إعالة الزوج وتخشى الطلاق) هؤلاء الزوجات يتظاهرن بالاستمتاع مع أزواجهن، وهن في حقيقة الأمر يشعرن بالضيق أو الغثيان.

الرَّجل والأورجازم الجنسي

بمثلِ ما أنتجت الحضارة الذُّكورية «علماءَ نفس» يضخِّمون الفروق النَّفْسية بين الذُّكورة والأنوثة، فقد أنتجت «علماءَ جنس» يعتقدون أن الأورجازم (وهو الاصطلاح العلمي لمعنى قمَّة اللذة) عند الرِّجال يختلف عن «الأورجازم» عند النِّساء، وأنَّ النَّشاط الجنسي أو مراحل الإثارة الجنسيَّة يختلف في الرَّجل عنه في المرأة.

لكن الدِّراسات الجنسيَّة الجديدة[١] أوضحت خطأ هذه النظريات القديمة، وكشفَت عن كثير من الحقائق العلمية التي تقول إن النشاط الجنسي في الرَّجل لا يختلف عنه في المرأة، سواء من ناحية ابتداء الإثارة أو طريقة الإشباع أو المراحل التي تمرُّ بها عملية الإشباع حتى الأورجازم أو أعلى درجات اللذة، ثم مرحلة الهبوط والعودة إلى الحالة الأولى التي عليها الإنسان قبل حدوث الإثارة.

وقد وُجِد أن كلًّا من الرَّجل والمرأة يمر بأربع مراحل منذ حدوث الإثارة الجنسيَّة حتى العودة إلى الحالة الأولى قبل حدوث هذه الإثارة. وتتلخَّص هذه المراحل في الآتي:

(١) مرحلة الإثارة (Excitement).
(٢) المرحلة المرتفعة (plateau).
(٣) مرحلة الأورجازم (Orgasm).
(٤) مرحلة الهبوط (Resolution).

وقد وُجِد أنَّ أي نشاط جنسي يمرُّ بهذه المراحل الأربع من أجل أن يحدُث ما يُسمَّى بالإشباع. ولا تختلف هذه المراحل في الرَّجل عنها في المرأة. وكان هناك اعتقادٌ بأنَّ مرحلة الأورجازم غير موجودة عند المرأة، وأن المرأة لا يحدث لها أورجازم؛ لأنَّ المرأة لا تقذف السَّائل المنوي الذي يقذفه الرَّجل عند وصوله الأورجازم، وقد تصوَّر هؤلاء العلماء أنَّ

[١] انظر الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب «المرأة والجنس» و«الأنثى هي الأصل».

القذف عمليةٌ ذكورية بسبب وضوحها وبسبب الكمية الكبيرة التي تُقْذَف، وبالمنطق نفسه تصوَّروا أنَّ نشاط الرَّجل الجنسي أشدُّ من نشاط المرأة؛ لأنَّ عضو الذكر أكبر من البظر حجمًا وشكلًا.

لكن هذه الأفكار تغيَّرت، وخرج علماء النفس في السنين الأخيرة بحقائقَ تثبت أن المرأة يحدُث لها الأورجازم، وأنها تقذف في قمَّة هذا الأورجازم، وأن النشاط الجنسي للبظر يشبه النشاط الجنسي للعضو الذكري.

وقد كان الاعتقاد القديم يقول إن مرحلة الإثارة عند المرأة سلبية، أي إنها تتلقى الإثارة من الرَّجل، وتنتظر منه أن يكون هو البادئ بالإثارة؛ لأن الرَّجل هو الإيجابي، لكن اتضح أن المرأة تصبح إيجابيةً كالرَّجل حين تشعر باستقلالها وكيانها.

وكان بعض علماء الجنس يظنون أن المرحلة المرتفعة عند الرَّجل تصل إلى قمة عالية كقمة الهرم (وهي التي يحدث عندها الأورجازم والقذف)، أما عند المرأة فهذه المرحلة لا تصل أبدًا إلى هذه القمة الهرمية، وإنما هي تشبه السفح أو الهضبة التي لا ترتفع إلى قمَّة حادة أبدًا. وكانوا يظنون أيضًا أن مرحلة الهبوط عند المرأة بطيئة ولا تنتهي بسرعة انتهاء الأورجازم والقذف كما يحدُث عند الرَّجل، وكانوا يدلِّلون على ذلك بأن الرَّجل ينتهي من العملية الجنسيَّة بسرعة، وتتلاشى رغبته في المرأة بانتهاء مرحلة الهبوط السريعة؛ ولذلك يشعر الرَّجل برغبةٍ في الانفصال بسرعة عن جسم المرأة، وكثير من الرِّجال يعطون ظهورهم لزوجاتهم بمجرد انتهاء العملية. أما المرأة فإنها تظل راغبةً في الجنس لفترة أطول بسبب طول مرحلة الهبوط عندها.

والرسم البياني الذي يصوِّر الفروقَ بين العملية الجنسيَّة عند الرَّجل والمرأة يتضح منه الآتي:

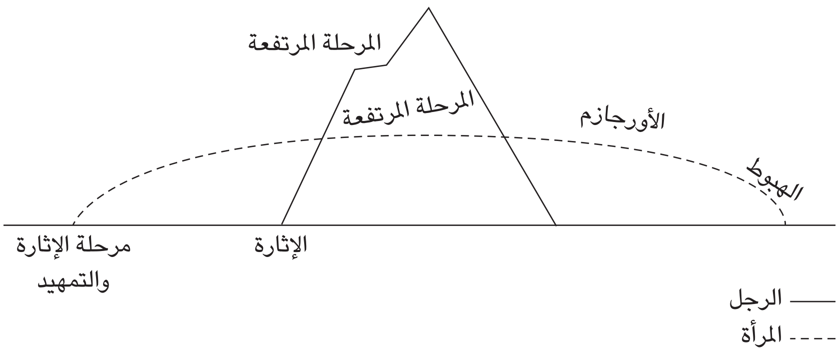

(١) الأورجازم عند المرأة أضعف منه عند الرَّجل ولا يصل إلى القمة العالية.
(٢) سرعة الرَّجل في جميع المراحل وسرعة الهبوط.
(٣) بطء المرأة في جميع المراحل وطول مرحلة الهبوط.

وقد أوضحت البحوث الجديدة أن الرسم الخاص بالمرأة لا يصوِّر المرأة الطبيعية المنطلِقة من القيود، وإنما يصوِّر المرأة المكبوتة أو الباردة جنسيًّا. وقد وُجِد أن هذا الرسم يختلف من امرأة إلى امرأة حسب درجة الكبت والبرود الجنسي، وأن هناك نساء (وبالذات اللائي قُطعت بظورهن في عملية الختان) لا يصلن على الإطلاق إلى مستوى هذا الرسم، والبعض منهن لا يحظين بهذه المراحل الأربع، وإنما هي مجرد استجابة ضعيفة لنشاط الزوج الجنسي (من باب الواجب الزوجي أو الواجب الدِّيني)، وقد يصاحب هذه الاستجابة الضعيفة شيء من اللذة المصحوبة بالإثم والخجل، أو شيء من الألم (بسبب سادية معظم الرِّجال)، أو شيء من النفور والغثيان (بسبب جهل الرَّجل بإنسانيَّة المرأة واعتبارها مجرد مهبل يفرغ فيه طاقته الجنسيَّة بمثل ما يمارس العادة السرية).

وبسبب برود المرأة الجنسي بصفة عامة (لأسبابٍ اجتماعية واقتصادية وليست بيولوجية) وَجَد بعض العلماء أن المرأة تحتاج أكثرَ من الرَّجل إلى مرحلةٍ تمهيدٍ طويلة قبل أن تشعر بالإثارة الجنسيَّة. ولهذا نرى في الرسم الخاص بالمرأة مرحلة التمهيد، أما عند الرَّجل فلا توجد هذه المرحلة. ويزداد طول مرحلة التمهيد في النِّساء حسب درجة برودهن ودرجة الكبت اللتين تعرَّضن لهما في الطفولة، وما إذا كان البظر موجودًا وسليمًا أو تعرَّض لعملية الختان، هذه العملية التي تتم في معظم الأحيان بواسطة الدايات الريفيات الجاهلات، وكثيرًا ما تقطع الداية بالموسى البظرَ كلَّه، وتُحدِث الموسى الحادة بعضَ التهتك والتمزق في الأعصاب التي تغذي البظر، في مثل هذه الحالات يلتئم الجُرح بعد عملية الختان، لكن تظل هناك منطقةٌ حساسة «كالعصب العاري» ما إن يضغط عليها عضو الذكر (أو يده) في العملية الجنسيَّة حتى تشعر المرأة بألم يشبه المسَّ الكهربي الضعيف يحول بينها وبين الشعور باللذة ولا أقول الوصول إلى الأورجازم. وقد واجهتُ كثيرًا من هذه الحالات، وعلاجها يستوجب عمليةً جراحية أخرى تُصلِح الجُرح القديم، وتتخلَّص المرأة من الألم الشبيه بالمس الكهربي، وبالطبع لا تعود إليها اللذة الطبيعية؛ لأنه لا يمكن إعادة العضو الذي استؤصل من قبلُ بالموسى.

وهذه إحدى مآسي عدد كبير من النِّساء في مصر والسودان والصومال وبعض البلاد العربية والإسلامية التي انتشرت فيها عادة ختان البنات من أجل الحفاظ على العذرية

والعفَّة. وهي ليست إحدى مآسي النِّساء فحسب. ولكنها أيضًا إحدى مآسي الرِّجال؛ لأن الرَّجل في معظم الحالات يعجز عن إثارة المرأة بالطرق العادية السهلة، ويُضطر أحيانًا إلى استخدام بعض الدهانات أو العقاقير التي يشيع عنها تجار الأدوية أنها تقوي الأعصاب وتؤجل القذف، وأحيانًا لا يكون أمامه إلا الحشيش أو المخدرات من أجل إطالة العملية الجنسيَّة وتأجيل القذف.

لكن الذي يحدُث في بعض الأحيان أن مثل هذه الجهود من جانب الرَّجل تبوء بالفشل، وبدلًا من الحصول على انتصاب قوي وتأجيل القذف يحدث العكس بالضبط؛ إذ يصاب الرَّجل بضَعف في الانتصاب أو سرعة في القذف، وفي معظم الأحيان بالاثنين معًا.

والسَّبب في ذلك أنَّ الجنس ليس عمليةً بيولوجية بحتة، وليس عملية كيميائية يمكن ممارستها بواسطة العقاقير المنبِّهة أو المخدِّرة، وإنما هي عملية إنسانيَّة بالدرجة الأولى، تحتاج إلى أن يشعر الرَّجل أنه إنسان عاقل وليس حيوانًا أعجمَ غائبًا عن الوعي، تحتاج إلى أن تشعر المرأة أنها إنسانة عاقلة وليست جثَّةً مبتورة الأعضاء باردة الأحاسيس، وتحتاج من الاثنين معًا التبادل الإنساني، بحيث ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر على أنَّه إنسان مثله تمامًا، وليس هناك مَن هو أقلُّ من الآخر أو أدنى.

وهذا بالطبع أمرٌ مفقود في معظم الحالات بسبب الحضارة الذُّكورية والنُّظم الأبوية التي تفرض على المجتمع أن ينظر إلى المرأة على أنَّها أقلُّ من الرَّجل. وتوارث المجتمع النَّظرة المشوهة لحقيقة المرأة جيلًا وراء جيل.

لكن بعض العقول المتفتحة من العلماء الرِّجال والنِّساء خرجوا إلى العالم بدراساتٍ[٢] وحقائقَ جديدةٍ عن النشاط الجنسي عند الرَّجل والمرأة. وتوضِّح معظم هذه الدراسات أن المراحل الجنسيَّة عند المرأة تشبه المراحل الجنسيَّة عند الرَّجل من حيث الزمن ونوع الإثارة وقمَّة الأورجازم ومرحلة الهبوط. واتضح أن الفكرة القديمة التي قالت بطول مرحلة الهبوط عند المرأة سببُه أن البرود الجنسي يجعل المرأة عاجزةً عن الحصول على الإشباع الكامل؛ ولذلك تظل تشعر برغبة جنسية بعد انتهاء الرَّجل، وقد تستمر هذه الرغبة معها إلى اليوم التالي وتسبِّب لها صداعًا أو توترًا عصبيًّا معينًا. ووجد أن الزوجات المصابات بالصداع الدائم أو العصبية الزائدة عن الحد يعانين من حرمانٍ جنسي بسبب عجز الأزواج عن إشباعهن جنسيًّا لعوامل متعددة تتعلَّق بالزوجات وبالأزواج معًا.

[٢] انظر أبحاث كينزي وماسترز وجونسون وشيري وماني ورايخ، وغيرهم.

على أن الحقائق العلمية الجديدة قد كشفت عن كثيرٍ من العيوب والمشكلات الجنسيَّة التي عانى منها الرِّجال والنِّساء طويلًا دون أن يفهم أحدهم الآخر، ودون أن يدرك الرَّجل وتدرك المرأة أن النقص ليس في واحدٍ منهما فقط، ولكن النَّقص فيهما كليهما بسبب الحضارة المشوهة لكلٍّ من الرَّجل والمرأة.

وقد توصَّل العلماء لهذه الحقائق الجديدة بعد أن خرجت المرأة إلى العمل وحصلت على استقلالها الاقتصادي والنفسي والجسدي، واستطاعت بعض النِّساء الجديدات أن يتغلبن على كثير من عُقَد الكبت والخوف والذَّنب التي كانت تعوق نشاط المرأة الجنسي وتسبِّب لها البرود، وكذلك أيضًا تغيُّر نظرة المجتمع إلى المرأة والمناداة بمساواة المرأة والرَّجل، وظهور أجيال جديدة من الشباب (رجالًا ونساءً) لا يعترفون بالفروق القديمة بين الذكر والأنثى.

ولا شكَّ أن البرود الجنسي الذي كان يصيب معظم النِّساء في العالم (بسبب القيود الاجتماعية وقوانين الزواج والعفَّة المفروضة على النِّساء فقط) هو الذي ضلَّل معظمَ علماء الجنس. فقد كان البرود الجنسي في الحضارة الذُّكورية هو صفةُ معظم النِّساء، وتصوَّر الكثيرون من العلماء أن هذا البرود هو صفة المرأة الطبيعية، كما تصوَّر «فرويد» أن السلبية الماسوشية والضَّعف هي صفات الأنوثة الطبيعية.

ولم يستطِع معظم هؤلاء العلماء معرفةَ الأسباب الاجتماعية لهذا البرود الجنسي (بسبب انفصال علم الطب والجنس عن علم التَّاريخ والمجتمع)، وقالوا إن المرأة بطبيعتها بطيئة، أو أبطأ من الرَّجل، سواء في مرحلة الإثارة أو المراحل الأخرى التي تليها، وإن أسباب هذا البطء هو اختلاف الرَّجل عن المرأة بسبب الفروق البيولوجية والتشريحية والهرمونات الذكرية النشطة، وإفرازات الغدد الصماء وغير ذلك.

لكن الذين درسوا الأسبابَ الحقيقية لهذا البطء أو البرود الجنسي وصلوا إلى هذه النتائج:

(١) في المجتمعات التي تعطي النِّساءَ حرياتٍ اجتماعية أكثر فإن هذا البرود يقل بشكل ملحوظ، وتكاد تقترب النِّساء من الرِّجال في سرعة الإثارة والأورجازم.

(٢) في المجتمعات التي تزيد من القيود على النِّساء فإن هذا البرود يزيد إلى حدٍّ أنه قد يمثِّل مشكلةً للأزواج الرِّجال الذين يُضطرون إلى تعاطي الحشيش وغيره من المخدرات التي تؤجِّل حدوثَ الأورجازم عند الرَّجل إلى حين حصول المرأة على شيء من الإشباع، وهذه الظاهرة منتشرة في بعض المجتمعات العربية وبالذات المجتمع المصري والسوداني الذي لا

يكتفي بالقيود القانونية والأخلاقية والاجتماعية على النِّساء، ولكنه يستأصل بظورَ البنات بعملياتٍ جراحية تسمَّى الطهارة أو الختان.[٣]

(٣) لا يزال المجتمع البشري خاضعًا بصفة عامة للحضارة الذُّكورية والأسرة الأبوية القائمة على العذرية والعفَّة والزواج الأحادي للنساء وتعدُّد الزوجات والتجارب الجنسيَّة (في العلانية أو في السر) للأزواج؛ ولذلك فإن الأغلبية من النِّساء ما زلن بارداتٍ جنسيًّا بدرجاتٍ متفاوتة حسب زيادة القيود أو انخفاضها.

(٤) ما زالت الأغلبية من النِّساء في العالم يعشن في كنف الزوج ولم يَنَلْنَ بعدُ الاستقلالَ الاقتصادي والاجتماعي.

وقد اتضح أن رغبات الأطفال الجنسيَّة تتشابه في الأطفال الذُّكور والإناث، وأن النشاط البظري في البنت الطفلة لا يقل عن نشاط العضو الذكري عند الطفل. وقال فرويد:[٤] «لقد وجدنا أن القوى الليبيدية نشطة في الطفلة الأنثى تمامًا كما هي في الطفل الذَّكر.»

لكن حين يكبر الطفل والطفلة ويدخلان مرحلةَ المراهقة فإن القيود الجنسيَّة تُفْرَض على الفتاة من أجل المحافظة على عذريتها، أما الشاب الذَّكر فإنه يُعْطَى حرياتٍ جنسية لا تُعطى لأخته البنت.

والسؤال الذي يبرز الآن: مع مَن يمارس الشاب الجنس؟ وبعبارة أخرى: كيف يصرِّف الشاب طاقتَه الجنسيَّة طوال سنوات المراهقة والشباب حتى يتزوج؟

ولا شك أن هذه إحدى المشاكل الجنسيَّة والنَّفْسية الرئيسية في مجتمعنا العربي والمصري للأسباب الآتية:

(١) الازدواجية الأخلاقية من حيث فرضُ القيود الأخلاقية والجنسيَّة على نصف المجتمع (الإناث)، وإباحة الحرية الجنسيَّة والأخلاقية للنصف الآخر (الذُّكور).

(٢) رغم إباحة الحرية الجنسيَّة للذكور فإن النظرة العامة للجنس لا تزال على أنه الإثم والدَّنس، ويربَّى الأطفال (ذكورًا وإناثًا) منذ الصِّغر على الكبت وعلى الإحساس بالذنب والنقص بسبب رغباتهم الجنسيَّة الطبيعية.

---

[٣] انظر «المرأة والجنس».

[٤] انظر «الأنثى هي الأصل».

(٣) انتشار الكتب الدِّينية والمواعظ الدِّينية والأخلاقية التي تدعو إلى الفضيلة والبعد عن الرذيلة (الجنس)، وبالذات في المراحل الوطنية الحرِجة حين تلجأ بعض القوى الاقتصادية الأجنبية أو الداخلية إلى إشعال الحماس الدِّيني أو خلق نعرات للتغطية على أزماتٍ اقتصادية وسياسية معينة.

(٤) انتشار الأفلام الجنسيَّة والمجلات والمسرحيات والأغاني والرقصات الخليعة العارية التي تلهب الرغبات الجنسيَّة، وتفشِّي الإعلانات في أجهزة الإعلام القائمة على جسد المرأة العاري من أجل تصريف البضائع والمنتجات على غرارِ ما يحدث في المجتمعات الرأسمالية.

(٥) الفصل بين الجنسين في معظم قطاعات المجتمع، وفي حالة إباحة الاختلاط يفتقد المجتمع وسائلَ الاختلاط من حيث الأندية والأنشطة التي تساعد على تنمية الصداقة والعلاقة بين الجنسين، بل العكس هو الصحيح، بمعنى أن الاختلاط يباح شكلًا ومظهرًا فقط، ولكن تُعاقَب أي فتاة تُصادق زميلًا لها (مجرد صداقة ولا أقول الحب).

(٦) الازدياد المستمر في عدد سنوات المراهقة والاعتماد على الأسرة في الإعالة بسبب طول فترة التعليم، وطول الفترة التي يقضيها الشاب بعد التعليم من أجل إعداد نفسه للزواج اقتصاديًّا بعد أن ارتفعت الأسعار وازدادت أزمة المساكن وتزايد عدد الشباب العاجزين عن الزواج لأسباب اقتصادية. ونتج عن كل ذلك ازدياد المسافة بين نضوج الشاب بيولوجيًّا وحاجته الشديدة إلى الجنس ونضوجه الاقتصادي بحيث يحصل على مرتب يساعده على الزواج. هذه المسافة في المتوسط لا تقل عن عشر سنوات (من ١٥–٢٥ سنة) فكيف يصرِّف الشاب طاقته الجنسيَّة خلال هذه السنوات؟

ومن الحقائق التي أصبحت معروفةً أن الطاقة الجنسيَّة كأي طاقة أخرى لا تضيع إذا كُبِتَت، ولكنها تنحرف عن مسارها الطبيعي إلى طرقٍ أخرى غير طبيعية.

وبدراسة الحياة الجنسيَّة للشباب في مجتمعنا نجد أن الشباب يتحايلون على إشباع حاجتهم الجنسيَّة والعاطفية بشتى الطرق وبأي الطرق. يمكن تلخيص هذه الطرق كالآتي:

(١) ممارسة الجنس مع النفس (العادة السرية)، وتُعتبر هذه العادة من أكثر الطرق انتشارًا بين الشباب؛ لأنها لا تكلف الشاب مشقةَ الحصول على امرأة، كما أن الإحساس بالذنب الذي يصاحبها أقلُّ من الإحساس بالذنب الذي يصاحب العملية الجنسيَّة الكاملة مع الجنس الآخر.

(٢) ممارسة الجنس مع الجنس نفسه (الجنسيَّة المثلية أو ما يسمَّى بالشذوذ الجنسي)؛[٥] بسبب أن الاختلاط مباحٌ بين الذُّكور، ولأن الجنس الآخر غير متوفر.

(٣) الخيالات الجنسيَّة وأحلام اليقظة والاحتلام، والإقبال على رؤية الأفلام الجنسيَّة والصور العارية، وكثرة الحديث عن الجنس كنوع من التنفيس عن طاقة مكبوتة لا تجد لها مخرجًا.

(٤) اللجوء إلى المومسات في حالة هؤلاء الشباب القادرين ماليًّا، خاصةً بعد أن ارتفع سعر المومسات أسوةً بارتفاع أسعار السلع الأخرى.

(٥) الاعتداء الجنسي على الخادمات في حالة هؤلاء الشباب من الأسرِ والطبقات القادرة على تشغيل الخادمات في البيوت. أو الاعتداء على الفتيات من الطبقات الأقل بصفةٍ عامة.

(٦) الاعتداء الجنسي على الأطفال البنات (وأيضًا الذُّكور) من داخل الأسرة أو من خارجها. وقد وجدت في أحدِ البحوث أن نسبة هذه الاعتداءات ليست قليلة كما يتصوَّر الكثيرون.[٦]

(٧) خداع الفتيات المراهقات والشابات باسم الحب أو الزواج من أجل تصريف الحاجة الجنسيَّة فحسب، ثم نقض الوعد أو الاختفاء من حياة الفتاة، وتكرار العملية مع فتيات أخريات.

(٨) التنفيس عن الطاقة الجنسيَّة بطرقٍ مَرضية مثل الالتصاق بالنِّساء في المواصلات العامة المزدحمة، أو الاستعراضات الجنسيَّة أو التعلُّق بملابس المرأة الداخلية[٧] أو الإصابة بالعصاب أو الأرق أو العنف أو العدوان أو الاغتصاب الجنسي أو غير ذلك من الانحرافات الجنسيَّة والأمراض النَّفْسية.

هذه هي الطرق المتاحة أمام الشباب في مجتمعنا. ولا يمكن أن ننكر أن هناك قليلًا من الشباب من الجنسين الذين حظُوا بأسرٍ متفتحة وظروف أفضل من ظروف الأغلبية من الشباب، وسمحت هذه الظروف بنشوء علاقات سليمة بين الجنسين، سواء كانت صداقة أم حبًّا.

---

[٥] انظر الفصل ٨ من هذا البحث.

[٦] انظر الجزأين الأول والثاني من هذا البحث، وانظر جريدة أخبار اليوم بتاريخ ٢٣ فبراير ١٩٧٤م، الصفحة العاشرة، والفصل الـ ١١ من هذا البحث.

[٧] انظر الفصلين التاسع والفصل العاشر من هذا البحث.

لكن هؤلاء هم الاستثناء وليسوا القاعدة. والسَّبب في ذلك أن الازدواجية الأخلاقية والاجتماعية تنعكس على نفوس النَّاس، مثلًا لو أخذنا الازدواجية الأخلاقية المنتشرة في مجتمعنا التي تقول:

(١) التجارب الجنسيَّة في حياة الرَّجل فخرٌ ورجولة.
(٢) التجارب الجنسيَّة في حياة المرأة عارٌ وانحطاط.

ما الذي يمكن أن ينتج عن هذه الازدواجية؟

إن الذي ينتج بطبيعة الحال، أن ينطلق الذُّكور في المجتمع ينشدون التجارب الجنسيَّة بأي شكل وبأي ثمن من أجل الحصول على الفخر وتأكيد الرجولة (وليس فقط من أجل الإشباع الجنسي)، بل إن هؤلاء الرِّجال الذين يعجزون عن ممارسة هذه التجارب يدَّعون كذبًا للآخرين أنهم مارسوها من أجل عدم الإحساس بالنقص أو الاتهام بفقدان الرجولة.

ومن أهم المشاكل التي تعاني منها طالبات الجامعة في مجتمعنا، أن الطالبة منهن ما أن تبتسم في وجه زميل أو تقول له «صباح الخير» حتى تنطلق الإشاعة بعد بضعة أيام بأن هناك علاقةً بين الطالبة وزميلها. ويتضح أن الذي بدأ الإشاعة هو هذا الزميل نفسه.

على أن هناك كثيرًا من الشباب الذين لا يطلقون مثل هذه الشائعات من أجل التفاخر فحسب، ولكنهم يظنون أيضًا أن الفتاة التي تقول «صباح الخير» أو تبتسم لزميل، فالمعنى الوحيد لذلك أنها تدعوه إلى السرير، أو على الأقل لا تعترض إذا هو طلب.

كان الاعتقاد القديم أن العادة السرية تفتك بصحة الشاب، لكن الدراسات والحقائق الجديدة أوضحت أن جميع الذُّكور والإناث يمارسون العادة السرية في فترةٍ ما في سن المراهقة، وأنها مرحلة طبيعية من مراحل النمو الجنسي.[٨]

الإشباع الذاتي أو العادة السرية يُعْرَف باسم «الأونانية» نسبةً إلى قصة «أونان وتامار» التي جاءت في التوراة، والتي قالت إن أونان لم يكن يحب زوجته، وكان يمارس الإشباع الذاتي قاذفًا سائله المنوي وبذور إخصابه على الأرض فلعنه الله.

ووجد العلماء أخيرًا أن الإشباع الذاتي مرحلةٌ طبيعية من مراحل النضوج الجنسي عند المراهقين والمراهقات، وأنه ليس عملًا شاذًّا، ووجدوا أن جميع الحيوانات تمارسه أحيانًا، وتمارسه دائمًا في حالة غياب الجنس الآخر.

[٨] انظر الجزأين الأول والثاني من البحث.

أما تحريم هذا النشاط الجنسي أخلاقيًّا أو دينيًّا فيرجع إلى أسباب اقتصادية؛ إذ إن المجتمع كان يشجِّع ولادة الأطفال وزيادة النسل، ولم يكن هذا النشاط الذاتي يزيد من عدد الأطفال بأي حال من الأحوال.

لكن من الحقائق المعروفة أيضًا أن التربية الخاطئة والكبت والفصل بين الجنسين يؤدي إلى أن يُفرط الشباب في ممارسة العادة السرية وأن يزاولوها فترةً أطول بحيث تؤثر على حياتهم الجنسيَّة مع زوجاتهم فيما بعد.

لقد اتضح مثلًا أن من أهم أسباب القذف السريع المنتشر بين الأزواج والرِّجال والشباب هو الإفراط في العادة السرية، فإن الإفراط في هذه الممارسة لفترات طويلة يسبِّب اشتداد حساسية رأس العضو (glans penis)، ثم ينتج عن ذلك نوعٌ من الاحتقان والتهاب الأنسجة والأغشية المخاطية، وبمرور الوقت ومع كثرة الممارسة يحدث القذف أو نزول السائل المنوي لمجرد لمس العضو باليد (وفي حالة الزواج بمجرد لمس مهبل المرأة)، وفي مثل هذه الحالات تضعف اللذة الجنسيَّة، وهذا يدفع الشباب إلى الممارسة الأشد من أجل الحصول على اللذة التي تعوَّدها، لكن اشتداد الممارسة يزيد من الاحتقان والالتهاب الذي يسبِّب بدوره مزيدًا من الضَّعف في اللذة، وهكذا يدور الشاب في حلقة مفرغة حتى يحدث القذف بغير لذة، وأحيانًا يحدث القذف بغير انتصاب على الإطلاق. وبهذا تكون الحالة قد وصلت إلى احتقان البروستاتا وبعض المجاري البولية، وتدخل تحت باب الأمراض العضوية.

ويلجأ الشباب إلى الإفراط في العادة السرية بسبب الكبت والقيم المزدوجة وفصل الجنسين؛ ولهذا ينتشر بين الشباب مشكلة القذف السريع بدرجاتٍ متفاوتة حسب درجات ممارسة العادة السرية. ويمثل القذف السريع أيضًا مشكلة جنسية أو نفسية لكثير من الزواج الشباب في بدء حياتهم الزوجية؛ لأن الواحد منهم ما إن يلمس زوجته حتى يقذف، أو أن مراحل العملية الجنسيَّة الأربع لا تستغرق إلا بضع ثوانٍ، ويمكن تلخيص أسباب سرعة القذف في النقاط الآتية:

(١) الخوف من العلاقة الجنسيَّة بالمرأة لأسبابٍ متعددة سبق شرحها.
(٢) عقدة النقص والإحساس بالذنب منذ الطفولة.
(٣) اللهفة الشديدة بسبب الحرمان والكبت الطويل الأمد.
(٤) الإفراط في العادة السرية للأسباب السابق شرحها، وأيضًا لنعومة مهبل المرأة بالنسبة ليد الشاب.

(٥) فصل الجنس عن الحب، واعتبار الحبيبة أو العروس ملاكًا طاهرًا، والجنس نوعًا من الدَّنس.

(٦) ختان الذُّكور الذي يزيد من حساسية رأس العضو (glans penis).

(٧) ختان البنات الذي يقلِّل من حساسية المرأة الجنسيَّة.

(٨) سرعة الذُّكور في الوصول إلى الأورجازم بسبب الحرية الجنسيَّة المتاحة لهم نسبيًّا.

(٩) تأخُّر المرأة في الوصول إلى الأورجازم؛ بسبب الكبت الأشد المفروض على المرأة.

(١٠) الخوف من ضَعف الانتصاب أو ضَعف القدرة الجنسيَّة وعدم إثبات الذُّكورة أو الفحولة.

(١١) الخوف من الأمراض التناسلية (بسبب الممارسات السابقة مع المومسات).

(١٢) العجز عن التخلُّص من الخيالات الجنسيَّة السابقة التي تكون دائمًا أكبرَ من الواقع. وقد وُجِد أن مثل هذه الأسباب قد لا تسبِّب القذف السريع فحسب، ولكنها قد تسبِّب عجزًا جنسيًّا كاملًا وعدم القدرة على الانتصاب وبالذات ليلة الزفاف، ويسمَّى طبيًّا «عجز ليلة الزفاف»، وقد يستمر هذا العجز الليلة الأولى فقط بسبب الخوف وتهيُّب الرَّجل من اللقاء الأول مع زوجته، وقد يستمر فترةً أطول حسب التجارب الجنسيَّة السابقة لهذا الرَّجل ودرجة مخاوفه من المرأة والجنس ودرجة إحساسه بالإثم أو النقص.

أما الاعتداء على الخادمات فهذه إحدى الظواهر الاجتماعية المتفشية في الطبقات المتوسطة وفوق المتوسطة والعالية، والاعتداء قد يقع على الفتاة الصغيرة من الأبناء الذُّكور ومن صاحب البيت أيضًا، وإذا لم تظهر علامات الحَمْل على الخادمة بقيت بالبيت تشتغل بالنهار، وفي الليل تؤدي دورها في التنفيس عن الطاقات الجنسيَّة المكبوتة لدى الذُّكور. لا يمكن لمثل هذه الخادمة أن تبوح لأحدٍ بهذه الأسرار خوفًا من أبيها الريفي أو الصعيدي، وخوفًا من أن تطردها صاحبة البيت.

أما إذا ظهرت علامات الحَمْل على هذه الفتاة فإن المشكلة تظهر على السطح، ولا يكون لها إلا أحد هذه الحلول:

(١) تتستر الأسرة على الخادمة خوفًا على ذكور العائلة، وتأخذها إلى طبيبٍ يجهضها نظيرَ أجرٍ كبيرٍ ثم تعود الخادمة إلى البيت أو تُطرَد وتذهب إلى بيتٍ آخر، وتتكرَّر المأساة في كل بيت تقريبًا.

(٢) تنكر الأسرة — وبالذات الذُّكور — علاقتهم بالخادمة، وتتهم الخادمة بأنها منحرفة السلوك ولها علاقاتٌ بالبواب والمكوجي والجزَّار، وتُطرَد الخادمة لتبحث بنفسها عن الحل، أو تطلب الأب ليأتيَ ويتسلَّم ابنته.

(٣) مصير الخادمة المسكينة إذا عرف أبوها القصة وكان «عصبيًّا» أو «صعيديًّا» القتلُ والدفن سرًّا من أجل التكتم على الفضيحة.

(٤) إذا لم يعرف الأب شيئًا، أو استطاعت الفتاة الهربَ بأي شكل فإنها تحاول إجهاض نفسها بالطرق الريفية (عود ملوخية) وقد تنزف حتى الموت بعد الإجهاض، وقد تنجو وتعيش وتعود إلى الخدمة بالبيوت وتتكرَّر المأساة.

(٥) قد يعطف على الفتاة طبيبٌ إنسانٌ ويجهضها بغير أجر، لكن معظم الأطباء يطردونها لأنها لا تملك الأجر، ثم تعود الفتاة إلى الخدمة بالبيوت حيث لا تملك عملًا آخر ولا تستطيع العودةَ إلى أهلها أو قريتها.

(٦) بعض هؤلاء الخادمات من ذوي المواهب الفنية الخاصة يلجأن إلى الحياة الفنية فيمارسن الرقص البلدي أو الغناء أو التمثيل، أو يشتغلن في حانات الليل مومساتٍ متنقلاتٍ بالأجر.

أما المومسات المستقرات في بيوتهن فهن أحسن حالًا من هؤلاء المتنقلات، وغالبًا ما يكون صاحب الحانة والبيت رجلًا قوادًا يشغل عددًا من النِّساء والفتيات بالدعارة، ويستغلهن ماليًّا وجنسيًّا ويهدِّدهن بالقتل أو الفضيحة إذا ما طالبت واحدةٌ بحقها أو فكَّرت في الهرب، وتُضطر الواحدة منهن إلى البقاء خوفًا من أسرتها أو خوفًا من التشرُّد والضياع والجوع.

وقد كان البغاء في مصر[٩] قانونيًّا وتحت إشراف الدولة، لكنه أصبح منذ سنة ١٩٥١م غيرَ قانوني. إلا أن تحريم البغاء لم يمنع وجودَ البغاء؛ لأنها ظاهرةٌ اجتماعية لها أسبابها الاقتصادية والأخلاقية، ولا يمكن أن تنتهيَ بقرار أو قانون، بل إن الدارسين لمجتمعنا يعرفون أن البغاء زاد انتشارًا إلى حدٍّ أن الصحف في السنين الأخيرة أطلقت عليه اسم «تجارة الرقيق الأبيض».

[٩] انظر فصل «المرأة والبغاء» في «الأنثى هي الأصل» في هذا الكتاب.

وبدراسة تاريخ نشوء البغاء في الحضارة الذُّكورية ندرك أن البغاء نشأ مع نشوء الأسرة الأبوية التي فرضت على المرأة زوجًا واحدًا وأعطت للرجال الحريةَ الجنسيَّة؛ ولهذا خلق المجتمع الذُّكوري فئةَ المومسات والجواري والسراري وغيرهن ليمارس الرِّجال معهن الجنسَ خارج الزواج. ويتضح أيضًا أن مشكلة الأطفال غير الشرعيين نشأت بنشوء الأسرة الأبوية؛ إذ إن الرَّجل لا يعطي اسمه لأطفاله من هؤلاء النِّساء اللائي يمارس معهن الجنس خارج الزواج. بمعنًى آخر: لقد أنتج النظام الأبوي في اللحظة التي نشأ فيها مشكلتين من أخطر المشاكل الاجتماعية والإنسانيَّة هما:

(١) البغاء.
(٢) والأطفال غير الشرعيين.

ولأن المجتمع هو الذي أنتجهما فقد كان لا بدَّ أن ينشئ لهما مؤسَّسات تحت إشراف الدولة، ومن هنا نشأت مؤسَّسات البغاء الرسمية، ومؤسَّسات ملاجئ الأطفال اليتامى وغير الشرعيين ومؤسَّسات الأحداث ... إلخ.

وهذه كلها وصماتُ عارٍ في جبين هذه الحضارة غير الإنسانيَّة التي تجعل النِّساء والأطفال الأبرياء كبوشَ فداء لشهوات الذُّكور الذين ألبسوا زوجاتهم حزام العفة الحديدي، ثم انطلقوا يعربدون مع المومسات والعشيقات والجواري ومَن ملكت يمينهم.

أما هؤلاء الرِّجال الذين يحاولون تصريفَ طاقتهم الجنسيَّة في المواصلات العامة المزدحمة عن طريق الالتصاق بالنِّساء أو الاحتكاك بهن من الأمام أو الخلف، فإنَّ هؤلاء الرِّجال نوعان:

(١) نوع طبيعي، ولكنه مكبوت جنسيًّا ولا يجد وسيلةً للإشباع الجنسي غير هذه الوسيلة.

(٢) نوع آخر، وهؤلاء هم الرِّجال الذين يحتكُّون بالنِّساء من الخلف، والسَّبب في ذلك أنهم يفضِّلون فتحة الشرج؛ لأنها أقلُّ تهديدًا لهم من مهبل المرأة بسبب الخوف من المرأة. أرجع فرويد مثل هذه الحالات إلى عقدة الإخصاء التي يشعر بها الطفل الذكر، وقال فرويد أيضًا إنَّ فتحة الشَّرج تظل عند الرِّجال مركزًا للإثارة الجنسيَّة بسبب خبرة طفولية قديمة ارتبطت بإخراج الفضلات واللذة معًا، فضلًا عن أن الإحساس بالذنب المترسِّب منذ

الطفولة يجعل الرَّجل يبتعد عن مهبل المرأة الذي ارتبط بالإثم. لكنَّ كثيرًا من العلماء رفضوا نظريةَ فرويد بأكملها عن الفترة التي سمَّاها «الفترة الشرجية» عند الطفل Anal stage، على أن التجارب أثبتت أن فتحة الشرج ترتبط في أذهان بعض النَّاس بلذَّة إخراج الفضلات، ولها عندهم شحنة عاطفية وجنسية معًا.

وقد وُجِد أن هؤلاء الرِّجال الذين يفضِّلون فتحةَ الشرج يميلون إلى ممارسة الجنس مع أمثالهم من الرِّجال (يسمَّى بالشذوذ الجنسي)، وفي الريف يميلون إلى هذه الممارسة مع الحيوانات.

ويقول بعض العلماء والباحثين إن الرِّجال بصفة عامة يشعرون بالحسد تجاه الحيوان حين يمارس الجنس؛ لأن الحيوان يمثِّل لهم الجسدَ فحسب بغير عبء الإحساس بالإثم أو الذنب. ربما يكون هذا أحدَ الأسباب في أنهم يفضلون الاتصال الجنسي بالحيوانات من أجل التخلص من الإحساس بالذنب أو التخفيف منه.

ويتضح لنا مما سبق أن الطاقة الجنسيَّة لا تضيع حين تُكْبَت، ولكنها إذا وجدت الطرقَ الطبيعية مسدودةً أمامها انحرفت إلى طرقٍ أخرى تؤدي بها إلى تفريغ شحنتها من أجل الوصول إلى الأورجازم.

ولكن الأورجازم الذي ينتج عن العلاقات الناضجة بين الجنسين القائمة على الحب والتبادل والتساوي يبعث في نفس كلٍّ من الرَّجل والمرأة إحساسًا أعمقَ وأشملَ بالسعادة واللذة لا يمكن أن يحصل عليها الشخص من الممارسات الأخرى البديلة؛ ذلك أن الجنس الناضج لا يمكن أن يتمَّ بغير حب ناضج، والحب الناضج لا يمكن أن يحدُث إلا بين أشخاص ناضجين، والنضوج لا يمكن أن يحدُث في ظل الكبت والخوف والكذب والازدواجية والإحساس بالنقص والذنب.

إن الأورجازم أو قمة اللذة ليست عمليةً فسيولوجية أو بيولوجية فحسب يمكن أن تتم عن طريق العادة السرية أو مع الحيوانات، ولكنها قمَّة الإحساس بالشخص الآخر وقمَّة الإحساس بالنفس، ولا يمكن أن تحدُث بهذا المعنى الإنساني الشامل المتبادل إلا بين إنسانين ناضجين، يلتقيان جسدًا ونفسًا وعقلًا كوحدة واحدة لا تتجزأ، على أساس من الاختيار الحر، والحب والتبادل المتساوي والصدق، بحيث لا يفصل بينهما جدارٌ من العُقَد والرواسب، أو أحاسيس النقص والذنب والكذب.

بمعنًى آخر: إن الأورجازم الجنسي لا بدَّ وأن يصاحبه في اللحظة نفسِها أورجازم نفسي حتى تتحقق تلك اللذة القصوى التي لا يعرفها إلا القليلون جدًّا من النِّساء والرِّجال،

والتي عجز عن وصفها الشعراء وعلماء البيولوجيا على حدٍّ سواء؛ بسبب انفصال الفن عن العلم[١٠] في حضارتنا الذُّكورية القائمة على فصل العقل عن الشعور، والجسد عن النفس.

إنَّ هذه اللحظة الرائعة حين تتحقَّق شعوريًّا وجسديًّا وعقليًّا فإنها يمكن أن تفجِّر في الإنسان كلَّ طاقاته الخلَّاقة وجميع قدراته الإبداعية. وهي ليست معجزةً وليست إلهامًا يهبط من السماء، ولكنها وعيٌ وجهاد طويل من أجل النضوج الإنساني جسدًا ونفسًا في ظل ظروف اجتماعية فضلى، إنه الطريق الصعب والوحيد نحو الحب.

[١٠] كثير من النَّاس في مجتمعنا يُبْدُون دهشةً (ممزوجة بالاستنكار) حين يرون طبيبًا يكتب الشِّعر أو الأدب. وقد تعرَّضت لهذا السؤال من كثير من النَّاس: كيف تكتبين أدبًا وقصصًا وأنتِ طبيبة؟ أو كيف تُمارسين الطِّبَّ وأنتِ أديبة؟ وهل يمكن الجمع بين الاثنين؟!

حنينُ الرَّجل لأن يكونَ أنثى

إذا واجه الرَّجل، أي رجل، نفسَه بصدقٍ وشجاعة وثقة، فسوف يدرك أنه يشعرُ، أو شعرَ في يوم من الأيام، بحنينٍ دفين لأن يكونَ أنثى.

هذا الحنين المدفون في العقل الباطن لكل رجل ليس انحرافًا أو شذوذًا، إنه شعور طبيعي يشعر به كل جنس تجاه الجنس الآخر.

وكان المفكِّر اليوناني القديم يعتبر الجمال صفةً منفصلة عن الذُّكورة والأنوثة، بل إنهم صوَّروا إلهَ الجنس «إيروس» في صورةِ جسمٍ بديع متناسق يشتمل على أعضاء الذكر والأنثى معًا. ومن المعروف أن كلمة «هيرمافروديت» (Hermaphrodite) — وتعني علميًّا «الخنثى» — قد أُخِذَت من الأسطورة اليونانية عن «هرمس» الذي عشقته «أوفرديت» ورجَتِ الآلهة أن يندمج جسده في جسدها، وأجابت الآلهة دعوتها ووُلِد «هرمافروديت» الخنثى.

وهذا يدل على أنه رغم جهل اليونانيين في ذلك الحين بالبيولوجيا ونظرية ازدواجية الجنس في الإنسان إلا أنهم استطاعوا أن يدركوا ذلك بمشاعرهم وأحاسيسهم الفطرية.

وتقول كارين هورني في هذا المعنى: إن ازدواجية الجنس عند الإنسان تظهر في الأطفال بوضوح أكثرَ من غيرهم؛ لأنهم لا يدركون كالكبار تحديدَ جنسهم، وقد ترى عند بعضهم رغبات جنسية مزدوجة ساذجة وبريئة، فتشعر البنت أحيانًا أنها ذكر، ويشعر الذكر أنه بنت، ولكن المجتمع يحدِّد لكلٍّ منهما صفاته ودوره، فيكبت الذكرُ شعورَه بالأنوثة، وتكبت البنت شعورها بالذُّكورة.[١]

---

[١] انظر: «المرأة والجنس»، ص٣٧.

ومن النَّاحية البيولوجية والتَّشريحية أيضًا فإنَّ جسم الإنسان مزدوج الجنس. البظر يقابل عضو الرَّجل، ويلعب في الجنس دورًا مشابهًا ويمتلئ بالدَّم وينتصب. إنَّ ثدي الرَّجل حسَّاس للجنس كثدي المرأة، ويمكن أن يكبر حجمه بحقن الهرمونات المناسبة.

بمعنًى آخر، إنَّ التَّكوين التَّشريحي والبيولوجي للإنسان لا يضع فروقًا كبيرة بين الجنسين، وإنه ليس هناك مَن هو ذكر ١٠٠٪ أو أنثى ١٠٠٪.

لكن المجتمع هو الذي يضع الفروق من أجل أن تنقسم الوظائف داخل الأسرة الأبوية وخارجها إلى وظائفَ ذكرية ووظائف أنثوية.

إنَّ عملية التكيُّف الاجتماعي التي تحدث لكل إنسان تحدُث في عقله الواعي فقط. إن العقل الواعي في الرَّجل هو الذي يجعله ذكرًا حسب المقاييس والأوصاف الاجتماعية السائدة للذكورة. وإن العقل الواعي في المرأة هو الذي يجعلها أنثى حسب المقاييس والأوصاف الاجتماعية السائدة للأنوثة. والعقل الواعي في الإنسان ليس إلا جزءًا من عقله الكلي. أما الجزء الآخر الأعمق فهو العقل الباطن، وهو الذي يحتفظ بصفاتِ الإنسان الأصلية المزدوجة التي تجمع الذكر والأنثى معًا، والتي وصفها «يونج» وسمَّى الجزء الأنثوي في الرَّجل (Anima) والجزء الذكري في المرأة (Animus).

إنَّ معظم المشاكل النَّفْسية والجنسيَّة ترجع إلى ذلك الصراع الدائم بين الفترة الواعية من المخ وبين الجزء الآخر الأعمق من العقل الذي يسمَّى بالعقل غير الواعي. إنَّ مرض انفصام الشخصية المعروف بالشيزوفرينا يتميَّز بعجز الإنسان عن أن يكون نفسه الكلية أو عقله الكلي. بمعنًى آخر، إنَّ عقله الواعي وغير الواعي أصبحا عقلًا واحدًا واعيًا ناضجًا.

على أنَّ أغلبية النَّاس تقع في منتصف الطريق ما بين النضوج الكامل والانفصام الكامل. إن معظم النَّاس يشعرون بالصراع بين العقل الواعي (تعاليم الأهل والمجتمع) وبين العقل غير الواعي (الرغبات الحقيقية).

وإني أعتقد أنَّ تسمية العقل الباطن بالعقل غير الواعي تسميةٌ غير صحيحة؛ إذ من الخطأ أن نتصوَّر أن العقل الباطن لا يعي. إنه يعي كلَّ شيء، بل إنَّ وعيه قد يكون أكثرَ وأعمق من العقل الظاهر الذي يخضع بسرعة، ويدخل في القالب الذي وضعه له المجتمع. والمشكلة في حالة الانحرافات والأمراض النَّفْسية والجنسيَّة ليست في أن العقل الباطن لا يعي وأن العقل الظاهر هو الواعي. لكن المشكلة أن المسافة التي تفصل بين العقلين كبيرة، ولذلك يصبح الصراع عنيفًا.

كلما ضاقت المسافة بين العقلين: الظاهر والباطن اقترب الإنسان من النضوج؛ فالنضوج هو التحام العقلين معًا في عقلٍ واحدٍ واعٍ. النضوج هو أن يكون للإنسان

عقل واحد أو نفس واحدة هي نفسه الحقيقية، وأن يكون وحدةً واحدة لا انفصالَ فيها بين الجسد والنفس.

وقد قسَّم «فرويد» النفسَ إلى «الأنا الأدنى» و«الأنا» و«الأنا الأعلى»، وقال إنَّ «الأنا الأدنى» هي الغرائز الطبيعية، وتحتوي على غريزة الحياة وغريزة الموت والغريزة الحيوانية التي تؤمن بمبدأ اللذة والإشباع فقط بصرف النظر عن المجتمع الخارجي.

أما «الأنا الأعلى» فهي الجزء من العقل الذي يدمج قيم الوالدين والمجتمع فيه، ويمثِّل السلطة الأبوية والاجتماعية والتقاليد والقوانين والأخلاق.

وقال فرويد إن «الأنا»، وهي الإنسان ذاته، تتأثَّر بالأنا الأعلى وتحاول إخضاع الأنا الأدنى، وتتوقَّف شخصية الإنسان النهائية على النتيجة الأخيرة للصراع بين الأنا الأدنى والأنا الأعلى من خلال «الأنا».

لكنَّ كثيرًا من العلماء، ومنهم هورني وفروم، نقدوا فكرةَ فرويد عن «الأنا» «والأنا الأدنى».

وإذا عُدنا إلى حياة الطفل فإن الطفل يولَد بعقل واحد، وأنه يظل هذا العقل الواحد فترةً قصيرة إلى أن يبدأ يشعر بضغوط الأهل والمجتمع فينقسم إلى عقلٍ ظاهر يتكيَّف اجتماعيًّا وإلى عقل باطن يحتفظ بالصفات الأصلية.

وفي مرحلة العمر من الطفولة إلى النضوج يجاهد الإنسان من أجل أن يصير مرةً أخرى العقل الواحد الذي كان عليه وهو طفل. وهذا هو السَّبب في أن الإنسان حين يصل إلى النضوج يشعر بسعادةٍ يقول عنها إنها تشبه سعادته الخالصة وهو طفل. وهذا هو السَّبب في تلك الطفولة التي نراها أحيانًا عند أعظم الفنانين والعباقرة والأنبياء والزعماء الناضجين. إن وصولهم إلى الإحساس بنفسهم الكلية أو عقلهم الكلي يمنحهم شعورًا بالتكامل النفسي الذي خبروه وهم أطفال قبل أن يعرفوا ضغوطَ الأهل والمجتمع، وهذا هو السَّبب أيضًا في أن الذين يحبُّون حبًّا ناضجًا تبدو عليهم أحيانًا (مثلهم مثل الفنانين والعباقرة) سماتٌ طفولية، فإذا بهم على طبيعتهم كالأطفال، وسعادتهم تشبه سعادةَ الأطفال.

إنَّ الإنسان الناضج كالطفل يتعامل بنفسه الكلية مع النَّاس من حوله. إنه حين يحب فإنه يحب بنفسه الكلية، وحين يعمل شيئًا فإنه يعمله بنفسه أو عقله الكلي. ومن هنا أهمية النضوج لأي فنان يريد أن يكون فنانًا عظيمًا. فالفن العظيم لا يتحقَّق إلا حينما يعطيه الإنسان نفسه الكلية. بقدرِ ما تعطي الفن يعطيك، وبقدرِ ما تعطي الحب يعطيك.

والطفل في حياته الأولى يحب النَّاس من حوله بنفسه الكلية. وأول شخص يراه أمامه هو أمُّه؛ ولذلك يحب الطفل أمَّه، وهناك بعض أطفال يحبُّون الأب إذا كان الأب هو الذي يرعى الطفل أكثرَ من الأم. وقد لا يكون هذا الشخص الأول هو الأم، ولا هو الأب، وإنما إنسانًا آخرَ يربي الطفل ويحنو عليه. المهم عند الطفل هو أن يحصُل على الرعاية والغذاء والحنان والحب.

ويشعر الطفل بالحب والتعلُّق بهذا الشخص الذي يعطيه الحب. إنه يحب أمَّه ويحب أباه ويحب كلَّ مَن يعطيه الحب. ولأن الأمَّ هي التي تعطي الطفل أكثرَ فهو يحبها أكثرَ. إنه يحبها كطفل، أي إنه يتعامل معها بنفسه الكلية بغير انفصام بين الجسد والنفس أو العقل الواعي والباطن أو الذكر والأنثى أو الحرام والحلال. إنه يحبُّها بنفسه وجسده وكل شيء فيه.

لكن الأم ترفض تعامُلَه الجسدي (بسبب أن الأم من المحرَّمات) وتقبل تعامُلَه النفسي، ومن هنا بدأ الانفصال بين الجسد والنفس. كما أنها تنهره إذا لمس أعضاءه الجنسيَّة ومن هنا الإحساس بالذنب. وهي تنهره إذا بكى أو ضعُف وتقول له: أنت صبيٌّ ولست بنتًا، ومن هنا الإحساس بالذُّكورة. ونتج عن ذلك كلِّه، كما سبق أن ذكرتُ، الإحساس بالنقص.

لهذا لا يستطيع أن يحب الطفل أمَّه حبًّا خالصًا. إنَّ حبه لها يشوبه دائمًا إحساسٌ بالخوف منها؛ فهي أكبرُ منه، وهي قادرةٌ على نهره أو ضربه أحيانًا، وهي قادرة على الإضرار به. وهو يحتاج إليها لكي يعيش.

ويعيش الطفل الصراعَ بين حاجته إلى أمه وخوفه منها، وبقدرِ ما يحتاج إليها بقدرِ ما يخاف منها. إنها تبدو في نظره قويةً متسلِّطة (في حالة غياب الأب في معظم الأسر الأبوية وتفرُّغ الأم للطفل)، تمثِّل الأم في نظره الجنسَ الأقوى المسيطر؛ ولهذا يشعر معظم الأطفال، ذكورًا وإناثًا، في بدء طفولتهم أن الجنس الأقوى هو الأم. وهذا أمرٌ قد يبدو في نظر الطفل الذكر مشكلة؛ لأنه كذكر لا بدَّ وأن يؤكد نفسه كالجنس الأقوى. وبما أنَّ الأم تمثِّل له هذا الجنس الأقوى فهو يتمثَّل شخصية الأم. بمعنًى آخر، إنه يحاول أن يكون كأمِّه، أنثى، أو أنه على الأقل يتمنَّى أن يكون كذلك. إلا أنه سرعان ما يكتشف أن الأنثى ليست هي الجنس الأقوى بحالٍ من الأحوال، وأن أخته تُحْرَم من الميزات الممنوحة له، وأنَّ أباه في وضعٍ أعلى من أمه، وبذلك يُشْفَى من رغبته في أن يكون أنثى ويتجه إلى شخصية أبيه فيتمثَّلها ليصبح مثل أبيه.

لكن هناك بعض الأطفال الذين لا ينتقلون إلى مرحلةِ تمثُّل الأب ويظلون برغبتهم في تمثُّل الأم. وقد اختلف علماء النفس والجنس في أسبابِ هذه الظاهرة عند بعض الرِّجال. ترى الرَّجل منهم وقد ارتدى ملابسَ المرأة وجلس أمام المرآة وأخذ يمارس العادة السرية بلذة كبيرة. وهناك مَن يذهب إلى الطبيب الجرَّاح من أجل أن يقطع عضوه ويحوِّله إلى أنثى، وهناك حالاتٌ أخفُّ من ذلك كثيرًا حين تسيطر على الرَّجل الفكرة فحسب دون أن يخرِجها إلى حيِّز التنفيذ.

يقول بعض العلماء إنَّ مثل هذا النوع من الرِّجال يحاول عن طريق هذا الانحراف أن يخلق المرأة التي في خياله. وفي خيال كل رجل امرأةٌ معيَّنة. إنه يرتدي ملابس وشخصية المرأة التي يريدها. قد تكون المرأة التي يريدها حنونًا أو قاسية، قوية متسلِّطة أو ضعيفة خاضعة. إنه يرتدي بالضبط ما يريدها أن ترتدي، ويسلك معها بالضبط كما يشاء ويرغب دون أن يواجه الموقف الذي يُضطر فيه إلى فرض رغبته على امرأة حقيقية، وحين يجلس أمام المرآة فإنه يقوم بالدور الذي كثيرًا ما تمنى أن تقوم به الأنثى نحوه، لكنه كان يفشل دائمًا (بسبب خوفه من المرأة الحقيقية) في أن يجد المرأة التي يمكن أن تلعب له هذا الدور. وهناك مَن يقول إن الرَّجل من هؤلاء يتوحَّد بشخصية الأنثى، أي إنه يصبح هو المرأة نفسها بعد أن عجز عن أن يعثر على هذه المرأة في واقعه.

وتتفق الآراء على أن هذا الانحراف يحدث بسبب عدم نضج الرَّجل، وعجزه عن إقامة علاقة مشبِعة مع امرأة حقيقية؛ لأنه فاقد الثقة في رجولته، يشعر في أعماقه أنه لن يُرْضِي المرأة؛ لأنها أقوى منه؛ لأنها مثل أمه (الجنس الأقوى في نظر الطفل) والجنس الذي يخاف منه.

ويقول بعض العلماء: إن الخوف البدائي القديم من المرأة يظل عالقًا ببعض الرِّجال، الخوف من المرأة، الإلهة الأنثى القديمة القادرة على خلق الحياة وتدميرها في الوقت نفسه، الخوف القديم من أنَّ المرأة في العلاقة الجنسيَّة بالرَّجل تحتوي عضوَ الرَّجل داخلها وقد تحطِّمه أو تسحقه.

وتقول بعض الآراء إن مثل هذا النوع من الرِّجال لا يمارس الجنس إلا مع الرِّجال؛ أي إن هذا الانحراف يصاحبه أيضًا شذوذ جنسي. لكن كينزي أشار إلى أن هذين النوعين من الانحراف منفصلان، وأنه في حالاتٍ قليلة فقط يجتمع الانحرافان في رجل واحد.

ويقول فرويد إن الرَّجل الذي يتمثَّل الأنثى يفعل ذلك بسبب حبِّه لأمه وهو طفل، ورغبته في أن يكون مثلها؛ فالذي يحب شخصًا يرغب في أن يكون مثله. ويقول

«هافلوك إليس» إن رغبة الرَّجل في أن يكون أنثى ليس إلا نوعًا من المبالغة في الميل الطبيعي عند أي إنسان، ذلك أن يصبح مثل مَن يحب. كم من رجلٍ يقول للمرأة التي يحبها: كم أود أن أكون أنا أنتِ وأنتِ أنا. وهي رغبةٌ طبيعية وبسيطة، تحدُث للرجل حين يحب، وتحدُث للمرأة حين تحب. هي بقايا خيالات طفولية، قبل أن يعرف الطفل معنى الذكر والأنثى، وقبل أن يتحدَّد من داخله ومن خارجه كل جنس على حدة.

في إحدى روايات الحب يقول الرَّجل لحبيبته: لا أدري يا حبيبتي ماذا يمكن أن أشعر حين أصبح أنا أنتِ، حين أصبح مركزَ الكون في نظر إنسان آخر، حين أكون جميلًا ورقيقًا وساحرًا، حين أعيش تحت هذا الشَّعر الناعم، وأملك هاتين العينين الساحرتين، والخَصر الضامر النحيل، حين أملك القوة والضَّعف معًا، وأملك هذا الجسد وأعرف كيف يتنفس وكيف تصبح له رائحة تجعل قلبي يخفق وصوابي يُفْقَد!

إنَّ العلاقات الإنسانيَّة العميقة لا تفرِّق بين الأشخاص أو الأجناس أو الذُّكور أو الإناث. العلاقات الإنسانيَّة العميقة تقوم على إلغاء الفروق بين النَّاس. إن الرَّجل الذي يجد المرأة مخلوقًا مختلفًا عنه، أو أنها لغز لا يفهمه، أو شيء محاط بالأسرار، وكذلك المرأة التي تجد الرَّجل غامضًا غير قابل للفهم، هذان الاثنان يعجزان عن إقامة علاقة إنسانيَّة عميقة بينهما، أو يعجزان عن الحب؛ لأن المحبِّين يشعرون بالتشابه، ويفرحون بأي تشابه جديد في الذوق أو النظر إلى الحياة أو الميول الفنية ... إلخ.

ولهذا فإن الحنين داخل كل رجل ليكون امرأة، وداخل كل امرأة لتكون رجلًا ليس إلا حنينًا طبيعيًّا، وجزءًا من كل إنسان، وقد تميز أعظم الفنانين بقدرتهم على تصوير هذا الحنين وغيره من المشاعر الإنسانيَّة الدفينة.

أمَّا الانحرافات التي سبق وصفُها فهي مبالغات مَرضية لهذا الحنين تنتج عن الخوف الذي يعيشه الأطفال والإحساس بالذنب والنقص. وهي تظهر أكثرَ في الرِّجال؛ لأن الرَّجل الذي يريد أن يكون امرأة يبدو منحرفًا في نظر المجتمع الذُّكوري أكثرَ من المرأة التي تريد أن تكون رجلًا؛ لأن الرَّجل بذلك يخسر رجولته ذات القيمة العالية، أما المرأة فهي لا تخسر وإنما قد تكسب؛ لأنها تنضم إلى الجنس الأسمى.

كلما ازداد الرَّجل نضوجًا وثقةً بنفسه قلَّ تحرُّجه من إظهار الرقة والضَّعف والحنان ويبكي أحيانًا؛ بمعنًى آخر لا يخجل من أن يُظهِر جزءه الأنثوي. وكذلك المرأة كلما ازداد نضوجها وثقتها في نفسها لم تَعُد تتحرَّج من إظهار القوة والإيجابية والشهامة والمروءة والشجاعة والإقدام؛ بمعنًى آخر لا تخجل من إظهار جزئها الذكري.

وهذه قصةٌ حديثة جدًّا تشرح هذا المعنى: الْتَقى شاعرٌ عالمي بارز في أحد المؤتمرات الأدبية بامرأة أديبة بارزة، وشعر الشَّاعر أنه ينجذب لهذه المرأة. وفي اليوم الأخير في المؤتمر الْتَقى الشَّاعر بالأديبة في الحفل الختامي فقال لها معبِّرًا عن شعوره الجيَّاش نحوها: يا عزيزتي، إنَّ جزئي الأنثوي قد انجذَب إلى جزئك الذَّكري.

وابتسمت الأديبة ابتسامةً عريضة، وقالت له: هذه أجمل عبارة غزل سمِعتها في حياتي.

الرَّجل والشُّذوذ الجنسي

لعلَّ أهمَّ سلاح لجأ إليه الذَّكر البدائي في حربه على الأنثى البدائية كان هو عضوه الذكري. وقد أدرك الرَّجل أنَّ المرأة تملك القدرةَ على خلق الحياة، وهي التي تسيطر على الحياة بالطبيعة، فأضمر لها الخوف والكراهية معًا، حتى حانت الفرصة فانقضَّ عليها وعزلها عن عرشها. ولم يكن يملك في ذلك الوقت من أسلحة سوى عضوه الذكري، ولهذا قيل إن حادث الاغتصاب هذا كان حادثًا جنسيًّا انتقلت فيه السلطة من المرأة إلى الرَّجل لأسبابٍ لا علاقة لها بالشهوة الجنسيَّة أو الحُب، وإنما لأسبابٍ اقتصادية متعلِّقة بالأرض والنَّسب والإرث.

ومنذ ذلك العهد بدأت تظهر الرسومات والتماثيل التي تمجِّد عضو الذكر بعد أن كانت هذه الرسومات تصوِّر المرأة وأعضاءها ككائنات ضخمة قوية إلهية، وإلى جوارها الذكر ليس إلا عضو تناسل صغيرًا. وفي آثار قدماء المصريين بعد أن كانت المرأة تُصوَّر بحجمٍ مماثل لحجم الرَّجل أو أكبر منه أصبحت تُصوَّر بحجمٍ أصغر من الرَّجل.

أما الفن اليوناني القديم فلم يفرِّق بين الرَّجل والمرأة، واعتبر الجمالَ صفةً منفصلة عن الذُّكورة والأنوثة، لم يكن الذُّكور يسيطرون على المجتمع، وكانت النِّساء قويات، وقد سيطرن على الحكم فترةً من الزمن، وصوَّر اليونانيون القدامى إلهَ الجنس «إيروس» في صورة جسم متناسق الأعضاء يشتمل على أعضاء الذكر والأنثى معًا.

لكن سرعان ما تغيَّرت نظرة اليونانيين الفنية بعد أن سيطر الرِّجال على المجتمع، وأصبح الفن يركِّز على عضو الذكر. وانتشر الاعتقاد بأن عشق الرَّجل للرجل أعلى قدرًا من عشق الرَّجل للمرأة، وعبدَ اليونانيون ذكورتهم وبالذات العضو الجنسي. وكانوا يفخرون بأن عشق الرَّجل للرجل كان يمارسه أجدادهم الأوائل «الدوريان»، وفي كل عام يقيمون

كرنفالًا ضخمًا سُمِّي «ديونيسيوس»، وكان كرنفالًا ذكريًّا خالصًا لا يحضُره إلا الذُّكور فقط حيث يجتمعون معًا ويعبدون عضوهم الذكري في هذا المهرجان الضخم.

وقد كان أفلاطون نفسه شاذًّا جنسيًّا، وكتب في «محاوراته» على لسان أرستوفان أن الرِّجال الذين يَهَبون أنفسهم للشذوذ الجنسي جسدًا ونفسًا هم من الذين يَصلحون للحكم فقط. ويفرِّق أفلاطون بين نوعين من الحب؛ الحب المدنَّس وهدفه الوحيد الإشباع الجنسي، والحب المقدَّس وهو التوافق الروحي والفكري، ولا يمكن أن ينشأ إلا بين الرِّجال. وبهذا لم يكن للنساء مكانٌ في الحب الأفلاطوني ولا في مدينته الفاضلة! وهكذا يستطيع الرَّجل دائمًا أن يضع ثوبَ الفضيلة والقدسية على كل رغباته حتى الشاذة منها. أمَّا المرأة فإن رغباتها الطبيعية مدنَّسة لمجرد أنها امرأة.

وكان «مايكل أنجلو» شاذًّا جنسيًّا. ويقال إن هذا هو السَّبب في أنه كان في رسومه يضخِّم عضو الذَّكر تضخيمًا ليس له مثيل في العالم الفني.

وقد انتشر الشذوذ الجنسي بين الرِّجال في العصور الوسطى، وزاد في الفترات التي حُقِّرت فيها المرأة، أو نادى فيها رجال الكنيسة بالصوم الجنسي وتحريم الاتصال بالأنثى تشبهًا بالمسيح الذي لم يلمس امرأة، أو تشبهًا بالعذراء التي لم يلمسها رجل. وفي هذه الفترات التي اشتدَّت فيها الدعوة إلى الامتناع عن النِّساء كان الانجذاب نحو الرِّجال يبدو وكأنما هو أقلُّ خطيئة. وقد انتشر الشذوذ الجنسي بين الرِّجال، وبالذات رجال الكنيسة الذين حرَّم القانون عليهم الزواج.

في بداية انقشاع ظلام العصور الوسطى وانفتاح العقول قليلًا بعد بدء الثورة الصناعية وتشجيع المجتمع الزواجَ لزيادة عدد السكان تلبيةً لحاجات الصناعات الجديدة الناشئة، لم يَعُد يهمُّ المجتمع كثيرًا كيف يجيء الأطفال (من زواجٍ شرعي أو غير شرعي)، المهم أن يزدادَ عدد الأطفال بأي شكل. ولهذا زاد الأطفال الشرعيون وغير الشرعيين، ولهذا لا يكاد يعرف التاريخ اسمَ رجلٍ بارز إلا ويجد له طفلًا غيرَ شرعي؛ بل إن معظم البارزين في ذلك العصر كانوا أنفسهم أبناءً غير شرعيين مثل بوكاشيو وليوناردو دافنشي وأرتينو وجورجيون وغيرهم. ولم يكن للابن غير الشرعي أن يرِث شيئًا عن أبيه. وكان هؤلاء جميعًا رجالًا مكافحين أرادوا أن يعوِّضوا بفنِّهم وفكرهم ما فقدوه من ثروة الأب. ولم يكن هؤلاء الأبناء غير الشرعيين يفقدون شيئًا إلا الميراث، أما الشرف الاجتماعي فكان لهم مثل إخوتهم الشرعيين، والسَّبب في ذلك أن الملوك ورجال الكنيسة كان لهم جميعًا من الأبناء غير الشرعيين أكثر مما لهم من الأبناء الشرعيين.

وقد اصطدمت حاجات المجتمع الجديدة بالأفكار الدِّينية التي تؤمن بها الكنيسة، لكن الصراع سرعان ما أسفر عن انتصار الأفكار الجديدة المتصلة بالحاجات الاقتصادية والاجتماعية وانهزمت الكنيسة، واضطُرت، حتى لا تعترف بالهزيمة صراحةً، أن تطوِّر في أفكارها بحيث تعترف بالقيم الجديدة دون أن يفقد النَّاس إيمانهم بها.

وبدأت تجتاح أوروبا تلك الموجة من الانفتاح الجنسي بعد انغلاق العصور الوسطى. وصاحَبَ هذا الانفتاح ظهور رجال يفخرون بأي ممارسة جنسية وإن كانت شاذة.

ومن أشهر هؤلاء جان جاك روسو، الذي نشر «اعترافاته» الشهيرة التي ظهرت في القرن الثامن عشر وفتحت الطريقَ أمام الرِّجال، وأخذوا يتبارون في نشر اعترافاتهم الجنسيَّة الشاذة والطبيعية معًا.

وقد ثار جان جاك روسو على قيم العصور الوسطى ونادى بالحب وبأن يكون الحب هو سببَ الزواج وليس المال أو المصالح الاجتماعية، لكنه قوبل بعاصفة من رجال الدِّين الذين تعرَّضوا لحياته الجنسيَّة الخاصة. وكان روسو يمارس طريقةَ الإشباع الذاتي (العادة السرِّية) في الجنس بسبب علاقته الوثيقة بمربيته التي أحبَّها أكثرَ من الأم، هذه العلاقة التي أعجزته عن الاتصال بامرأةٍ أخرى إلا من نفس النوع، أي الأكبر منه سنًّا التي تعامله كابنها. وبالطبع لم يكن يوفَّق روسو في العثور على المرأة التي يريدها بسهولة، فكان يلجأ إلى طريقة الإشباع الذاتي. لكنه أنجب عددًا من الأطفال من بديلات الأم اللائي عاشرهن، وأرسل جميع أطفاله إلى بيوت الأطفال غير الشرعيين التي كانت منتشرةً في ذلك الوقت، ويقال إنَّ في فرنسا وألمانيا فاق عدد الأطفال غير الشرعيين الأطفالَ الشرعيين، وكانت الدولة هي التي تفتح لهم البيوت وترعاهم، بل وتشجِّع على زيادتهم بسبب الحاجة الملحَّة إلى الأيدي العاملة في الصناعات الجديدة الناشئة ولحاجة أوروبا إلى أعدادٍ أكثرَ من الرِّجال تلبيةً لحاجات الحرب.

وابتداءً من روسو الذي كان يمارس الإشباع الجنسي الذاتي، إلى الماركيز دي ساد الذي كان مريضًا بالسادية وحبِّ التعذيب وإراقة الدم، توالى عدد من الرِّجال البارزين في الحضارة الحديثة، ومنهم أوسكار وايلد الذي حُبِس بسبب شذوذه الجنسي، وأخيرًا أندريه جيد الذي تفاخر بشذوذه الجنسي.

كان هذا التيار الجنسي القوي الذي كسر قيودَ العصور السابقة وتزمُّت الكنيسة مدعمًا بالحاجات الاقتصادية المُلِحَّة من أجل الحصول على مزيد من الأطفال. وقد استفاد من هذا التيار الداعي إلى التحرُّر كلُّ الرِّجال ذوي الميول الشاذة، بل حدثت مباراة أو شبه

مباراة بين الدول الأوروبية لإعلان تحرُّرها الجنسي، وذلك بإلغاء القوانين القديمة التي كانت تَفرض على النَّاس نمطًا معينًا من السلوك، واعتُبر السلوك الجنسي مسألةً خاصة جدًّا بالإنسان، ولا دخل للدولة فيه إلا في حالة الاعتداء على شخص آخر بالقوة. وكانت إنجلترا هي أول دولة أوروبية تلغي القانون الذي يحرِّم الشذوذ الجنسي بين الرِّجال. وبدأ العلماء يرفضون استخدامَ اصطلاح الشذوذ الجنسي على أساس أن النشاط الجنسي ليس فيه ما هو شاذٌّ ولا ما هو طبيعي، وأن النشاط الجنسي الصحيح هو الذي يحقِّق لصاحبه الإشباعَ وأقصى لذَّة ممكنة بصرف النظر عن شكل هذه الممارسة.

وبدأت مثل هذه الاصطلاحات كالشذوذ الجنسي والانحرافات الجنسيَّة تُحْذَف من قواميس لغة الجنس الحديث، بعد أن اتضح للعلماء أن النشاط الجنسي عند الإنسان واسعُ التنوُّع وشديد الاختلاف من فرد إلى فرد، ومن مجتمع إلى مجتمع، ومن طبقة إلى طبقة، بل إنه يختلف عند الفرد الواحد من وقتٍ إلى وقت ومن ظروف إلى ظروف.

ولعل هذه إحدى سِمات الطاقة الجنسيَّة عند الإنسان؛ فالحاجة إلى الجنس أو إلى الغريزة الجنسيَّة عند الإنسان تختلف عن الغريزة إلى الطعام. إن الإنسان حين يشعر بالجوع أو إفراغ مَعِدته، فإنه يملأ هذه المَعِدة بالطعام. والطعام هنا «شيء» يملأ به الإنسان فراغًا؛ أي إن التعامل هنا بين حياة الإنسان وبين شيء من الأشياء.

لكن الجنس في حياة الإنسان تعامُل مع شخص آخر. وهذه ميزة الجنس في حياة الإنسان، لكنها أيضًا مشكلته الكبرى؛ لأن التعامل مع الأشياء أسهل من التعامل مع الأشخاص. علاقة الإنسان بالطعام تنتهي بمجرد أن يلتهم الطعام داخل مَعِدته. لكن العلاقة بين الأشخاص ليست التهامًا، وليست واحدًا يأكل الآخر، ولا تنتهي بانتهاء العملية الجنسيَّة.

وهذا الفارقُ الكبير بين الغريزة الجنسيَّة في الإنسان وبين غريزة الطعام هو الذي جعل «فرويد» يؤسِّس نظريته عن التسامي، أي استخدام الطاقة الجنسيَّة في أعمالٍ أخرى غير جنسية كالأعمال الفكرية والفنية والثقافية؛ إذ قال فرويد إن الغريزة إلى الطعام ليس لها بديلٌ في حياة الإنسان؛ أي إنها لا يمكن أن تُكْبَت. ولا يمكن لأي إنسان جائع أن تُملأَ مَعِدته بأي شيء إلا الطعام. لا يمكن أن تتحوَّل الرغبة في الطعام إلى رغبةٍ في الأدب والفن، ولا يمكن أن تُملأَ المَعِدة بالقصص والأشعار، أما الطاقة الجنسيَّة فقد ظن فرويد أنها يمكن أن تُكْبَت، ويمكن أن تتسامى وتتحوَّل إلى إنتاج فكري وأدبي وثقافي.

وقد اتضح خطأ هذه الفكرة، ووُجِد أن الطاقة الجنسيَّة لا تتحوَّل إلى فكرٍ خلاق، ولكنها تنحرف عن طريقها الطبيعي إلى طرقٍ أخرى معقَّدة وملتوية. ووُجد أن الاختلاف بين غريزة الطعام والغريزة الجنسيَّة ليس أن الأولى لا يمكن أن تُكْبَت والثانية يمكن أن تُكْبَت، ولكن الرَّجل مع الطعام يتعامل مع «شيء»، ومع الجنس يتعامل مع إنسانٍ مثله هو المرأة.

وربما غاب عن بعض العلماء، ومنهم فرويد، هذه الحقيقةُ البديهية؛ لأنهم لم ينظروا إلى المرأة كإنسان مثل الرَّجل، ولأن الحضارة الذُّكورية قامت على «تشييء» المرأة، أي تحويلها إلى «شيء» أو أداة.

وأصبحت علاقة الرَّجل بالمرأة أشبه بعلاقته بالطعام. رغبة في الالتهام السريع وملء الفراغ، والانتهاء منها بمجرد الشبع.

ولعل هذه هي أهمُّ مشكلات الحضارة التي نعيشها؛ لأن عملية «تشييء» المرأة لم تسلُب منها إنسانيتها وتسبِّب لها المشاكل فحسب، ولكنها سبَّبت المشاكل للرجل أيضًا.

إحدى هذه المشاكل أنَّ الرَّجل أصبح يُفضِّل علاقته بالرَّجل (سواء كانت صداقة أو حبًّا أو جنسًا) أكثرَ من علاقته بالمرأة. إنه يرى الرَّجل شخصًا مثله وإنسانًا وليس مجرد شيء كما يرى المرأة. وهذا هو أحدُ الأسباب في انتشار الشُّذوذ الجنسي بين الرِّجال، بل إنَّ بعض الرِّجال قد يفخرون بشذوذهم الجنسي، وكأنَّما يقولون: نحن نتعامل مع الجنس الأعلى والأقوى وليس الجنس الأدنى والأضعف!

وربما هذا هو أحد الأسباب في اهتمام المجتمع بشذوذ الرِّجال أكثرَ من اهتمامه بشذوذ النِّساء. فالجنس الأعلى دائمًا محطُّ الأنظار وتحت الأضواء، أما الجنس الأدنى فلا شيء يلفت إليه النظر وإن كان هو الشذوذ ذاته.

وقد ظل الاعتقاد قائمًا بأن نسبة الشذوذ بين الرِّجال أعلى منها بين النِّساء إلى أن اتضح أخيرًا في بعض البلاد كأمريكا وبعض البلاد الأوروبية أنَّ الشذوذ الجنسي منتشر بين النِّساء، بل إن بعض النِّساء الآن في أمريكا أصبحن (كجزء من الثورة على الرَّجل) يتفاخرن بشذوذهن الجنسي ويُنْشِئن أنديةً وجمعيات للنساء الشاذات جنسيًّا، وكأنما يقلن للعالم: لم نَعُد نحتاج إلى الرِّجال في الجنس أيضًا.

وقد التقيت بعددٍ من هؤلاء النِّساء وقرأت كتبهن عن الشذوذ الجنسي بين النِّساء، وأدركت أن المرأة أصبحت تحارب الرَّجل بنفس أسلحته، ولم أقتنع بأن هذه هي الطريقة المنشودة لتحرير النِّساء والرِّجال معًا، وإنما هي إحدى الطرق في ظل ظروف ومجتمع

محروم من الحب الحقيقي ومن العلاقات الإنسانيَّة القائمة على التبادل المتساوي وليس الاستغلال.

من الحقائق العلمية المعروفة أنه في حالة غياب الجنس الآخر فإن الرِّجال والنِّساء وكثيرًا من فصائل الحيوانات عندها القدرةُ على ممارسة الجنس مع نفس الجنس. وهذا طبيعي لأن الطاقة الجنسيَّة لا بدَّ وأن تفرغ شحنتها عن أي طريق متاح.

وقد اختلف كثير من العلماء حول أسباب الشذوذ الجنسي عند الرِّجال. وقال البعض إن الوراثة هي السبب، وإن الرَّجل يرِث تكوينًا جنسيًّا وبيولوجيًّا مختلًّا. وقال البعض الآخر إن الجينات والكروموسومات هي السبب. لكن الأدلة العلمية كانت غير كافية، بل وقاصرة عن إثبات الحقيقة، ولم تكن العوامل الاجتماعية تدخل في الاعتبار.

ومن الحقائق العلمية المعروفة أن الإنسان «مزدوج الجنس»، وأن الرَّجل تجري فيه هرمونات مؤنثة، والمرأة تجري فيها هرمونات مذكَّرة؛ ولذلك وُجِد أن الحنين إلى الجنس نفسه شعورٌ دائم في كل إنسان، لكنه يختفي في مراحل، ويظهر في مراحل أخرى، منها مرحلة الطفولة ومرحلة المراهقة.

ومن هذه الفكرة قال بعض العلماء إن الحنين للشذوذ داخل كل رجل. ووجد كينزي أن ٣٧٪ من الرِّجال الأمريكيين مارسوا الشذوذ الجنسي. في مجتمعاتٍ أخرى خرج بعض العلماء بِنِسبٍ أكبرَ من نِسبِ كينزي. أما في السجون والمعتقلات والمدارس الداخلية فقد وُجِد أن ١٠٠٪ من الرِّجال يمارسون الشذوذ الجنسي. وهذا يدل على أن العوامل الاجتماعية هي التي تلعب الدور الأساسي في مثل هذه الممارسة، وليست الجينات أو الكروموسومات.

وقد درس العلماء العواملَ الاجتماعية والنَّفْسية داخل الأسرة وفي المجتمع التي تقود الرَّجل إلى ممارسة الجنس مع الرِّجال وليس مع النِّساء، واتضح أنَّ من أهم هذه العوامل هي العلاقة داخل الأسرة الأبوية بين الأب والابن من ناحية وبين الابن والأم من ناحية أخرى.

وقد وجد أن علاقة الابن بأبيه تقوم على الكراهية أكثرَ من الحب بسبب بُعْد الأب عن البيت وسيطرته المطلَقة، وهذا على نقيض علاقة الابن بأمه التي تقوم على حبٍّ زائد والتصاقٍ زائد بسبب التصاق الأم بالبيت وتفرُّغها للطفل، وبدراسة نفسية الرَّجل الشاذ جنسيًّا وُجِد الآتي:

(١) كان هذا الرَّجل في طفولته ينشد نموذج الذَّكر ليتَّحدَ به ويصبح ذكرًا.
(٢) الأب كان أول ذكرٍ في حياته.

(٣) كان الأب بعيدًا عن ابنه أو مهمِلًا له، أو يَغار منه بسبب استيلائه على حب الأم وجهدها.

(٤) رغبة الابن في الابتعاد عن أبيه وفي أن يكون مختلفًا عنه ما أمكن (بسبب كراهيته له).

(٥) شعور الابن بالخوف من هذا الأب المكروه، وإحساسه بالنقص والعجز عن تحقيق ذاته نفسيًّا وجسديًّا في مواجهة الأب الأكبر والأقوى والمسيطر.

(٦) حبُّ الأم الزائد (بسبب رغبتها في التعويض عن حياتها الناقصة غير المشبعة مع الزوج) يجعل الابنَ منجذبًا بقوة إلى أمه، وفي نفس الوقت يشعر بتأنيب الضمير والذنب؛ لأنها محرَّمة عليه.

وقد اتضح أن جميع الأمهات في النظام الأبوي يمثلن تهديدًا لأطفالهن، «وضرورة» لا غنى عنها. ويتمزَّق الابن بين شعورين قويين متناقضين:

(١) حب الأم الشديد والرغبة في الاتحاد بها.

(٢) رغبة شديدة في الانفصال عن الأم والاستقلال ليكون ذكرًا.

وهناك بعض الآراء تقول إن الرَّجل الشاذ جنسيًّا ينطوي في أعماقه على خوف من المرأة، وإن هذا الخوف ينبع أساسًا من عجزه (كليًّا أو جزئيًّا) عن الانفصال عن أمه.

إنَّ الوقوع في حب امرأة يعني لمثل هذا الرَّجل العودةَ مرةً أخرى إلى الذراعين اللتين تمثلان له الحبَّ والسجن معًا، هذا السجن الذي لم يهرب منه إلا جزئيًّا.

وهذا هو الخوف الذي تنطوي عليه أعماقُ جميع الرِّجال تقريبًا بدرجاتٍ متفاوتة، حسب علاقة كلٍّ منهم بأمه وأبيه.

وعلى هذا يمكن القول إن الرَّجل الشاذ جنسيًّا لا يستطيع أن يتصل بالمرأة؛ لأنه يخافها. إنَّ اتصاله بالرَّجل يمثِّل له خطرًا أقل أو «لا» خطر.

كما أنَّ كراهية الابن لأبيه تجعله ينجذب إلى رجالٍ أكبرَ منه يمنحونه الحب، وينشد فيهم الأب. وقد يتعلَّق الشَّاب ببطلٍ من أبطال الرِّياضة أو الإعلانات أو الأفلام التي تقدِّم في معظم الأحيان نموذجَ الذَّكر المُبالغ في ذكورته، يتخيَّل الشَّاب أنَّه أحد هؤلاء الأبطال، أو يحب شبيهًا بالبطل ويسقط عليه نموذجه الذكري، هذا النَّموذج الذي كان يريد أن يكونه ولم يستطِع.

ويكتشف الشابُّ في نفسه (بالتوحُّد مع هذا البطل) قوةً وشجاعةً وتحملًا وغير ذلك من الصِّفات المحبَّبة إلى النَّمط الذكري السائد، وقد وُجِد أن بعض حالات الشذوذ تبدأ بإعجاب شديد ببطل من الأبطال.

وفي مرحلة معينة من العمر يكوِّن الصبيان جماعاتٍ ذكورية ينجذب فيها بعضهم إلى بعض، وينظرون إلى الإناث كمخلوقاتٍ أقل. وهذه بعض آثار التربية التي تعلَّموها وهم أطفال في ظل الأسرة الأبوية، والتي لا تزال عالقةً بهم وبسبب صِغر سنِّهم وعدم نضوجهم كرجال بعدُ. وقد تتوقَّف مشاعر بعضهم عند هذا الحد بسبب معوِّقات النُّضج الاجتماعية والنَّفْسية، ويظل هذا الصبي يتطلع إلى الرِّجال وينجذب إليهم؛ لأنه يشعر أنه لم يصبح واحدًا منهم بعدُ.

وقد وُجِد أن معظم الرِّجال الشواذ ينجذبون إلى الرِّجال الأشداء الأقوياء. واتضح ذلك من صور المجلات التي تصدُر عن أندية الشذوذ الجنسي، والتي تصوِّر رجالًا عراةً ذوي فحولة جنسية، من أجل إرضاء رغبات الأعضاء الشواذ والكسب المالي من وراء ذلك الانحراف.

ولعل رسومات «مايكل أنجلو» التي زيَّن بها سقفَ الكنيسة السيكستية (نسبة إلى بابا سيكستس) خيرُ معبِّر عن الفن الذي يمكن أن يخرج من خيالِ رجلٍ شاذٍّ جنسيًّا. إن هذه اللوحات تعتمد في خطوطها وحركتها على المبالغة إلى درجة التشويه في عضو الذكر الجنسي بالنسبة إلى أعضاء الجسم الأخرى. إنَّ هذه اللوحات تعبِّر بأوضحِ ما يكون التعبير عن اتجاهِ مثل هذا الرَّجل إلى المبالغة في تمجيد الذُّكور والعضو الذكري. ولهذا صعِدت هذه اللوحات في نظر سكان العالم الذُّكوري إلى قمَّة الفن والعبقرية. ولا شكَّ أن إعجاب الرِّجال بهذه اللوحات لا يدل على شيء سوى أن الرِّجال ينبهرون دائمًا بالصفات التي لا يملكونها.

ويظهر هذا الاتجاه واضحًا عند الرِّجال الشواذ الذين يعمدون دائمًا إلى إظهار انبهارهم الشديد بالعضو الذكري. وهذا دليلٌ على أن الشذوذ نوعٌ من عدم النضوج أو التوقُّف عند مرحلة المراهقة. فمن المعروف أن جميع الصبيان، شواذًا وغير شواذ، يُظهِرون اهتمامًا شديدًا بحجم أعضائهم الذكرية ومقارنة عضو الواحد منهم بالآخر. إنهم يظنون أن هناك علاقةً بين حجم العضو وكفاءته في الجنس، مع أنه ثبَت أنَّ هذه العلاقة ليس لها وجود، وأن العضو الأكبر ليس هو الأكفأ أو الأقوى، بل قد يكون العكس هو الصحيح، فالعضو النحيف أكثرُ كفاءةً من العضو السمين؛ لأن الشحم يعرقل الحركة، كما أن الشحم

إذا تراكم على جدران الأوعية الدموية يقلِّل كميةَ الدم المندفعة فيها. إنَّ عملية الانتصاب التي تحدُث للعضو الذكري ليست إلا اندفاع الدم إلى هذا العضو بكمياتٍ كبيرة إلى حدِّ الامتلاء والانتفاخ. ولا شكَّ أن زيادة الأنسجة الدهنية التي تتراكم على الأوعية الدموية تقلِّل من هذا الامتلاء.

هذا من ناحية سُمك العضو، أمَّا من ناحية الطول، فلا دخل لهذا الطول بقدرة العضو على إشباع المرأة جنسيًّا؛ لأن حصول المرأة على اللذة الجنسيَّة لا علاقةَ له بقدرة العضو على الوصول إلى عنق الرحم (كما يظن الكثيرون)؛ لأن عنق الرحم غيرُ حساس للَّذة ولا للألم بسبب فقدان الأعصاب.[١]

لكن معظم الشباب الذُّكور ينشغلون بحجم أعضائهم التناسلية، ويتفاخرون إذا كان حجمها كبيرًا، ويخجلون إذا كان صغيرًا. مع أن هذا الاتجاه يقلُّ كثيرًا كلما سار الشابُّ قُدُمًا إلى النضوج. ويظل الرِّجال الشواذ عاجزين عن النضوج، متوقِّفين عند مرحلة المراهقة، ويظل اهتمامهم بالعضو الذكري شديدًا؛ بعضهم تسيطر عليه الرغبة في أن ينظر على الدوام إلى أعضاء الرِّجال الآخرين، وقد يصبح العضو (مثل الكعب الأنثوي العالي عند بعض الرِّجال الشواذ) الشيء الوحيد الذي يثيرهم جنسيًّا؛ لأنه الشيء الوحيد الذي يوحي إليهم بالثقة في أنفسهم كذكور. وفي غير ذلك يشعرون بعدم الثقة والخوف من الجنس ومن العلاقة بالمرأة. بمعنًى آخر يصبح منظرُ هذا العضو هو الشيء الوحيد الذي يمنحهم الانتصاب. وفي غير ذلك يعجزون.

ولا شكَّ أن مثل هؤلاء الرِّجال يستحقون من المجتمع الرعايةَ والعلاج وليس العقاب والازدراء. إنهم ضحايا الأُسر الأبوية، وهم رجالٌ وجدوا أمامهم بابَ النضوج مغلقًا. إن الرَّجل منهم يبحث عن ذكورته التي ضخَّمها له المجتمع والأسرة الأبوية، والتي لا يجدها في نفسه، ويظن أنه قد يجدها في رجل آخر. بعبارة أخرى، إنَّه رجلٌ بحث عن عضوٍ ذكري ضخم (حسب المقياس الاجتماعي)، والذي لا يجده عنده، فإذا ما وجده عند رجلٍ آخر أو (خُيِّل إليه ذلك) فإن هذا الرَّجل يُصبح بالطبع جذابًا في عينه قريبًا منه، يحبُّه ويتوحَّد به ليكون مثله أو يصبح هو ذاته، إنها محاولة لأن يصبح هو نفسه الرَّجل الآخر الذي يملك هذا الشيء العظيم أو الدليل الأعظم على الذُّكورة القوية. وقد ثبت أنَّ الرِّجال غير الراضين

[١] انظر: «المرأة والجنس».

عن أحجام أعضائهم هم أكثرُ الرِّجال اندفاعًا وراء البحث عن الرَّجل الآخر صاحب العضو الأكبر.

وهناك نوعٌ آخر من الرِّجال الشواذ من ذوي الميول الجنسيَّة لرجالٍ ناعمين، أو لشبان فيهم وسامةٌ وشيء من الرِّقة أو الأنوثة، هذا النوع من الرِّجال يبحث عن المرأة، لكنه يخاف المرأة الحقيقية، ومن ثَمَّ يختار أقربَ الرِّجال إلى المرأة أو إلى نموذج المرأة في خيالهم. وينكر معظم هؤلاء الرِّجال انجذابهم الجنسي نحو النِّساء، لكن الدراسات كشفت عن أن الرَّجل منهم تعلَّق بأمِّه أو أخته جنسيًّا، وأنه أيضًا يعيش في بعض الخيالات الجنسيَّة مع المرأة، وقد يكون مارس الجنسَ مرةً مع إحدى النِّساء ثم فشل.

ويُجمِع العلماء على أنه من غير الممكن أن تضع خطًّا فاصلًا بين ما يسمَّى بالرَّجل الطبيعي والرَّجل الشاذ. وأثبت علماء الجنس في بريطانيا مثلًا أن ٢٥٪ من أفعال الشذوذ الجنسي (رجال مع رجال) يقترفها رجالٌ متزوجون، ويمكن لبعض الشواذ بجهدٍ بسيط أن يصبحوا رجالًا طبيعيِّين. كما أن بعض الرِّجال الطبيعيِّين يُظهِرون ميولًا جنسية مزدوجة، أي للجنسين معًا، وفي إمكانهم الاستمتاعُ بالعلاقات الجنسيَّة بالنِّساء وبالرِّجال إذا ما سنحت لهم الفرصة لذلك.

بعض العلماء يرى أنَّ الرِّجال الشواذ نوعان؛ نوعٌ إيجابي ويلعب دورَ الذكر، ونوع سلبي ويلعب دور الأنثى، ويتبادل الطرفان الأدوار أحيانًا حسب الظروف والأحوال.

على أنه اتضح أن معظم هذه العلاقات لا تشبِع الطرفين؛ فالواحد منهم يشعر دائمًا أنه غير مشبِع عاطفيًّا وجنسيًّا، ويلازمه شعورٌ بالنقص يجعله غير راغب في الاقتراب من النِّساء. إنه يخاف دائمًا أن تكتشف المرأة نقصَه، وهذا الخوف هو السَّبب الأول الذي أبعده عن المرأة منذ البداية.

هناك نسبةٌ صغيرة من الرِّجال يصابون بهذا الشذوذ الجنسي لأسبابٍ عضوية بحتة، أو لظروفٍ طارئة تؤثِّر على خلايا المخ. مثال ذلك شربُ الخمر بكثرة أو تعاطي بعض العقاقير التي قد تسبِّب تسممًا في المخ، ويصبح الرَّجل عاجزًا عن السيطرة على سلوكه، ويندفع وراء رغبات طفولية دُفِنَت في الجزء العميق جدًّا من المخ أو في اللاوعي. وقد لوحظ انتشار الشذوذ الجنسي بين المدمنين على أنواعٍ معينة من المنبِّهات أو المخدِّرات.

وقد تحدُث الشيخوخة أحيانًا للمخ بسببِ ما تُحْدِثه الخمر أو العقاقير. وهناك بعضُ حالات من تصلُّب الشرايين في المخ قد تسبِّب شذوذًا في السلوك الجنسي إلى جانبِ أعراضٍ مَرضية أخرى مثل ضَعف الذاكرة، واضطرابات في النطق، وتغيُّرات في رسم المخ الكهربي،

وغير ذلك من الأعراض التي تصاحب مختلِف أمراض المخ العضوية، وتعالَج هذه الحالات بالطبع بالأدوية المناسبة. وهناك بعض أمراض المخ تزيد الرغبةَ الجنسيَّة إلى حدِّ التأجُّج المستمر، وتُعالَج بالهرمونات المناسبة لإضعاف الرغبة وإضعاف نشاط الغدد الصماء. وقد وُجِد أن إعطاء الهرمون الأنثوي «إيستروجن» للرجل المريض يضعِف نشاط الخصيتين، ويقلِّل الرغبة الجنسيَّة، ويقلِّل إفراز السائل المنوي. لكنه وجد أن كميةَ هذا الهرمون الأنثوي إذا زادت عن نسبةٍ معينة فإنَّ ثديي الرَّجل يكبران ويصبحان كثديي المرأة؛ ولهذا لا بدَّ من معرفة الكمية المناسِبة التي لا تزيد عن الحد المطلوب، وبالمثل أيضًا تُعطَى المرأة المريضة الهرمون الذكري «تستستيرون» بالكمية المطلوبة، وإلا فسرعان ما ينبت الشعر على وجه المرأة وصدرها. وكانت مثل هذه الحالات تُعالَج قديمًا بإخصاء الرَّجل (قطع خصيتيه)، لكن هذا العلاج لم يَعُد يلجأ إليه أحد من الأطباء؛ لأنه وُجِد أن الإخصاء قد يشفي الحالة المَرضية الجنسيَّة لكنه لا يؤهل الرَّجل بعد ذلك لعلاقات إنسانيَّة سوية وتزداد الحالة سوءًا.

ويلجأ بعض الأطباء الآن في علاج الإدمان، وبالذات إدمان الخمر، إلى نظرية الارتباط الشرطي (التي اكتشفها بافلوف)، وذلك بإعطاء المدمن على الخمر حقنة أيومورفين (Apomorphine) تجعله يتقيَّأ على الفور، ويرتبط في ذهنه طَعم الخمر بالقيء، فإذا ما أُعطيَ الخمر بعد فترة بدون حقنة يتقيأ، ومن ثَم يفقد رغبته في شرب الخمر.

وهناك وسائلُ علاجٍ كثيرة ومتعددة لمثل هذه الحالات المَرضية. أما الشذوذ الجنسي في معظم الرِّجال فلا يرجع إلى أسبابٍ مَرضية عضوية في خلايا المخ، ولكنه، كما سبق أن ذكرتُ، أحدُ مظاهر عدم نضوج الشخصية بسبب أحاسيس النقص والذنب والخوف وغير ذلك من المشاعر المترسِّبة من الطفولة والمراهقة.

والعلاج هنا لا يمكن أن يتمَّ بالعقاقير والأدوية، ولكن العلاج يتَّجه أساسًا إلى إزالة معوِّقات نمو الشخصية والنضوج، سواء داخل الأسرة أو في المجتمع، ومن أهم خطوات العلاج أيضًا أن يشعر الشخص أنه ليس شاذًّا أو ليس هو الشاذ الوحيد في العالم، وإنما يشاركه في هذا الشعور ملايين آخرون من النَّاس، وأن العيب ليس فيه، وإنما العيب في الظروف الاجتماعية والأسرية التي عاشها. وبذلك يتحرَّر الشخص بعضَ الشيء من عقدة الذنب وعقدة النقص أيضًا، وهذه إحدى الخطوات الأولى نحو النضوج، ومن ثَمَّ الشفاء.

والشفاء هنا ليس مجرد أن ينجذب الرَّجل إلى النِّساء بدلًا من الرِّجال، ولكنه نمو الشخصية والسلوك والقدرة على إقامةِ علاقاتٍ إنسانيَّة مشبِعة في مختلف مجالات الحياة.

بمعنًى آخر، الشفاء يعني اكتسابَ الرَّجل للقدرة على الحب والأخذ والعطاء بغير خوف من الآخرين وخاصة النِّساء. إن الحب بمعناه الحقيقي هو الذي يجعل العلاقات الجنسيَّة سوية وصحية؛ أي إنه يمكن أن نقول إن الانحرافات الجنسيَّة والشذوذ الجنسي ليس إلا تلك الممارسات الجنسيَّة بغير الحب.

الرَّجل والاستعراض الجنسي

أذكر وأنا في العاشرة من عمري أنني كنت حين أُطِلُّ من الشُّرفة أرى رجلًا في البيت المواجه لبيتنا. وكان هذا الرَّجل لا يقف كما يقف النَّاس في النوافذ والشرفات، لكنه كان يخلع سرواله ويُظهِر عضوَه الجنسي للنَّاس الذين يسكنون البيوت المجاورة. وكنت أرى النِّساء يُسرِعن ويُغلقن نوافذهن، أمَّا أنا فقد كنتُ أظل واقفةً أنظر إلى وجه هذا الرَّجل الغريب، وأتأمل حركاته، فقد كان يمسك عضوه بيده ويعرضه للنَّاس. وبعد أيام قليلة اختفى هذا الرَّجل، وسمِعت أنَّ بعض الجيران بلَّغوا الشُّرطة وأنه نال العقاب على أفعاله الغريبة.

وقد يندهش كثيرٌ من النَّاس لتصرُّف هذا الرَّجل ويعتبرونه رجلًا شاذًّا فاسد الأخلاق ويستحق العقاب الشَّديد.

والحقيقة غير ذلك؛ فهذا الرَّجل ليس هو الوحيد في العالم الذي يريد أن يستعرض ذكورته. إنَّ معظم الرِّجال يرغبون في استعراض ذكورتهم بدرجاتٍ متفاوتة وبوسائلَ مختلفة. والسَّبب في ذلك أنَّ هذه الحضارة التي نعيشها قامت على أكتافِ ذكورٍ أقنعوا أنفسهم والعالم أنَّ الذُّكورة امتياز وشرف، والأنوثة مهانة وضَعف، ولم يكن هناك من فرقٍ بارز بين الذكر والأنثى سوى العضو الذكري؛ ولهذا اتجه المجتمع الرجولي في عهودٍ متعددة إلى تمجيد عضو الذَّكر.

وبلغ تمجيد هذا العضو وتفخيمه حدًّا جعل أكثريةَ الرِّجال يشعرون بالنقص حين ينظرون إلى أعضائهم الحقيقية.

وهناك رجال يبلغ شعورهم بالنقص حدًّا كبيرًا فلا يجدون وسيلةً لإثبات أنَّهم ذكور سوى بارتكابهم فعلًا، في كثير من المجتمعات (التي يرتدي فيها النَّاس الملابس) منافيًا

للآداب العامة، ومَن يفعله يقع تحت طائلة القانون. وهناك بعض المجتمعات الرأسمالية الحديثة مثل السويد مثلًا وبعض أجزاء في أمريكا وأوروبا قد اعترفت بوجود هذه الرغبة عند كثير من الرِّجال، وصرَّحت لهم بإنشاء نواديهم الخاصة (نوادي العُراة، ونوادي الرِّجال الذين يحبُّون الرِّجال، نوادي النِّساء اللواتي يحببن النِّساء)، وأصبح لكل رغبةٍ إنسانيَّة، طبيعيةً كانت أو غير طبيعية، نادٍ خاصٌّ يلتقي فيه الأعضاء يزاولون هواياتهم الجنسيَّة دون أن يتعرَّض لهم القانون.

وقد ينبهر كثيرٌ من النَّاس حين يسافرون إلى مثل هذه البلاد، ويرون هذه النوادي متصورين أنها قمَّة التحرُّر والحرية الشخصية المكفولة لكل فرد. لكنَّ الذي يتعمَّق في قوانين هذه المجتمعات الرأسمالية الحديثة يدرك أنَّ الحرية ليست مكفولة لكل فرد فعلًا، وأنَّ هناك حرية للحكام لا يتمتع بها المحكومون، وحرية لأصحاب المصانع لا يتمتع بها العمال، وحرية للرجال لا تتمتع بها النِّساء، وأنَّ الحرية غير متوافرة للأغلبية الساحقة من النَّاس، وخاصة الحرية الاقتصادية والاجتماعية، بل إن الحرية الجنسيَّة أيضًا ليست متيسرة إلا لهؤلاء القادرين عليها، لهؤلاء الذين تمنحهم ظروفهم الاقتصادية الجهدَ والوقت والفراغ والمال لممارسة هواياتهم الجنسيَّة داخل النوادي. أمَّا الأغلبية من النَّاس فهي تكدح وتعمل في المصانع ولا تمنحهم ظروفهم إلا العودةَ آخر النهار إلى الزوجة المكتئبة أو المكدودة في عمل البيت ورعاية الأطفال، أو إلى إغراق الهمِّ في حانةٍ من الحانات مع كأس رديئة النوع أو مومس منهَكة مريضة.

ولا أدري هل أصبح للعري نادٍ في بريطانيا الآن، وهل عُدِّل قانون تعرية الجسد كما عُدِّل قانون الشذوذ الجنسي. لكني قرأت أنه في سنة ١٩٥٤م في بريطانيا بلغ عدد الرِّجال الذين عوقِبوا قانونيًّا بسبب تعرية أعضائهم في الشارع ٢٧٢٨ رجلًا، وأنه في أحد البحوث العلمية الجنائية بجامعة كمبردج في العام نفسه وُجِد أنَّ من بين ١٩٨٥ رجلًا ممن اقترفوا جرائمَ جنسية كان هناك ٤٩٠ رجلًا كانت جريمتهم فقط تعريةَ العضو الجنسي في الشارع دون إيذاء أحد.

ومن المعروف علميًّا أن الرِّجال فقط هم الذين يصابون بمثلِ هذا الانحراف، ويسمَّى علميًّا الاستعراضية الجنسيَّة. هناك بالطبع نساء يستعرضن أجسامهن كلَّ ليلة في دُور اللهو وعلب الليل في تلك المشاهد المسمَّاة «الإستربتيز»، كوسيلة للتكسُّب وليس من أجل أنهن يشعرن بمتعةٍ أو لذَّة.

وقد وُجِد أن الرَّجل المصاب بالاستعراضية الجنسيَّة (Exhibitionism) يعاني من فكرةٍ مسلطة تدفعه إلى هذا الفعل رغم إرادته ورغم تعرُّضه للعقاب أكثرَ من مرة. ويعمد

هذا الرَّجل إلى تعرية عضوه وهو منتصِب أمام النِّساء السائرات في الشارع، وبالذات أمام الفتيات تحت سن السادسة عشرة. ويعقب هذا الاستعراض قيامه بالعادة السرِّية دون أن يلمس أيَّ فتاة أو يقترب منها. ومن هنا وُجِد أن هدف مثل هذا الرَّجل هو إفزاع الفتاة أو إثارتها أو إغضابها وليس الاتصال بها جنسيًّا. وهذه إحدى الطرق البدائية التي تساعد الرَّجل على الإحساس بأنه رجل. إنه يأمُل عن طريق هذا الفعل البدائي وإظهار ذكورته أن يصدِم المرأة، وإن هذه الصدمة كرد فعل قوي من جانبها تؤكد له أنه ذكر، طالما أنه ما زال قادرًا على التأثير عليها، وإن كان تأثيرًا سيئًا، بعد أن فشِل في التأثير عليها بطرقٍ أخرى.

مثل هؤلاء الرِّجال رغم أنهم في معظم الأحيان أزواج، إلا أن علاقتهم بزوجاتهم غير مشبعة، ويلازمهم دائمًا الإحساس بالضَّعف والقلق على كفاءتهم كأزواج. ومن شدة هذا الإحساس بالنقص والضَّعف فإن الرَّجل منهم يفضِّل أن يلفت الأنظار إليه كرجلٍ شاذٍّ أكثرَ من أن يعيش ويموت دون أن يلتفت إليه أحد. تمامًا كالطفل الصغير الذي يشعر وهو بين الكبار أنه مُهْمَل ولا أحد ينتبه إليه، فإذا به يكسر شيئًا أو يسلك سلوكًا منفردًا ينال بسببه العقاب، ومن ثَم يفرض على الكبار أن ينتبهوا إلى وجوده. إن العقاب هنا أفضل من اللامبالاة والإهمال الكامل. وهذا هو السَّبب في أن مثل هؤلاء الرِّجال لا يكفُّون عن عرضِ أعضائهم بالرغم من كثرة العقاب الذي نالوه.

إنَّ رغبة الرَّجل الاستعراضية قد تخفي تحتها أيضًا رغبةً سادية في إيذاء مشاعر النَّاس وإحداث صدمة لهم حين يرون عضوه العاري. إنها رغبة في أن يقول لهم: أنا أملِك عضوًا عظيمًا يستحق الاستعراض. بمعنًى آخر، يقول لهم أنا أعظمُكم لأنكم جعلتم العظَمة في هذا العضو، وأنا قادر على أن أفعل ما لا تستطيعون، وهو أن أعريَ جسدي. لكنه في الوقت نفسه يقول لنفسه: أنا أكثرهم انحطاطًا وإثمًا وذنبًا ونقصًا.

قابلتُ في مستشفى الأمراض النَّفْسية بالخانكة رجلًا من هذا النوع، وضعوه في قسم المذنبين (مع هاتكي الأعراض وقاتلي الزوجات)، وقال لي هذا الرَّجل وهو يكاد يبكي: النَّاس لا تفهم شيئًا، النَّاس كذابون أدعياء، إنهم يفكِّرون دائمًا بأعضائهم الجنسيَّة، وحينما يواجههم واحد مثلي بحقيقتهم يفزعون. لا أدري ما الذي يفزعهم حينما يرون عضوي العاري؟! إنني أعبِّر عن خيالهم وعن حقيقتهم، ومع ذلك يقبضون عليَّ ويقولون عني إنني مجنون. وسكتَ هذا الرَّجل قليلًا ثم قال لي: أنا أشجعُ الرِّجال. ثم بكى وقال بحسرة: وأنا أحطُّ الرِّجال أيضًا! هل تفهمينني يا دكتورة؟

قلت له: نعم، أفهمك.

بدراسة حياة هذا الرَّجل اتضح لي أنه كان ينام (حتى بلغ التاسعة من عمره) في الحجرة نفسِها التي ينام فيها أبوه وأمُّه، وأنه ظل حتى التاسعة من عمره يشهد تلك المسرحية الليلية التي تحدُث بالقرب منه بين أبيه وأمه. وكان ضوء الشارع يسقط على عضو أبيه الكبير (بالنسبة لطفل في تلك السن) فيبدو له هذا العضو ضخمًا عاريًا مفزعًا، وسرعان ما ينقضُّ كالوحش على أمِّه التي كانت تئن وتتوجَّع بصوتٍ غريب. هذا يحدُث كلَّ ليلة تقريبًا. أمَّا في النهار فإن الأب والأم يرتديان قناعَ الأزواج والزوجات المعروف، وحينما يلمس هذا الطفل عضوه ليكتشف جسمه تضربه أمه على يده وتقول له: عيب! وحينما أصبح في التاسعة سأل أباه عن علاقة الرَّجل بالمرأة وكيف وُلِد في هذه الحياة فإذا بالأب ينهره ثم يطرده من حجرة النوم. وأصبح الطفل ينام وحدَه في الحجرة المجاورة، ولكنه ظل يسمع أجزاءً من المسرحية الليلية من خلال الجدار.

ومن هنا نستطيع أن نفهم الصراع النفسي والجنسي العنيف الذي عاش فيه هذا الطفل سنواتٍ طويلة، والذي حال بينه وبين النضوج، حوَّل طاقته الجنسيَّة الطبيعية إلى عرضِ عضوه العاري على النَّاس في الطريق. إنه بهذا التصرُّف الجنسي المنحرف كأنما يريد أن يصفع أباه وأمَّه (وكل أمثالهم من البشر) صفعةً حادة على وجوههم بسبب كذبهم عليه، لكنه لا يستطيع أن يصفع أباه أو أمَّه أو أيَّ أحد من النَّاس، ولا يملك إلا جسده الذي يعرِّيه أمامهم.

نفهم من هذا أن هؤلاء الرِّجال المصابين بمثل هذا الانحراف الجنسي الاستعراضي ليسوا في معظم الأحيان إلا مرضى بالسادية في أشد صورها، وهم ضحايا طفولة مزَّقتها القيم الأخلاقية المزدوجة والتقاليد المتزمتة والكذب واعتبار الجنس إثمًا مع أنه يُمارَس سرًّا في كل وقت.

بالطبع لا يتعرض أكثر الأطفال لِما تعرَّض له الطفل السابق. لكن الذي يدرُس المجتمع وبالذات الحياة التي تعيشها الأسر الفقيرة، حيث تسكن الأسرة الواحدة حجرةً واحدة، ويبيت الأب والأم والأطفال في حجرة واحدة، ندرك أن عددًا غير قليل من الأطفال يشهد المسرحية الليلية التي غالبًا ما يلعب فيها العدوان والإيلام دورًا بارزًا. وهناك أيضًا الأمهات من الأسر المرتاحة اقتصاديًّا، هؤلاء الأمهات ذوات الأمومة المتضخمة المريضة، شديدات الالتصاق بأطفالهن إلى حدٍّ أن الطفل يستمر فترةً طويلة (قد تصل إلى السابعة أو الثامنة) وهو ما زال يبيت في الحجرة نفسِها التي يبيت فيها أبوه وأمه.

هذا يحدُث في الوقت الذي ما زال فيه معظم الآباء والأمهات يدَّعون العفةَ والزهد أمام أطفالهم، أو على الأقل يصمتون ولا ينطقون شيئًا فيما يتعلَّق بالجنس، مع أنهم لا يكفُّون كلَّ ليلة عن أداء المسرحية الهزلية والدرامية معًا.

تزداد حدةُ هذه المشاكل ويزداد الصراع عند الطفل في الأُسَر الشديدة التديُّن، حيث يرى الطفل أباه بالنهار ممسكًا بالسبحة متمتمًا بالآيات، داعيًا إلى الفضيلة، ناهيًا عن الرذيلة، ثم إذا جاء الليل انقلب رأسًا على عقب، فإذا به الرذيلة نفسُها مجسَّدة على شكل شيطان عاري الجسد شديد العدوان.

في زيارتي لمستشفى الأمراض النَّفْسية بالخانكة دخلت إلى الورشة الفنية حيث يشغَل الفنانون من المرضى فراغَهم في عمل التماثيل واللوحات. ورأيت أحدَ الشباب المرضى منهمكًا في عمل تمثال صغير. واقتربت من الشاب وأنا أتأمل التمثال. رأيت أنه تمثال رجل يرتدي عمامة كبيرة ورداءً واسعًا على شكل القفطان.

سألت الشاب: مَن صاحب هذا التمثال؟

قال الشاب: إنه أبي.

قلت: كان رجلًا صالحًا متدينًا.

قال الشاب: نعم.

ثم إذا به يشد من تحت القفطان خطًّا رفيعًا فإذا بعضو التمثال الجنسي يبرز إلى الأمام منتصبًا. وضحِك زملاء الشاب من المرضى الذين يعملون معه في الورشة الفنية، وضحِك الطبيب الذي كان يرافقني في جولتي داخل المستشفى، ورأيت شيئًا يلمع في عيني الشاب نزيل المستشفى، كانت هي الدموع. وسألته: أتبكي؟!

وانفجر الشاب غاضبًا فجأةً وألقى بالتمثال في الأرض وخرج من الورشة جريًا وهو يصيح بغضب: «متى أخرج من هذا السِّجن؟! لستُ مريضًا، لستُ مجنونًا، العالم كله هو المجنون!»

من المعروف أن الكشف عن العضو الذكري هو أحد الطرق البدائية للإعلان عن الذُّكورة خاصة لدى هؤلاء الرِّجال الذين فقدوا الصفات الرجولية الأخرى، ولم يَعُد لديهم إلا ذلك العضو الذي يثبت لهم ولغيرهم أنهم رجال. وهو أيضًا رغبةٌ طفولية تبقى مع الرَّجل الذي عجز عن النمو النفسي والنضوج بالرغم من أنه كبر وجاوز مرحلةَ الطفولة بسنواتٍ كثيرة.

إنَّ معظم الأطفال يشعرون بميول مختلفة تجاه كشف أعضائهم ولمسها. وفي المدارس يتبارى الأطفال الذُّكور (بسبب المجتمع الذُّكوري الذي جعل من العضو الذكري قيمةً عالية

تستوجب التفاخر) في عَقد المقارنات بين أعضائهم والتنافس على مَن هو صاحب العضو الأكبر أو الأجمل. إنَّ حجم العضو وشكله يمثِّلان مصدرًا هامًّا من مصادر السعادة والرضا عن النفس عند معظم الرِّجال، وكثيرٌ منهم من شدة الرضا لا يملُّون النظرَ إلى أعضائهم في المرآة. وهناك مَن لا يكتفي بالنظر، بل يضاعف اللذة بممارسة العادة السرية أيضًا أمام المرآة. إنَّ اعتقاد الرَّجل بأنه يملك عضوًا كبيرًا مؤثرًا يمنحه الكثيرَ من القوة الجنسيَّة خاصةً إذا افتقد الرَّجل الأسس الأخرى التي ترتكز عليها شخصيته وتقديره لنفسه كرجل وإنسان، ويظن الرَّجل أن المرأة تنبهر بعضوه الذكري كما ينبهر هو. لكن الحقيقة أن المرأة لا تنظر إلى العضو الذكري كشيء باهر. إنها تنظر إليه نظرةً عملية، تنظر إليه كعضو من الأعضاء يمكن أن يؤديَ الوظيفة التي وُجِد من أجلها. بمعنًى آخر تنظر إليه نظرةً فسيولوجية وليس نظرة جمالية مليئة بالإعجاب كما يفعل الرِّجال.

على أنَّ هناك بعضَ النِّساء اللائي يُظهِرن إعجابًا وانبهارًا بأعضاء أزواجهن. وبدراسة هؤلاء الزوجات والأزواج وُجِد أنَّ الزوجة لا تفعل ذلك إلا إرضاءً لزوجها النرجسي الذي عشق ذاته متمثلة في عضوه، وأصبح يتغزَّل في هذا العضو، ويطلب من زوجته أن تفعل المثل. ومن أجل أن تُبقي الزوجة على حياتها الزوجية، أو خشيةَ الطلاق أو انصياعًا وراء القيم الأخلاقية والدينية التي تحثُّ الزوجات على طاعة الزوج وإشباع رغبته أنى شاء وكيف شاء، من أجل كل ذلك تفعل الزوجة ما يطلبه منها زوجها وهي راضية أو تدَّعي الرضا.

وتتعرَّض البنات في مجتمعنا وفي كل المجتمعات لهذا النوع من الرِّجال أحيانًا. لا تكاد تخلو حياةُ أي طفلة أو بنت من ذكرى منظر رجل كشف عن عضوه أمامها. في البحث الذي أجريته في كلية طب عين شمس بالقاهرة سنة ١٩٧٣م على ١٦٠ امرأة وفتاة وجدتُ أن ٥٠٪ منهن يذكرن شيئًا من هذا القبيل، أما النصف الآخر فقد أنكرن تمامًا حدوث هذا، ومن المعروف أن ذاكرة الأطفال تنسى الحوادث وبالذات الجنسيَّة منها لأسباب متعدِّدة.[١]

ولكثرة عدد الرِّجال الذين يمارسون هذه الاستعراضات لأعضائهم فقد أصبح الاتجاه في العالم الآن إلى تعريف البنات الصغار بهذه الحقيقة حتى لا تفزع الواحدة منهن حين ترى واحدًا من هؤلاء. ووُجِد أن مثل هذه الحوادث لا تضرُّ البنات نفسيًّا ولا تؤثِّر عليهن في

[١] انظر: «الأنثى هي الأصل».

شيء طالما أنهن عرفن من قبلُ أن مثل هذه الأمور تحدُث من بعض الرِّجال، وأنهم معظمَ الأحيان لا يعتدون على البنت، وإنما هي رغبةٌ للاستعراض فحسب.

الضرر الوحيد الذي قد يحدُث أنَّ البنت الصغيرة قد يفزعها منظر العضو المنتصب، وربما أيضًا يسبِّب لها شيئًا من الإثارة الجنسيَّة، وهكذا تكتم الأمرَ كسرٍّ من الأسرار تشعر معه بالذنب. على أن معظم هؤلاء الرِّجال الاستعراضيين لا يسبِّبون من الضرر أكثرَ من هذا. وهذا هو السَّبب في أنَّ أحدًا لا يكتشفهم ولا يكتشف عددهم الذي يقولون عنه إنه غير قليل، وإن مثل هذه الرغبة الاستعراضية قد يقوم بها بعض الرِّجال في فترات الحرمان من الممارسة الجنسيَّة الكاملة مع المرأة. ووُجِد أنَّ بعض الأزواج يلجئون إلى ذلك كنوع من تخفيف التوتر الجنسي حين تكون زوجاتهم مريضاتٍ أو حواملَ أو غير ذلك. وهو يبدو في هذه الحالات نوعًا من الإعادة لسلوك طفولي سبق أن حدث وضاع من ذاكرة الرِّجال. وعلى هذا الأساس حاول بعض العلماء تفسيرَ هذه الظاهرة على أنها طبيعة ذكورية تظل باقيةً ومدفونة في مكانٍ ما من ذاكرة الرَّجل.

لكن الدراسات النَّفْسية الجديدة أوضحت أن هذه الظاهرة كغيرها من الظواهر الجنسيَّة الذُّكورية تنشأ أكثرَ بسبب التربية والمجتمع والحضارة والقيم الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية.

ولا يختلف أحدٌ من العلماء حول أنَّ الحضارة من حولنا في العالم هي حضارةٌ ذكورية قامت على تمجيد الذُّكورة من أجل أن يسُودَ الأب على الأم في الأسرة الأبوية. ولَمَّا كان الفَرق الوحيد الظاهر بين جسد الرَّجل وجسد المرأة هو وجود هذا العضو بشكلٍ أكبر من بظر المرأة، فقد عمد الرِّجال في العصور الأولى لمنشأ الأسرة الأبوية أن يُبرِزوا هذا الفرق، بل يزيدوا عليه من خيالهم ومن فنِّهم مستخدمين في ذلك أدواتٍ بدائية أولَ الأمر، ثم أدواتٍ ووسائلَ أكثرَ رقيًّا وحضارة وفنًّا (كما حدث في لوحات مايكل أنجلو) في عهدٍ من العهود. يقول التَّاريخ إن الرِّجال كانوا يرتدون من حول عضوهم الذكري خرطومًا صُنِع من جلد الحوت يضم العضوَ والخصيتين معًا بطريقةٍ تبدو للعين وكأن العضو كبيرُ الحجم أو منتصِب على الدوام. وبعد أن هُجِر أسلوب جلود الحوت أصبح الرِّجال يرتدون سراويلَ مزيَّنة بالأقواس أو أدواتٍ مشابهة حتى يجذبوا أنظارَ النِّساء إلى الشيء العظيم. ونحن نرى هذا الاتجاه بوضوحٍ في اللوحات التي تصوِّر ملابسَ الرِّجال في أوروبا في القرنين؛ الخامس عشر والسادس عشر. ولم يكفَّ الرِّجال عن استخدام مثل هذه السراويل التي تعبِّر عن ميولهم الاستعراضية الجنسيَّة إلا في القرن الثامن عشر. وبعد الثورة الفرنسية

وانتشار الأفكار المنادية بالمساواة بين حقوق البشر سقطت هذه السراويل والأقواس واتَّجه الرِّجال نحو سراويل أخرى أكثرَ تطورًا. على أنَّ من الواضح في عصرنا الحديث أنَّ الإصرار من جانب الرِّجال (وهم الذين يصنعون القيمَ والقوانين والأساليب والأزياء) على أن يكون للرجال أزياء معينة، وللنساء أزياء معينة، وأن يرتديَ الرَّجل السروال بالذات ليس إلا بقايا رغباتٍ استعراضية ذكورية، حيث إن البنطلون (وإن كان بغير أقواس) إلا أنه أكثرُ إبرازًا لعضو الرَّجل من الثوب.

ولا بد من التنويه هنا إلى أنَّ هناك قلةً من الرِّجال أبرياء من هذه الرغبة الاستعراضية أو من أي رغبةٍ أخرى استعراضية. لكنْ هناك رجال يستبدلون رغبتهم الاستعراضية الجنسيَّة باستعراض من نوعٍ آخرَ لإثبات ذاتهم أو ذكورتهم أو قوَّتهم أو سلطتهم أو أي شيء آخر يملكون.

هناك رجلٌ ينفِّس عن رغبته الاستعراضية بأن يجعل زوجته (حين تخرج معه) ترتدي أفخرَ الملابس وآخِرَ طراز (وإن كان ذلك ضد مبادئه الدِّينية والأخلاقية) من أجل أن يثبت للرجال الآخرين أنه يملك زوجةً على قدرٍ من الأناقة والجمال أكثرَ من أي زوجةٍ أخرى من زوجاتهم. وكما يفعل الرَّجل بزوجته يفعل بسيارته مثلًا، من أجل أن يقول للرجال الآخرين إن سيارته أفخرُ السيارات. وبالفعل يوجد التنافس الاستعراضي بين الذُّكور حولَ ما يملكون من زوجات أو أطفال أو سيارات أو بيوت أو شهادات أو أرصدة في البنوك أو عقارات. يحدث هذا لهؤلاء الرِّجال الذين عجزوا عن إثبات ذواتهم بطريقةٍ أخرى سوى الإعلان عن أملاكهم، سواء كانت أملاكًا بشرية أو مادية أو مجرد امتلاك عضو التناسل في أجسامهم.

إنها إحدى سِمات الحضارة الذُّكورية التي نعيشها والتي قامت على الملكية والامتلاك، وأصبحت قيمةُ الإنسان تتحدَّد بمقدارِ ما «يملك» لا بمقدارِ ما «يكون» إنسانًا.

وقد رأينا كثيرًا من الرِّجال الذين يعشقون الاستعراضَ الجنسي عن طريق الصحافة والفن والأدب. كم قرأنا لهذا الرَّجل الصحفي أو الأديب الشهير جولاته وصولاته مع المومسات والممثلات الشهيرات وخادمات الفنادق في أشهرِ مدن آسيا وأمريكا وأوروبا وأفريقيا. كنتُ أندهش وأنا تلميذة صغيرة حين كنت أقرأ لصحفيٍّ اشتهر في زمانه مثل محمد التابعي، الذي كان يحاول في كتاباته أن يتقمَّص شخصيةَ الدون جوان، وفي كل تجوالاته في أنحاء العالم لم يكن يشغَله شيء أكثر من أنه تناول العشاء مرةً مع الشهيرة «جاكلين»، أو أن «أفلين» كلَّمته في التليفون مرة، أو أنه لثم يدَ «كريستين» ذات ليلة،

وشرب البيرة المثلَّجة مع «هلين»، أو طبع قبلةً خاطفة على جبهة «كاترين»! وكم من كُتَّاب وصحفيين تأثَّروا بالتابعي ونهجوا نهجه في كتاباتهم عن رحلاتهم في العالم، ووجدوا في ذلك تنفيسًا عن رغباتهم الاستعراضية.

وكما سبق أن ذكرت ليس ذلك إلا بسبب إحساس الرَّجل بالنقص ورغبته في تعويض هذا النقص بادعاءِ ما ليس فيه.

خيالاتُ الرَّجل الجنسيَّة

بسبب المحظورات والتحريمات الكثيرة المُحاطة بالجنس، فإنَّ بعض الرِّجال يجدون صعوبةً بالغة في الاتصال الجنسي الكامل مع المرأة، ويفضِّلون أن يمارسوا الجنسَ في خيالهم، أو يستبدلوا جسدَ المرأة بشيء آخرَ مثل ملابسها الداخلية أو جوربها. أو يصبح لديهم جزءٌ من جسد المرأة كالذراع أو الثدي، مبعثًا للذةٍ أكثرَ من أعضاء المرأة الجنسيَّة. أو تصبح حركة من حركات المرأة أكثرَ إثارةً لهم من جسد المرأة ذاتها. هناك بعضٌ يثارون جنسيًّا إذا سمِعوا حفيفَ ثوب امرأة وهي تمشي، أو التقطت آذانهم طرقعةَ كعبٍ عالٍ. وهناك أيضًا من النِّساء مَن يثيرهن صوتُ الرَّجل وهو يسعل، أو حركة يده وهو يدخِّن، أو حينما يتنحنح.

مثل هذه الحركات أو الأصوات أو الأشياء تصبح مبعثًا للإثارة الجنسيَّة أكثرَ من الشخص ذاته، بل إنَّ الجسد يفقد قدرته على إثارتهم، وتصبح هذه الأشياء هي مصدرَ الإثارة فقط.

ومن المعروف أن هذا الانحراف الجنسي يحدُث عند الرِّجال أكثرَ منه عند النِّساء. ومن النادر أن نجد هذه المرأة التي يثيرها سروال الرَّجل أو جوربه. لكننا نصادف رجالًا لا يستطيعون أن يلمحوا سروالَ امرأة أو جوربها حتى تتملَّكهم الرغبة الجنسيَّة. وهناك أيضًا الرَّجل الذي يُثار لمنظر سروال صبي أو شَعره الخشن المنفوش أو عضوه الذَّكري. وهذه انحرافاتٌ لا يُعاني منها إلا قلةٌ من الرِّجال. على أنَّ الأغلبية من الرِّجال يشعرون بدرجاتٍ مُتفاوتة من الإثارة إزاءَ جسم المرأة وأعضائها على حسب شخصيته ودرجة نضوجه، وبمقدارِ ما ينحصر تركيزه على عضوٍ أو شيء معيَّن في المرأة.

وبمثلِ ما يستغل تجار الجنس والأفلام والقصص والفنون الجنسيَّة ميولَ الرَّجل السادية والماسوشية، فإن تجار ملابس النِّساء ومصمِّمي أزياء المرأة يستغلون أعضاء

جسم المرأة من أجل إثارة الرَّجل، مركِّزين الاهتمامَ في كل «طراز» من الأزياء على جزءٍ معيَّن من المرأة، ويغيِّرون «الطراز» من عام إلى عام مستخدمين جزءًا آخرَ من جسم المرأة. وهكذا تروج البضاعة.

في سنةٍ من السنين يكون التركيز في أزياء المرأة على النهدين بحيث تصل فتحةُ الثوب حتى بداية الشق بين الثديين. ويرتبط خيال الرِّجال على مدارِ السَّنة بهذا الشق. ثم تأتي السنة التالية فإذا بالأنماط الجديدة تغطي الثديين وتكشف الفخذين كمحاولةٍ لتجديد إثارة الرِّجال، وبالتالي ترويج البضاعة والملابس. وفي السنة التي بعدها تُغطَّى الفخذان ويُكْشَف الخَصر، ويصبح خَصر المرأة هو صاحب النصيب الأكبر في خيال الرَّجل وإثارته ... وهكذا.

إن الحضارة الذُّكورية القائمة على سيطرة الرَّجل من ناحية، وعلى المِلكية الخاصة والربح التجاري بأي شكلٍ من ناحية أخرى، تفرض على النِّساء أن يتحولن إلى أشياءَ أو سلعٍ في السوق التجارية.

ولهذا فإن شكل المرأة وجمالها لا يرجع إليها ولا يتحدَّد حسب إرادتها وشخصيتها، ولكنَّ إرادة الرَّجل هي التي تحدِّد شكل المرأة، وهي التي تغيِّره من حينٍ إلى حين، بحيث يساعد على نجاح بيع السيارات والأفلام ودهانات الوجه ومزيلات الشَّعر والرائحة والصابون المعطَّر وغير ذلك من إنتاج المصانع الرأسمالية. ويسمَّى شكل المرأة في هذه الحالة بالطراز الذي يحتل الصفحات والمجلات والصحف وشاشة السينما والتليفزيون.

ولأن الإنتاج الصناعي الرأسمالي غيرُ محكوم إلا بالربح ومضاعفة رأس المال بصرف النظر عن الاحتياجات الضرورية للأغلبية الساحقة من البشر، فإن معظم هذه السلع المنتَجة لا تمثِّل ضرورةً حيوية لكثير من النَّاس، ولكنها تدخل تحت بند الكماليات. وهل يتصوَّر أحدٌ أن هؤلاء الملايين من الكادحات والكادحين في المصانع والحقول يحتاجون إلى ذلك السائل المزيل لرائحة العَرق، هذا العَرق الذي لا يجفُّ عن أجسادهم ليل نهار؟!

ومن هنا تنشأ الحاجة إلى تلك الإعلانات الصارخة المجنونة التي تصرخ ليلَ نهار، مستخدِمةً أجساد النِّساء العارية والإثارة الجنسيَّة وكلَّ ما يمكنها استخدامه من أجل ترويج البضائع الكمالية وسط ملايين لم يحصلوا بعدُ على الأشياء الضرورية. ويستغل الرأسماليون بالطبع الحاجات النَّفْسية والجنسيَّة لشعوبٍ تعاني الكبتَ الجنسي والحرمان في ظل قيمٍ أخلاقية ودينية تجعل من الجنس إثمًا. ومن هنا تنشأ الازدواجية في موقف الرأسماليين. إنهم يشجِّعون، بل ويحرِّضون، الشعوبَ على التمسُّك بالأديان والأخلاق،

وينفقون الأموال الطائلة من أجل خلق النَّعرات الدِّينية، وهم في الوقت نفسه يستخدمون الإعلانات العارية والفاضحة والضاربة بعُرض الحائط كلَّ القيم الدِّينية والأخلاقية. وهذا أمرٌ منطقي؛ لأنهم يحتاجون إلى الكبت الجنسي الناتج عن هذه القيم من أجل أن يصرفوه من خلال تصريف البضائع. وبالمثل يستخدمون المشاكل النَّفْسية والجنسيَّة الأخرى مثل العنف والعدوان والإدمان والانحرافات الجنسيَّة وغيرها من منتجات الحضارة الذُّكورية من أجل أن يصرفوا البضائع ويضاعفوا الربح.

وقد لوحظ أن الرِّجال في المجتمعات الشرقية يركِّزون اهتمامهم أكثرَ على ساقَي المرأة أو فخذيها، وبعضهم يركِّز على الردفين، أما في المجتمع الأمريكي مثلًا فقد كان ثدي المرأة هو ما يحتل المركز الأول في إثارة الرَّجل خلال النصف الأخير من القرن العشرين. وكان امتلاك الممثلة لثدي بارز مثير هو أهم ما يساعدها على النجاح في عالم السينما والفن والشهرة. قال لي أحدُ الرِّجال الأمريكيين إنَّ تعلُّق الرَّجل بثدي المرأة أكثرُ رقيًّا وتطورًا من تعلُّقه بساقيها أو فخذيها! وسألته عن سبب ذلك، فقال إن السَّبب تاريخيٌّ، وإن الرِّجال الأمريكيين تعلَّقوا في بداية القرن العشرين بساقَي المرأة؛ لأن المرأة الأمريكية سبقت المرأة الشرقية في تعرية ساقيها وفخذيها. على أنَّ أنماط الأزياء تغيَّرت في المجتمع الأمريكي في منتصف القرن العشرين وانتشرت الفساتين الطويلة (بعد أن ملَّ النَّاس ساقَي المرأة وفخذيها)، وأصبحت الأزياء الجديدة تُعرِّي الثدي، ومن هنا أصبح الثدي بؤرةَ الإثارة الجديدة.

أعتقد أنَّ الأزياء الجديدة الآن تُعرِّي الخَصر وجزءًا من البطن (على غِرار ملابس المرأة الهندية).

على أنَّ هذه التجارة وهؤلاء التجار لن يكفُّوا عن التغيير والتعرية والتغطية وأمامهم من البضائع المراد تصريفها الكثيرُ، وأمامهم أيضًا من أعضاء المرأة الكثير.

إنَّ هؤلاء النِّساء الغريرات اللائي يلهثن وراء ملاحقة «الأزياء» وآخر صيحة في الملابس والماكياج لا يدركن أنهنَّ لم يَعُدن نساءً وإنما أصبحن مجرَّد سلع أو أشياء، وأن الواحدة منهن لم تَعُد إنسانًا متكاملًا، وإنما حوَّلتها الحضارة الذُّكورية إلى شيء، إلى سروال، أو قفَّاز، أو سوار، أو ثدي، أو فخذ، أو في أحسن الحالات إلى «مهبل ورحم»، وهي حالة الزوجة التي تعيش في ظل الأسرة الأبوية وفي كنف الزوج المسيطر، وليس لها من وظيفة إلا الزواج والولادة.

إنَّ المرأة النَّاضجة لا تأبه بالأزياء، وترتدي ما تراه مناسبًا لجسمها وشخصيتها، والرَّجل الناضج كذلك لا يحوِّل المرأة إلى شيء أو إلى جزء، وإنما يراها إنسانةً متكاملة مثله. على أنَّ الذين ينضجون من الرِّجال أو النِّساء في هذه الحضارة قليلون، والأغلبية من البشر يسقطون ضحايا الإعلانات التجارية وضحايا القيم الرأسمالية المزدوجة.

أهمُّ سِمات هذه الحضارة التي نعيشها أنها تعتمد على تشييء الأشخاص وتجزئة الكل؛ لأنها حضارة ترتكز على الملكية، فقد أصبحت القيمة الأساسية للأشياء التي تمتلك، وأصبحت قيمة الشخص تتحدَّد بمقدارِ ما يملك لا بمقدارِ ما يكون شخصًا حقيقيًّا. ولأنَّ المرأة أصبحت شيئًا قابلًا للتجزئة وليست شخصًا كاملًا.

إنَّ الفَرق الأساسي بين الإنسان وبين الأشياء هو أنَّ الإنسان غيرُ قابل للتجزئة، لا يمكن أن نقسِّم الإنسان إلى ذراع وساق وبطن وصدر، وإلا فقدَ الصفة الأولى التي تجعله إنسانًا أو شخصًا. أما الأشياء فيمكن تجزئتها. يمكن أن نقطع الكعكة مثلًا إلى أجزاءٍ ونستخدم كل جزء على حدة.

كثيرٌ من الرِّجال حين يريدون مدْحَ امرأةٍ ما يقولون لها: أنتِ لذيذة كالكعكة. لكننا لم نسمع عن امرأة تمدح رجلًا وتقول له: أنت كالكعكة.

وقد تحيَّر كثيرٌ من علماء النَّفس والجنس في الأسباب التي تجعل الرَّجل يُثار جنسيًّا إذا ما تَعَرَّت أمامه فخذُ المرأة مثلًا في حين أنَّ المرأة لا تُثار جنسيًّا إذا ما كشف الرَّجل أمامها عن ساقه أو فخذه أو حتى عضوه التَّناسلي. وقال بعضهم ممن سبقوا فرويد إنَّ الطِّفلَ الذَّكر يميل أكثرَ إلى الخيالات الجنسيَّة، وإن نوعًا من الارتباط الشَّرطي يبقى في ذهنه، فيربط بين ثوبِ أمِّه مثلًا والإثارة الجنسيَّة، أو بين ملابس أخته الداخلية والرغبة. إنَّ هذا يحدُث في الأطفال الذُّكور الذين يميلون إلى الانطواء.

ولكن ألا يحدث هذا الارتباط الشرطي عند الأطفال والإناث؟ ألا تربط البنت بين ملابس أبيها الداخلية وبين الإثارة الجنسية؟ ألا تميل كثير من البنات إلى الانطواء؟ وهل تزيد الخيالات الجنسيَّة عند الذُّكور عنها عند الإناث؟ وقال فرويد إن مثل هذه الميول الجنسيَّة تظهر في الأطفال الذُّكور، وقد ترجع إلى «عامل» نفسي مجهول الأصل، على أنه قال إنَّ أكثر الأطفال عرضةً لها هم ذوو الحساسية الذين يقعون فريسةَ الفكرة المسلطة الثابتة والذين يُعرَّضون للإصابة بالعُصاب فيما بعدُ.

وقد أرجع فرويد هذه الظاهرة في عمومها إلى عقدة أوديب التي يشعر بها الطفل الذكر. وقال فرويد إن الطفل يمارس شيئًا يشبه العادةَ السرية بمداعبة عضوه الجنسي،

وإن هذه الممارسة تعطيه إحساسًا بقيمة هذا العضو، لكنه يعيش في خوفٍ من أن يُفقِدَه أهله هذا العضو بسبب عدم موافقتهم على نشاطه الجنسي. وحينما يكتشف الطفل أن هناك مخلوقاتٍ أخرى (وهن الإناث) لا يمتلكن العضوَ الذي يمتلكه تتحقَّق مخاوفه، ويعتقد أن هؤلاء الإناث فقدن العضوَ كنوع من العقاب، ومن هنا يزداد خوفُه من فقدان عضوه ويصاب بما سُمِّي عقدة الإخصاء. وقال فرويد إن الرَّجل الذي يستعيض عن جسد المرأة بشيء من ملابسها الداخلية مثلًا هو ذلك الطفل الذي اشتدَّ خوفه من فكرة الإخصاء إلى حدٍّ أنه رفض أن يصدِّق فكرةَ أن الأنثى فقدَت عضوها، وأن هذا العضو ما زال في جسدها بالرغم من إدراكه أنها لا تمتلك هذا العضو، وأن ملابس المرأة الداخلية (أو الشيء الذي استعاض به الرَّجل عن جسم المرأة) تلعب دورًا في تأكيد أوهامه بتمثيل غياب العضو في الأنثى. وقد دافع فرويد عن فكرته هذه بأن أمثال هؤلاء الرِّجال المنحرفين يُظهِرون نفورًا شديدًا من منظر أعضاء المرأة الجنسيَّة، وبعضهم يشعر بفزع لو رأى هذه الأعضاء عارية، لكنهم في معظم الأحيان يُخْفُون هذا النفور أو هذا الفزع.

أما لماذا تلعب ملابس المرأة الداخلية هذا الدور بالنسبة للرجل المنحرف في معظم الحالات، فيقول فرويد إن الملابس الداخلية تمثِّل للرجل اللحظةَ الأخيرة قبل أن تتعرَّى المرأة وقبل أن يكتشف أنها لا تملك العضو.

وقد رفض معظم علماء النفس الجدد تفسيرَ فرويد هذا، وأصبحت نظرية التحليل النفسي عاجزةً عن تفسير كثير من الظواهر الجنسيَّة التي يعيشها الرِّجال أو النِّساء.

وقد لعِب بحثُ كينزي وزملائه الذي نُشِر في منتصف هذا القرن دورًا كبيرًا في تفسير كثير من الظواهر الجنسيَّة. وقد تبِع ذلك عددٌ من البحوث التي شاركت في إلقاء مزيد من الضوء ونبَّهت الأذهان إلى العوامل الاجتماعية والتاريخية.

وبالرغم من أن كينزي قد خرج من بحثه بنتائجَ تفنِّد النظريات القديمة القائلة بوجود فروق بيولوجية وجنسية جوهرية بين الرَّجل والمرأة إلا أنه لم يستطِع أن يفسِّر أسبابَ هذا النوع من الانحراف بين الرِّجال.

قال كينزي إنَّ انتشار هذه الظاهرة في الرِّجال دون النِّساء يرجع إلى أن مجالات الإثارة الجنسيَّة عند الرَّجل أكثر اتساعًا وتنوعًا منها عند المرأة. وإن الرَّجل أيضًا أكثرُ عُرضة لأن يقع تحت تأثير الارتباط الشرطي بواسطة الإثارات، والسؤال هنا لماذا؟

وقال بعضٌ آخر إنَّ المرأة لا تتأثر بأي مؤثِّرات جنسية إلا عن طريق اللمس أو عن طريق بعض الكلمات الغرامية. وبعضهم قال إن المرأة تثار جنسيًّا بسهولة إذا لمسها

الرَّجل، وإن النِّساء بصفة عامة لا يُثَرن جنسيًّا من الصور العارية لأجساد الرِّجال أو النِّساء أو الأفلام الجنسيَّة التي تعرض العمليات الجنسيَّة، بعكس الرِّجال الذين يثارون بسرعة من هذه الصور العارية، وإن العُري الجسدي يلهب رغبة الرَّجل؛ لأن الرَّجل يثار عمومًا عن طريق النظر، أما المرأة فلا تثار إلا عن طريق اللمس، وإن الرَّجل عمومًا يثار بسرعةٍ وبطرقٍ كثيرة متعدِّدة، منها النظر ومنها اللمس ومنها الخيال، ومنها الرائحة ومنها الملابس ومنها الحركة ... إلخ. أما المرأة فهي تثار ببطء وعن طريق اللمس فقط أو بعض القصص أو الكلمات الرومانتيكية. وقد يكون ذلك الرَّجل مالكًا عضوًا أكبرَ من البظر، أو أن المرأة عندها رحم. لقد أثبت علماء الجنس أخيرًا، ومنهم كينزي وجونسون وشيرفي[١] وغيرهم، أن مثل هذه الفروق التشريحية والبيولوجية وأن اختلاف نِسب الهرمونات داخل الذكر والأنثى؛ لا تجعل الرَّجل أكثر رغبةً في الجنس من المرأة، بل هناك بعض الآراء الحديثة التي تقول بأن رغبات المرأة الجنسيَّة أشد من الرَّجل لو تُرِكَت لها الحرية لتكون طبيعية وصادقة مع نفسها.

إلا أن الكبت الذي يُفْرَض على المرأة في ظل الأسرة الأبوية والمجتمع الذُّكوري يصيبها بدرجاتٍ مختلفة من البرود الجنسي، وأن الرَّجل في هذه الحضارة أكثرُ حريةً في ممارسة الجنس والإثارة من المرأة.

لقد لاحظت مثلًا أن المرأة في مجتمعنا العربي لا تثيرها الصور العارية كما تثير المرأة في السويد أو الدنمارك؛ وذلك لأن الإثارة الجنسيَّة أصبحت مباحةً للمرأة في هذه المجتمعات، ولم تَعُد المرأة بحاجةٍ إلى أن تخفيَ هذه الإثارة أو تكبتها بوعي أو بغير وعي.

وفي ستوكهولم عاصمة السويد سمِعت من النِّساء عكس هذا الكلام، أي إن الواحدة منهن تحب النظر إلى جسدها في المرآة وتشعر بلذة وإثارة حين تفعل ذلك، وأن منظر عضو الرَّجل يثيرها ويشعرها باللذة.

هل يمكن أن نقول إن المرأة في السويد لم تَعُد امرأة أو لم تَعُد امرأة طبيعية؟ وهل المرأة المصرية مثلًا هي نموذج المرأة الطبيعية؟ هل يمكن أن نقول إن الخلاف الكبير بين المرأة المصرية والمرأة السويدية سببُه الاختلاف الهرموني والبيولوجي بين هذه وتلك؟ هل المرأة السويدية تملك عضوًا أكبر أو بظرًا أكبر من بظر المرأة المصرية؟ ربما يقول

[١] انظر موضوع «الأنثى هي الأصل» في هذا الكتاب.

البعض إن هذا صحيح في تلك الحالات التي يُقْطَع فيها بظر البنات المصريات (عملية الختان الشائعة في مصر)، ولكن هل هذا القطع عملٌ طبيعي أم تدخُّل اجتماعي ضد الطبيعة؟

أصبح من الواضح الآن أن انخفاض الرغبة الجنسيَّة أو درجة الإثارة أو سرعتها تحدِّدها الظروف الاجتماعية والأخلاقية والتربوية في المجتمع أكثرَ من أي شيء آخر.

ومن المهم أن أشيرَ هنا إلى أنني لم أجد في المرأة السويدية رغم حريتها الجنسيَّة المرأةَ والإنسانةَ المتكاملة الشخصية؛ ذلك أن المجتمع السويدي ما زال مجتمعًا ذكوريًّا رأسماليًّا.

إنَّ الخجل والخوف والنقص والإثم والذنب كلها صفاتٌ وأحاسيسُ ترتبط في ذهن الطفل بالجنس، وهي ترتبط في ذهن البنت أكثرَ مما ترتبط في ذهن الصبي بسبب التفرقة في المعاملة وازدواجية القيم الأخلاقية من حيث فرض العفة على النِّساء وإباحة الجنس والتعدُّد للرجال بصفة عامة.

ولأن الضغط على البنت أكثرُ من الولد، ولأن الكبت الجنسي عليها أشدُّ فهي تنكر الجنس أكثرَ مما ينكره الولد.

إنَّ إنكار الجنس لفترات طويلة من حياتها كطفلة ومراهقة وشابة يصيبها في النهاية بالبرود الجنسي، وتدرك بوعي وبغير وعي أنها في غير حاجة إلى الجنس، وأنها لا تثار، بل إن المناظر الجنسيَّة تسبِّب لها النفور. وهذه عملية دفاعية تلجأ إليها البنت بوعي وبغير وعي لتحمي نفسها من الإثارة؛ لأنها تعرف أن هذه الإثارة ستسبِّب لها الكوارث والمشاكل، أو على الأقل ستكون إثارةً مجهَضة؛ لأنها لن تستطيع أن تشبِعَها، ولن يُسمحَ لها بإشباعها بأي حال من الأحوال.

أمَّا الطِّفل الذَّكر فهو لا يصل إلى هذه الحالة ولا يصل الكبت الجنسي بالنِّسبة إليه إلى هذا الحد. إنَّه يشعر في مراهقته أنَّه يستطيع أن يُمارس العادة السِّرية، ويستطيع أن يُغازل البنات، ويستطيع أن يشتريَ الصور العارية، ويستطيع أن يذهب إلى المومسات أو يعتدي على الخادمات، ومن هنا تكون فرصة الإثارة الجنسيَّة أمامه أكثرَ تنوعًا وأكبر مجالًا واتساعًا من البنت. إنه يستطيع أن يستخدم عينيه في النظر إلى جسد البنات، لكن البنات يطرقن خجلًا. إنه يستطيع أن يدرِّب عينيه على رؤية الصور العارية، ويدرِّب أذنيه على سماع الكلمات الجنسيَّة، ويدرِّب أنفه على شم الروائح الجنسيَّة وهكذا … تتعدَّد تجاربه وتتعدَّد معها أنواع الإثارة.

أحدُ أنواع هذه الإثارة هي ملابس المرأة الداخلية التي يلمحها الطفل كثيرًا حين تجلس أمُّه أو أخته أو أقاربه من النِّساء. كثير من النِّساء حين يجلسن تظهر سراويلهن الداخلية. ويشعر الطفل الطبيعي بالإثارة الجنسيَّة، لكن إحساس الذنب والخوف من أهله يصيبه بالقلق كلما فكَّر في الجنس أو شعر برغبة جنسية. قد يزيد خوفه وقلقه إلى الحد الذي يجعله ينكِر الجنس تمامًا ويشعر بالعجز الجنسي. وأحيانًا يتشكك في قدرته الجنسيَّة، أو يخشى أن يعاقبه الأهل فيقطعوا عضوه ويصاب بما سمَّاه فرويد الإخصاء. وهي تسميةٌ خاطئة؛ لأن الإخصاء معناه قطعُ الخصيتين. والرَّجل المخصي لا ينجب أطفالًا لكنه يظل محتفظًا بقوَّته الجنسيَّة. أما قطعُ العضو التناسلي فهو يُفقِد الرَّجل العضو، وبالتالي يفقد الانتصاب.

إن معظم الأطفال يثارون جنسيًّا حينما يرون سراويل البنات، لكن معظمهم يكبرون ويتغلبون بدرجاتٍ متفاوتة على مخاوفهم القديمة وإحساسهم بالذنب والنقص. لكن هناك مَن يتوقَّف نموُّه (بسبب الخوف الشديد) عند هذه المرحلة، ويظل سروال المرأة (وليس المرأة ذاتها) هو الذي يثيره ويسبِّب له الانتصاب.

مثل هذا النوع من الرِّجال حين يتصل بالمرأة يشعر أنها بقدرِ ما تثير رغبته فهي تفقده القدرةَ على الانتصاب. وهناك حالات من الخوف أقلُّ من هذه يعاني منها عددٌ غير قليل من الرِّجال، هذا الخوف الذي يفسِّر لنا تلك الظاهرة الشائعة بين الرِّجال، وهي أن الرَّجل يفقد قدرته على الانتصاب في لقائه الأول مع امرأة جديدة أو عروسه مثلًا، ويسمَّى «عجز ليلة الزفاف» بسبب التهيُّب والتخوُّف. لكنه يستعيد قدرته بعد ذلك، وفي حالات الخوف الأشد يصبح السروال أو أيُّ شيء آخر وسيلةً للهروب من الشيء المخيف، ودفاعًا عن النفس، وتأكيدًا للرجل أنه ما زال قادرًا على الانتصاب، كأنما يصبح السروال في تلك الحالة حجابًا سحريًّا يحفظ للرجل قوَّته. إنه إحدى الوسائل التي يستخدمها الرَّجل حين يشعر بالخوف، وحين يشكُّ في أن قدرته الجنسيَّة ستتغلب على هذا الخوف.

ويقول بعض العلماء إن المرأة لا تعرف أبدًا هذا النوع من الخوف الذي يعرفه الرِّجال؛ لأنها لا تملك عضوَ تناسل مثل الرَّجل ولا يؤرقها مثل ما يؤرقه فقدان القدرة على الانتصاب. لكنَّ عددًا آخر من العلماء أوضح أن مخاوف المرأة (وبالذات المرأة الجديدة التي بدأت تشعر بكيانها وأنها شخص متكامل) من فقدان قدرتها الجنسيَّة أو إصابتها بالبرود

لا تقل أهميةً عن مخاوف الرَّجل، وأنه إذا كان هناك فارقٌ بين مخاوف الرَّجل ومخاوف المرأة فليس ذلك لأسبابٍ تشريحية أو بيولوجية.[٢]

وبالرغم من أن الخوف هو السَّبب الرئيسي وراء مثل هذه الاستبدالات والانحرافات، إلا أنَّ هناك بعض الحالات التي تنتج عن تلك الظاهرة الفسيولوجية المعروفة بالارتباط الشرطي، وهي تحدث للذكور كما تحدث للإناث.

إحدى الحالات كانت لشابٍّ يشعر بالانتصاب كلما رأى مسدسًا، واتضح من دراسة طفولته أنه كان وهو طفل متعلقًا بأمه، لكن أمه ماتت وهو طفل، وكان آخر ما أعطته له أمُّه لعبة على شكل مسدس. وأصبح هذا الطفل يأخذ هذا المسدس كلَّ ليلة في سريره ليذكِّره بأمه وليحضنه كما كان يحتضن أمه. حين كبر هذا الطفل وأصبح شابًّا لم يكن يستطيع أن يتصل بأية امرأة إلا وإلى جواره المسدس.

وقد كان «بافلوف» هو العالِم الفسيولوجي الروسي الذي اكتشف ظاهرةَ الارتباط الشرطي حين أجرى تجربته المعروفة على الكلب. ووجد أن الكلب يسيل لعابُه عند دقِّ الجرس الذي أصبح علامةً للأكل بعد أن دقَّ عدة مرات سابقة في أوقات تقديم الطعام. وخرج «بافلوف» من تجاربه بعد ذلك أن الإنسان والحيوان أيضًا يتعلَّم الاستجابة لبعض المثيرات التي كانت قبل ذلك لا تؤثِّر فيه.

وبالمثل، فقد تعلَّم هذا الطفل الاستجابةَ للمسدس كمبعث إثارة جنسية وعاطفية، بمعنًى آخر ارتبط المسدس في ذهن الطفل بالراحة والتخلُّص من التوتر الجنسي، وأصبح المسدس مؤثرًا كجسد المرأة على قدرته الجنسية. وفي النهاية أصبح المسدس بديلًا عن المرأة في إثارته وفي إحداث اللذة الجنسية.

وقد يحدُث مثل هذا الارتباط الشرطي للبنت التي تستبدل الرجل بالوسادة أو أي شيء آخر بسبب الحرمان الشديد في الطفولة من حب الأب أو الأم أو بديليهما، أو بسبب شدة الإحساس بالذنب.

إنَّ جسد الرَّجل يسبِّب لها إحساسًا بالذنب، أما الوسادة فشيء آخر يمكن أن يمنحها اللذةَ بغير إحساس بالذنب.

إنَّ اللذة الجنسيَّة حين تُكْبَت بشدة (في حالة الولد أو البنت) فإنها تنحرف عن هدفها الطبيعي، وهو جسدُ الرَّجل أو جسد المرأة، وتتجه إلى شيءٍ آخرَ بعيدٍ عن الجسد، وبعيد

[٢] انظر «خوف الرجل من المرأة وعقدة النقص» في هذا الكتاب.

بالذات عن الأعضاء الجنسيَّة؛ ولهذا تصبح هذه الأعضاء عند هؤلاء مصدرًا للنفور والغثيان وليست مصدرًا للذة أو الإثارة.

ومن المعروف تاريخيًّا أن الرَّجل ينطوي في أعماقه على خوفٍ قديم من المرأة وبالذات من أعضائها الجنسيَّة. وهناك عددٌ من الآراء تفسِّر ذلك،[٣] منها أن المرأة كانت في الأصل أقوى من الرَّجل، وأنها كانت بحكم الولادة القادرةَ على خلق الحياة. إنَّ الرجل في داخله يُعجب بقدرة المرأة هذه، لكن الإنسان لا يستطيع أن يُعجب بقدرةٍ ما لا يملكها دون أن يكرهها. والكراهية تولِّد الخوف. وقد تركَّز خوف الرَّجل من المرأة في أعضائها الجنسيَّة؛ لأنه أثناء الجنس يسلِّم عضوَه لها وأنها تحتويه داخلها وقد تسحقه، وبسبب رغباته الجنسيَّة أيضًا نحو أمِّه وخوفه من هذه الرغبات المحرَّمة.

هذا الخوف من المرأة ومن أعضائها هو الذي يجعل بعضَ الرِّجال يبحثون عن أشياءَ أنثوية أخرى تبعث فيهم اللذة ولا يصاحبها مثل هذا الخوف.

والأشياء الأنثوية هي الأشياء التي تستخدمها النِّساء ولا يستخدمها الرِّجال مثل المشدات، والجواهر، والكعب العالي وغيرها.

كثير من الرِّجال يحبُّون أن ترتديَ المرأة المشدات والجواهر والكعب العالي، وكل الأشياء الأنثوية الخاصة بالنِّساء وحدَهن، التي تزيد من الفروق بين النِّساء والرِّجال، أو أن تتبرج المرأة وتصبح أقربَ ما تكون إلى المومسات، وأبعدَ ما تكون عن الأمهات، والسَّبب في ذلك يرجع إلى إحساس الطفل القديم بالذنب حين اشتهى أمَّه المحرَّمة، بالإضافة إلى الإحساس بالنقص ورغبة الرَّجل في تأكيد ذكورته الشديدة. إن تأكيد الصفات الذُّكورية الشديدة لا يمكن أن يتحقَّق إلا في مواجهة الصفات الأنثوية الشديدة التناقض معها، كالأبيض لا يصبح أبيضَ إلا في مواجهة الأَسْود.

إنَّ الرَّجل من هؤلاء لا يطيق امرأةً بغير مشدات أو بغير جواهر أو بغير كعبٍ عالٍ؛ لأنها تصبح في نظره شبيهةً بالرِّجال، وهذا الشبه يفزعه؛ لأنه لا يستطيع أن يؤكد ذكورته إلا عن طريق الاختلاف، وكلما كان الاختلاف شديدًا بينه وبين المرأة تأكَّد من إحساسه برجولته.

ولعل هذا يفسِّر لنا بعضَ نماذج تلك الأزياء النسائية الصارخة في الملابس والزينة والأحذية، التي تركِّز أكثرَ ما تركِّز على إبراز الاختلافات بين الرِّجال والنِّساء. هذه الفساتين

[٣] انظر: «المرأة والجنس».

الضيقة التي تُظهِر الأرداف والأثداء. هذه الكعوب العالية المدبَّبة التي تجعل خطوات المرأة بطيئة، متأرجحة وأحيانًا مؤلمة. وكم يحب الكثيرون من الرِّجال هذا الكعب العالي المدبَّب المؤلم. إنه بالإضافة إلى تأكيد الاختلافات الشديدة بين مِشية الرَّجل ومِشية المرأة، أو شكل قدمَي الرَّجل وشكل قدمَي المرأة، فإنه يؤلم المرأة ويلعب هذا الألم دورًا في تخفيف الرغبات السادية والماسوشية عند الرِّجال.

إنَّ هذا الكعب العالي المنتشر بين نساء العالَم أجمع، الذي يشوِّه مِشية المرأة ويبطئها ويؤلمها، هذا الكعب العالي يسعد الرِّجال إلى حدِّ أنهم صمَّموا أرضَ الطيارات وممرَّات ناطحات السحاب بحيث تناسب كعوبَ النِّساء العالية. لقد أصبح الكعب العالي سلاحًا خطيرًا ضمن الأشياء الأنثوية الأخرى التي تزيد من الفروق بين الرَّجل والمرأة، والتي تجعل النِّساء أكثرَ ضَعفًا وأكثر قيودًا وأكثرَ هزالًا، بحيث يمكن للرجل أن يتخذ موقفَ الأقوى بسهولة.

ويلعب التُّجار والرأسماليون على هذه العُقَد الذُّكورية ويستخدمونها في تصميم إعلاناتهم عن البضائع؛ ولذلك تتجه الإعلانات دائمًا إلى إبراز المظاهر الأنثوية مثل الكعب العالي، والثدي والأرداف والشَّعر والخَصر، والمشدات والشفتين، وملابس المرأة الداخلية المميزة.

على أنَّ الرَّجل الناضج الواثق من نفسه كرجل وشخص متكامل لا يُثار من هذه الأشياء ولا يحرص على إبراز أو تضخيم الفروق بين الرَّجل والمرأة. وكذلك المرأة الناضجة الواثقة من نفسها كامرأة وشخص متكامل لا تحرص على إبراز أو تضخيم ما سُمِّي بالأنوثة، إنها لا ترتدي مثل هذا الكعب الأنثوي العالي؛ لأنه يؤلمها ويعطِّل حركتها، وتفضِّل الكعب المنخفض الذي يمنحها حريةَ الحركة وسرعتها، إنها واثقة كل الثقة من شخصيتها كامرأة، وهي في غير حاجة إلى عوامل مساعدة لتأكيد أنوثتها، إن هذا التأكيد ينبع من ذاتها نفسِها. كذلك الرَّجل الناضج الواثق من نفسه، إنه لا يحتاج إلى كل تلك المبالغات في الفروق بين الرَّجل والمرأة أو كل تلك العوامل المساعدة لتأكيد ذكورته، إنَّ هذا التأكيد ينبع من ذاته نفسِه.

هؤلاء النِّساء والرِّجال الناضجون الواثقون من ذواتهم لا يفزعهم أن يسيروا في الشارع هذه الأيام فيقابلوا شابًّا له شَعر طويل، أو فتاة ترتدي سروالًا. إنهم لا يفزعون من أن يروا شخصًا ما من الخلف فلا يعرفون إذا كان ولدًا أو بنتًا. إنهم لا يفزعون من أن تختفيَ الفروق الشكلية بين الرِّجال والنِّساء؛ لأنهم واثقون من حقيقة أنفسهم كرجال أو كنساء، وليسوا في حاجةٍ إلى وسائلَ أخرى خارج أنفسهم لتؤكِّد لهم حقيقتهم.

إنَّ أهمَّ مقوِّمات الصحة النَّفْسية ورضا الإنسان وسعادته في مختلِف نواحي الحياة (ومنها الناحية الجنسيَّة) هي أن يكون الإنسان نفسه، وألا يكون نسخةً أخرى من الآخرين، رجالًا كانوا أو نساء.

لكنَّ الحضارة الذُّكورية التي نعيشها تفرض على الرِّجال ألا يكونوا أنفسهم، بل أن يكونوا ذكورًا، وتفرض على النِّساء ألا يكُنَّ أنفسهن، بل أن يكنَّ إناثًا. بمعنًى آخر أن الرَّجل يجد نفسه مطالَبًا دائمًا ومنذ الطفولة بأن يكون صورةً أكبر وأضخم من حقيقته ليصبح الذَّكر المنوط به السيطرة والتحكم في أسرته الأبوية. وتجد المرأة نفسَها مطالَبة دائمًا ومنذ الطفولة بأن تكون صورةً أقل من حقيقتها لتصبح الأنثى المنوطَ بها الخضوع والطاعة والخدمة داخل الأسرة الأبوية.

ولا شك أن كلتا الحالتين، تكبير النفس أو تصغيرها، عمليةٌ مرهقة على الإنسان تسبِّب القلق الدائم والخوف من الفشل. إنها مرهقة لأنها موجَّهة ضد النفس الحقيقية.

على أنَّ عملية تكبير النفس وتضخيمها المطلوبة من الرَّجل أشدُّ صعوبة، وبالتالي فإن خوف الرَّجل من الفشل أشدُّ من خوف المرأة، ومن هنا أيضًا تنشأ مخاوف الرَّجل الجنسيَّة، وقلقه على قدرته، وخوفه من فقد الانتصاب، ومشاكل السادية والماسوشية وغيرها.

وهناك قلةٌ من الرِّجال والنِّساء، كما ذكرتُ سابقًا، استطاعوا أن يرفضوا عمليةَ التكبير أو التصغير، وساعدتهم ظروفهم في الطفولة على أن يثقوا في نفوسهم الحقيقية ويحترموها، ساعدتهم ظروفهم التي منحتهم الحريةَ أن يكونوا أنفسهم، وهذا هو ما يُطلق عليه النضوج.

إنَّ قمَّة نضوج الشخصية هي أن يُصبح الإنسان نفسَه، هي أن ينجح في التغلب على القوى الأسرية والاجتماعية في المجتمع الذُّكوري التي تفرض عليه تغيير نفسه.

ولا يمكن للرجل أو المرأة بغير هذا النضوج أن يعرف الحبَّ الحقيقي، فالحب يتطلَّب أول ما يتطلب من الإنسان أن يكون نفسَه على حقيقتها.

حينما ينضج الرَّجل ويعرف نفسَه الحقيقية يدرك أنه إنسان تمتزج فيه على الدوام الصفات الإنسانيَّة المتغيرة والمتناقضة من حيث القوة والضَّعف والإيجابية والسلبية والإقدام والإحجام والشجاعة والجبن والنشاط والتراخي والأخذ والعطاء، بمعنًى آخر يدرك الرَّجل أنَّ فيه من الصفات ما يمكن إدراجُه تحت بند الأنوثة (حسب تصنيف الحضارة والمجتمع)، وفيه من الصفات ما يمكن إدراجه تحت بند الذُّكورة أو الرجولة.

وكذلك المرأة حين تنضج وتعرف نفسَها الحقيقية، تدرك أنها إنسانة تمتزج فيها على الدوام الصفاتُ الإنسانيَّة المتغيِّرة والمتناقضة من حيث الإيجابية والسلبية والقوة والضَّعف والشجاعة والجبن والإقدام والإحجام والنشاط والتراخي والأخذ والعطاء.

أي إنَّ الرَّجل الناضج والمرأة الناضجة يكتشفان أنهما متشابهان، ومن هنا الفهم الواعي الجديد للحب الناضج أو الحب الحقيقي، هذا الحب الذي يقوم على التشابه وليس على الاختلاف.

الإنسان الناضج يسعده التشابه، أما الإنسان غير الناضج فإنَّ التشابه يفزعه. وهذا الفزع يرجع، كما ذكرتُ سابقًا، إلى أنه فقدَ نفسَه الحقيقية ولم يَعُد لديه ما يؤكد له وجود هذه النفس إلا الظواهر الخارجية التي تقول له إنَّ هذا «ذكر»، وإنَّ هذه «أنثى»، أو: أنا «ذكر» وهي «أنثى»، وأنَّ سعادته بالاختلاف الظاهر الواضح أو الصارخ بين الرِّجال والنِّساء. ومن هنا ذلك الرأي الذي شاع عن أنَّ الحب يقوم على الاختلاف، وأنَّ الرَّجل يلتقي بنقيضه الأنثى، وأن الواحد منهما يكمل الآخر. وهذا التعبير «يكمل الآخر» يدل على أن الرَّجل والمرأة من هؤلاء يشعر أنه ناقص وأنه في حاجة إلى مَن يكمله، وهذا الشعور بالنقص يتلاشى مع النضوج.

الاعتداء الجنسي على الأطفال

رأيتُ في عيادتي الطِّبية (قبل أن أغلقها) حالاتٍ كثيرةً دفعتني دفعًا إلى أن أُكرِّس جزءًا من حياتي لكشف القناع عن وجه ذلك المجتمع المزدوج، الذي يدَّعي الفضيلة علنًا ثم يمارس شيئًا آخر في السر. ولأنني طبيبة فقد تعوَّدت قبل أن أفحص المريض أن أخلع عنه ملابسه إذا كان المرض في جسده، أو أخلع عنه أقنعته إذا كان المرض في النفس، وفي كلتا الحالتين، التعرية الجسدية والتعرية النَّفْسية، يشعر الإنسان بالذعر، وبسبب هذا الذعر يرفض كثيرٌ من النَّاس هذه التعرية، ويشدُّون الغطاءَ أو القناع على أجسامهم ونفوسهم؛ أملًا في أن تظل حقيقتهم بعيدةً عن الأعين، مختفيةً في ذلك السرداب المظلم داخل النفس. لكنه أملٌ غير قابل للتحقيق في كثير من الأحيان؛ فالحقيقة وإن اختفت في القاع البعيد تظل حيةً تتنفس طالما الإنسان يتنفَّس، وقد تُطِلُّ برأسها فجأةً إذا ما غفل الإنسان لحظة. وما أكثرَ اللحظات التي يغفل فيها الإنسان، مثل لحظة الغضب أو الشهوة أو الخوف، فإذا به ينسى أن يضع القناع.

لكن لحظة المرض هي أكثر اللحظات التي يصبح فيها الإنسان عاجزًا عن ارتداء القناع، ويُضطر إلى أن يعرِّي جسدَه ونفسه، فالتعرية هنا أقلُّ خطورةً من المرض، والشفاء أصبح مطلوبًا بأي ثَمن.

من أجل هذا السَّبب يرى الطبيب أو الطبيبة من حقائق الجسد والنفس والمجتمع ما لا يراه الآخرون.

إحدى الحالات التي مرَّت عليَّ هي فتاة طويلة شاردة العينين، كانت تشكو عدةَ أوجاع جسدية ونفسية. ولن أدخل الآن في تفاصيل مرضها، ولكني ما زلت أذكر قصَّتها، وهذه هي بداية القصة كما حكَتها لي بلسانها:

أذكر أنني كنتُ في الخامسة من عمري حينما كانت أمي تأخذني معها لزيارة بيت أسرتها الكبير في ضاحية الزيتون ناحيةَ مصر الجديدة. كانت أمي تضحك وتتكلَّم مع أمها وأخواتها، وكنت أنا ألعب مع أطفال الأسرة، والبيت كله يملؤه المرح والصخب والضجيج. لكن ما إن يدق الجرس معلنًا وصولَ جَدي إلى البيت حتى يهدأ الجميع، ويصبح صوتُ أمي منخفضًا ويختفي الأطفال، أما جَدتي فتذهب إلى جَدي وتساعده في خلع بدلته وحذائه وهي صامتةٌ مطرِقة الرأس.

وكنتُ كبقية أفراد الأسرة من الكبار أو الأطفال أخاف من جَدي، ولا أضحك في وجوده أو ألعب. لكنه بعد الغداء وبعد أن ينام الكبار (فترة القيلولة) يناديني بصوتٍ أقلَّ خشونةً من صوته المعتاد قائلًا: تعالي معي نقطف بعضَ الزهور من الحديقة.

حين نصل إلى الركن الخلفي من الحديقة يصبح صوتُ جَدي رقيقًا كصوت جَدتي، ويدعوني إلى الجلوس جواره على الدكة الخشبية المقابلة لحوض الزهور، يناولني بعضَ الزهور الحمراء والصفراء، وحينما أنشغل بالزهور يُجْلِسني على ركبتيه، ويظل يهدهدني ويغنِّي لي حتى أغمض عيني كأنما سيغلبني النوم. لكني لم أكن أنام لأني كنتُ أحسُّ يده وهي تزحف بحذر ورقَّة تحت ملابسي ويمتد أصبعه في تلك المنطقة المختفية تحت السروال.

كنتُ في الخامسة من عمري، ومع ذلك فقد أدركتُ من حيث لا أدري أنَّ ما يفعله جَدي منافٍ للأخلاق، وأنَّ أمي (لو علِمت) فسوف تغضب مني وتؤنبني، وأنَّ الواجب عليَّ كبنت مؤدَّبة أن أقفز بسرعة من فوق ركبتَي جَدي وألا أطيعه مرةً أخرى حين يدعوني إلى النزهة في الحديقة.

لكني أدركت وأنا في الخامسة أنني لست بنتًا مؤدَّبة وأنني أظل جالسةً فوق ركبتيه، لست جالسة فحسب، وإنما جالسة ومستمتعة أيضًا، وحينما يسمع جَدي صوتَ أمي تناديني يسحب يدَه بسرعة من تحت ملابسي، ويهزُّني كأنما ليوقظني من النوم قائلًا: ماما تناديك. وأفتح عينيَّ كأنما أصحو من النوم، وأجري إلى أمي بوجهٍ بريء كوجوه الأطفال في الخامسة من العمر. وتسألني أمي قائلة: أين كنتِ؟ وأردُّ بصوت الأطفال البريء: كنت مع جَدي في الحديقة.

وتطمئن أمي كلَّ الاطمئنان حين تسمع أني كنت مع جَدي في الحديقة. لم تكن تشجِّعني على النزول إلى الحديقة وحدي، وتحذِّرني دائمًا من ذلك الرَّجل

«الجنايني» ذي الجلباب الذي كان يرشُّ الزهور بالماء، حتى أصبحتُ لا أخاف من الرَّجل وحدَه، وإنما من رذاذ الماء الذي كان يتطاير في الجو.

حين صعِد جَدي إلى البيت يرتدي شخصيته الأخرى التي يخافها الجميع (وأنا منهم) ويمسك «السبحة» الصفراء بين أصابعه، وأكاد أظن أنَّ جَدي الذي يداعبني في الحديقة ليس هو جَدي الذي أخافه وهو جالس على رأس المائدة، وأحيانًا أظن أن ليس لي جَد واحد وإنما هما جَدَّان اثنان.

حين مات جَدي وأنا في العاشرة من عمري لم أحزن عليه، بل شعرتُ بفرح غامض غريب، وأخذت أجري وألعب وأضحك مع الأطفال، لكن أمي أنَّبتني وحبستني في البيت قائلة: ألا تعرفين أن جَدك مات؟ لا تعرفين الأدب؟

«وهل عرف جَدي الأدب؟» كنت على وشْك أن أسألها هذا السؤال لكني خِفتُ منها وسكتُّ. وظللت ساكتة وظلَّ هذا السرُّ بيني وبين نفسي، وهذه أول مرة أحكيه لكِ يا دكتورة.

هذا جزءٌ مما حكَته لي هذه السيدة، وهي لم تفتح قلبها لي إلا بعد أن وثِقت تمامَ الثقة أنني لن أصدر عليها حكمًا أخلاقيًّا معينًا. وكثير من النِّساء والفتيات اللائي تردَّدن على عيادتي كُنَّ يمتنعن أولَ الأمر عن البوح بمثل تلك الأسرار، لكن بعد أن يثقن بي يبدأن في التخفيف من الأشياء المؤلمة التي أغلقن عليها قلوبهن.

وقد يتصوَّر بعض النَّاس أن مثل هذه الحوادث نادرة أو قليلة، لكن الحقيقة هي أن هذه الحوادث ليست قليلة وإنما هي مختفية في القلوب، مكتومة في الصدور، لا تجرؤ الفتاة على البوح بها، كما أن الرَّجل المعتدي بالطبع لا يمكن أن يعترف بها.

ولأن هذه الحوادث تقع للأطفال أو البنات الصغيرات جدًّا فإن ذاكرتهن تنسى،[١] والنسيان هنا ليس نسيانًا كاملًا في بعض الأحيان؛ لأن الحادث يظل مدفونًا في العقل الباطن، وقد يظهر فجأةً بسببٍ من الأسباب أو في أزمةٍ نفسية معينة.

إنَّ ذاكرة الإنسان بطبيعتها تنسى ما تريد أن تنساه من حوادث مؤلمة أو حوادث تسبِّب إحساسًا بالإثم أو الندم، خاصةً تلك الحوادث الصغيرة في الطفولة التي لم يكتشفها أحد.

---

[١] انظر: «المرأة والجنس».

ومن المعروف في كثيرٍ من البحوث النَّفْسية والجنسيَّة أن الأطفال سواء من الذُّكور أو الإناث يتعرضون لاعتداءات أو مداعبات جنسية من رجالٍ كبار أو نساء كبار من داخل الأسرة أو من الغرباء. يحدُث ذلك في مختلِف الطبقات الاجتماعية بأشكال متعددة، يختلف باختلاف المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للأسرة، لكنَّ جوهرها من حيث الفعل واحد؛ فالفعل الجنسي هنا يحدُث بين شخص كبير وطفل صغير، الشخص الكبير في معظم الأحيان هو الذي يبدأ، وهو الذي يريد أن ينفِّس عن حاجةٍ جنسية بيولوجية بحتة لا يجد لها متنفَّسًا في المجتمع من حوله، ولا يجد أمامه إلا طفلًا يملك أعضاءً جنسية، ولكنه لا يملك القوة أو الشجاعة للرفض أو المقاومة أو حتى التبليغ عن الفعل بعد انتهائه.

معظم هذه الأفعال تتم في سرِّية كبيرة، لا ينكشف منها إلا النادر عن طريق الصدفة المحضة؛ لأن معظم الأطفال (بسبب الخوف من اللذة المحرَّمة) يشعرون بنوعٍ من الإثم يمنعهم من الشكوى، ولأن معظم الكبار الذين يمارسون مثل هذه الأفعال الجنسيَّة مع الأطفال هم في كثير من الأحيان فوق الشبهات، منهم مَن هو الجَد الصارم المهيب الشخصية الذي ينفق على البيت كله ويحترمه الجميع، ومنهم مَن هو العم أو الخال المستقيم الأخلاق الشديد التديُّن الذي لا يكفُّ عن العبادة، وأحيانًا يكون الأخ أو الأب أو المدرِّس الخصوصي بل مدرس الصف في المدرسة. وقد نشرت جريدة أخبار اليوم في ٢٣ فبراير ١٩٧٤م، الصفحة العاشرة، تحت عنوان «النيابة تأسف لحفظ التحقيق» حرصًا على مستقبل ٩ تلميذات صغيرات، والقضية كانت ضد مدرس الفصل الذي كان ينفرد بتلميذاتٍ صغيرات يتراوح عمرهن ما بين ٧ سنوات إلى ١٢ سنة. وتقرَّر حفظ التحقيق بالنسبة للمدرس المتهم، وجاء في قرار الحفظ: إنه وإن كانت التهمة ثابتة على المتهم، الأمر الذي يستوجب محاكمته جنائيًّا بتهمة هتك عِرض بنات صغيرات، إلا أنه نظرًا لصِغر سنِّ التلميذات المجني عليهن ولعدم إقحامهن أمام محكمة الجنايات للإدلاء بشهادتهن، فإن النيابة تأسف وهي تحفظ الدعوى الجنائية ضد المتهم، وتطلب نقله من مهنة التدريس للبنات إلى مهنة أخرى.

ومن هذه الحادثة نعلم الآتي:

(١) حوادث الاعتداء على الأطفال البنات لا تذهب إلا نادرًا إلى النيابة، بسبب حرص العائلات على سُمعة بناتهن، وبذلك ينجو الرَّجل المعتدي من مجرد الإبلاغ عنه.

(٢) حين تصل مثل هذه الحوادث إلى النيابة وتثبت تهمةُ هتك العِرض، فإن النيابة تحفظ الدعوة حرصًا على سُمعة البنات الصغيرات، وينجو المتهم من أي عقاب.

(٣) إذا اغتصب رجلٌ فتاةً جاوزت السادسة عشرة فإن العقاب الذي يُفْرَض عليه هو أن يتزوجها، وفي معظم الأحيان يتزوجها الرَّجل ثم يطلِّقها بعد أيام وتنتهي المشكلة بالنسبة إليه.

يحدُث هذا الظلم الفادح الواقع على البنات بسبب القيم الأخلاقية المزدوجة التي تَفرض على البنات العذرية والشرف، أما الرِّجال فلا شيء يمسُّ شرفهم وإن كان هو الاعتداء على طفلة أو بنت صغيرة.

وفي حالة اعتداء العم أو الأب أو الأخ على إحدى بنات الأسرة فإن الأمر بالطبع يُكْتَم تمامًا كأحد أسرار الأسرة خوفًا من الفضيحة وتلويث اسم العائلة الكريمة، وتواجه البنت وحدَها نتائجَ هذا الاعتداء حين تصطدم في المستقبل بمشاكل العذرية والزواج والطلاق وغير ذلك من القوانين التي تضطهد المرأة وحدَها.

إحدى المريضات اللائي فحصتُ حالتهن كانت طبيبة ناشئة تخرَّجت من كليَّة الطِّب وعُقِد قِرانها على أحد زملائها. في ليلة الزفاف اتضح أنَّها ليست عذراء، صرَّحت لزوجها أنَّها فقدت عذريتها وهي طفلة بسبب أبيها، لكنَّ زوجها صُدِم صدمةً شديدة وطلَّقها. عادت الزَّوجة إلى أمِّها وأبيها. لم تستطِع أن تحكي لأمِّها السرَّ خوفًا من أبيها، واتهمتها أمُّها بالانحراف، بل إن الأب نفسَه اشترك في اتهام الابنة. وهنا انفجرت الابنة بالبكاء وواجهت أباها بالحقيقة التي كانت تكتمها. صُدِمَت الأم وكادت تُصاب بانهيار. لكن الأب ضرب الابنة وكذَّبها. أُصيبت الابنة بانهيار عصبي فأخذها إلى الطَّبيب النَّفسي. وكما يحدث دائمًا فقد صدَّق الطَّبيب الأبَ وكذَّب الابنة. وأصبحت الابنة هي المتهمة، وهي المريضة، وأصبح الأب بريئًا نظيف السُّمعة.

وبهذا يمكن القول إنَّ الطفلةَ البنت حين يعتدي عليها رجلٌ فإن أحدًا لا يستطيع أن ينقذها، القضاء والمحكمة تعجز عن إنقاذها، وتعجز أيضًا عن عقاب الرَّجل. والطبيب النفسي يعجز عن إنقاذها ويعجز أيضًا عن اتهام الرَّجل. وزوج المستقبل أيضًا يعجز عن إنقاذها ويطلِّقها؛ لأن الرَّجل الشريف لا يمكن أن يتزوج فتاةً ليست عذراء[٢] بأي حالٍ من الأحوال.

---

[٢] انظر باب العذرية ومفهوم الشرف في «المرأة والجنس».

أمَّا إذا كان الرَّجل المعتدي خادمًا فقيرًا في أسرةٍ محترمة فإن الأمر إذا عُرِف (ونادرًا ما يُعْرَف أيضًا) فهذا الخادم قد يلقى من العقاب ما يبدأ من الضرب والسَّجن إلى القتل. إن المحكمة هنا قد تكون واحدة، والقانون واحدًا، لكن أمثال هؤلاء الفقراء من الطبقة الأدنى يُحاكَمون بقانون آخَرَ هو قانون الأسياد والعبيد، قانون الذين يملكون إزاء الذين لا يملكون.

هذا القانون الذي سبق أن أطلق سراح الرَّجل من طبقةٍ أعلى.

وهكذا ندرك أن مؤسَّسات العدالة في المجتمع ليست عادلة؛ لأنها لا تساوي بين الرَّجل من طبقةٍ أعلى والرَّجل من طبقة أدنى. وهي لا تساوي بين الذُّكور والإناث، ومثلها أيضًا جميع المؤسَّسات في المجتمع الذُّكوري، ومنها مؤسَّسة الطب النفسي حيث ينضم الطبيب النفسي (لكونه رجلًا) إلى الأب والعم والخال والزوج، ولا يستطيع أن يفهم مأساةَ البنت أو المرأة.

وقد استطاع كينزي في بحثه المعروف الذي أجراه في المجتمع الأمريكي في الخمسينيات من هذا القرن، أن يخرج ببعض نتائجَ تدل على أنَّ الاعتداء الجنسي على الأطفال ليس نادرًا، وأن الرَّجل المعتدي قد يكون من الغرباء أو يكون أحدَ أفراد الأسرة نفسِها.[٣]

وهناك العديد من البحوث أُجرِيَت في مختلِف المجتمعات لمعرفة أسباب تلك الظاهرة، وتختلف الأسباب بطبيعة الحال باختلاف نوع المجتمع والظروف التي يعيش فيها النَّاس، سواء كانت مادية اقتصادية أو أخلاقية ودينية.

وُجِد أنه في الأُسَر الفقيرة التي تعيش الأسرة الواحدة بذكورها وإناثها في حجرة واحدة أَنَّ مثل هذه الاعتداءات تحدُث كثيرًا من ذكور الأسرة على بناتها الصغار، وبالذات في مجتمعٍ قائم على الكبت الجنسي وعلى تأثيم الجنس وترسيب عُقَد النقص والخوف في نفوس الشباب. إنَّ الكبت الجنسي والتخويف والتزمُّت ينتج شبابًا يعانون من عُقَد النقص ولا يثقون بقدراتهم الجنسيَّة إلا مع الطفل.

وهناك بعضُ رجال يشعرون برغبةٍ جنسية نحو الأطفال فقط، وهي حالةٌ نفسية تُعْرَف في الطب النفسي باسم Paedophilia وبعضهم يشعر من حينٍ إلى حين بهذه الرغبة، لكنه لا ينفِّذها إلا في الخيال فحسب. وهؤلاء في معظمهم أزواج يمارسون الجنس مع زوجاتهم، والقلة منهم رجالٌ يمارسون الجنس مع الرِّجال فقط.

[٣] انظر: «الأنثى هي الأصل».

مثل هؤلاء الرِّجال عجزوا عن الشعور بالإشباع الجنسي مع الكبار لأسبابٍ نفسية، منها عقدة النقص والإحساس بالذنب والخوف. إنَّ الرَّجل منهم يخاف المرأةَ الناضجة، ويصبح الطفل أو الطفلة أقلَّ خطرًا وأقلَّ تهديدًا، وهو يستطيع أن يسيطر عليها أكثرَ من المرأة الناضجة.

هناك اعتداءٌ على الأطفال، ذكورًا وإناثًا، لكن الاعتداء على البنت يَلفت النظر أكثرَ ويصدم الرأي العام أكثرَ بسبب قيمة العذرية، أما الاعتداء على الذكر فإنه يبدو في نظر النَّاس أقلَّ خطورةً من الاعتداء على البنت.

مع المرأة الناضجة قد يشعر الرَّجل المصاب بعقدة النقص والسادية برغبةٍ في أن يضربها ليشعرَ أنه أخضعها، لكنه مع الطفلة لا يحتاج إلى أن يضربها؛ لأنه يشعر أنه يخضعها بحكم أنه أكبر سنًّا وجسدًا وأنه أقوى. إن الطفلة أيضًا لا تمثل تهديدًا كبيرًا لذكورته وسيادته.

وقد يشعر الرَّجل أيضًا أنه ما من امرأةٍ ناضجة يمكن أن ترضى به، وأنه مع الطفلة يستطيع أن يؤثِّر عليها بسهولةٍ أكثر، ويقنعها بأنه رجل، الأمر الذي فشل فيه مع المرأة الناضجة.

وقد يشعر الرجل أيضًا أنه ما من امرأةٍ ناضجة يمكن أن ترضى به، وأنه مع الطفلة يستطيع أن يؤثِّر عليها بسهولة أكثر، ويقنعها بأنه رجل، الأمر الذي فشِل فيه مع المرأة الناضجة.

وهناك أيضًا ذلك الرَّجل الماسوشي الذي تستهويه مثل هذه الجريمة الجنسيَّة كنوع من الرغبة في امتهان نفسه وممارسة أدنى الرغبات التي يكتشفها في أعماقه، كأنما يريد أن يقول لنفسه أنا دنيء وأستحق العقاب. ويُشعِره العقاب الذي يناله، سواء من النَّاس أو من ضميره، بنوعٍ من الرضا والإحساس بالتطهُّر من الإثم.

ويقول بعض علماء النفس إنَّ الكاتب الروسي الكبير دوستوفسكي كان يشعر بمثل هذه الرغبات أو أنه مارسها فعلًا. وقد قيل إنه اعترف لصديقه الكاتب تورجينيف بأنه اعتدى مرةً على بنتٍ صغيرة، ولم يرَ دوستوفسكي على وجه صديقه أيَّ انزعاج أو حتى إشفاق، فترك صديقه غاضبًا وانصرف.

ومن هذه القصة حَكم بعضُ هؤلاء العلماء بأن دوستوفسكي كان يشعر بمثل هذه الرغبة، وأنه عبَّر عنها في روايته الجريمة والعقاب من خلال شخصية «سفيدريجيلوف»، وفي الفصل الذي سمَّاه «الممسوس» (الذي رفض الناشر أن يطبعه) اعترف «ستافروجين» بأنه اقترف هذه الجريمة أيضًا.

ويدافع آخرون من علماء النفس عن دوستوفسكي من أجل نفي هذه التهمة عنه، على أية حال فإنه من الصعب معرفةَ الرغبات الدفينة في أي إنسان. ويحاول كثير من النَّاس استكشافَ هذه الرغبات عند الأدباء من خلال الشخصيات التي يرسمونها في رواياتهم، ولا شك أن الأدباء والفنانين أكثرُ صدقًا وأكثر شجاعةً في عَرض هذه الرغبات التي تبدو للناس منحرفة وشاذة، وهي ليست منحرفة ولا شاذة، وإنما هي جزء لا يتجزأ من تكوين أي إنسان، ويلعب الكبت وعُقَد الطفولة دورًا في إبرازها.

وهناك رأيٌ يقول إن الرغبة الجنسيَّة نحو الأطفال تكاد تكون موجودة عند كل رجل (وامرأة أيضًا)، وأنها مزيجٌ من رغباتٍ طفولية باقية ومخاوف قديمة من الكبار، وحنين دائم إلى الطفولة الجياشة بالعواطف الصادقة الطبيعية التلقائية، ونفور دائم من الكبار الذين فقدوا الصدقَ والتلقائية والعواطف.

إنَّ الطفل يفرح وتغمره السعادة لأقل شيء، وهو جيَّاش العواطف يعطي نفسَه الرغبةَ الكلية في الحب. ولهذا ينجذب كثير من الرِّجال والنِّساء إلى الأطفال ويمنحونهم الهدايا والحلوى من أجل الاستمتاع ولو لحظاتٍ بقلب الطفل الجيَّاش بالعواطف والحب. وقد يكون هؤلاء قد حُرِموا وهم أطفال من التعبير عن عواطفهم الجيَّاشة بسبب قوة الأهل، ويرغبون الآن أن يلعبوا أمام هؤلاء الأطفال دورَ الأهل المحبِّين، وحيث إنه لا يمكن فصلُ العاطفة عن الجسم فإن هذه المشاعر التي يُبْديها الكبار للأطفال لا تخلو من رغبةٍ جسدية، بل إن بعض الآباء والأمهات يعترفون برغباتهم الجسدية نحو أطفالهم بمثلِ ما يشعر الأطفال برغباتٍ جسدية نحو الأمهات أو الآباء.

على أن النضوج النفسي والجسدي يجعل الرَّجل عاجزًا عن الإشباع الجنسي والعاطفي إلا مع المرأة الناضجة، فإذا ما تعثَّر هذا النضوج لسببٍ من الأسباب السابق شرحُها، تعثَّرت علاقته بالمرأة الناضجة وفضَّل عليها علاقته بالطفلة.

وتختلف درجاتُ النضوج من رجلٍ إلى رجل، كلما زاد نضوج الرَّجل زاد إقباله على النِّساء الناضجات. والعكس صحيح، كلما قلَّ نضوج الرَّجل قلَّ إقباله على النِّساء الناضجات وزاد إقباله على البنات الصغيرات الغريرات.

ومن هنا نفهم لماذا يفضِّل معظم الرِّجال البنات الصغيرات الغريرات (القطط المغمضة). إنَّ السَّبب هو عدم النضوج؛ فالحضارة الذُّكورية (للأسباب السابق عرضُها) لم تساعد على نضوج الرِّجال؛ ولهذا يختار الرَّجل دائمًا الفتاةَ التي تصغُره بأعوام كثيرة، الساذجة الغريرة، العذراء التي لم يمسَّها أحدٌ قبله. إنَّ القيمة الكبيرة التي صنعتها

الحضارة الذُّكورية للعذرية ليست تعبيرًا عن تمسُّك الرِّجال بالأخلاق أو العفَّة (لأن الرِّجال لم يتمسَّكوا بهذه العفة فيما يتعلق بأنفسهم وفرضوها على النِّساء فحسب)، وإنما هي تعبيرٌ عن خوف الرَّجل من المرأة الناضجة، وخوفه من خبراتها السابقة مع رجالٍ آخرين قد يكون بينهم ذلك المنافس القوي، الذي قد تفضِّله المرأة عليه. إن العذرية تضمن للرجل الحصولَ على فتاةٍ لم يسبقه إليها أيُّ منافسين آخرين، إن الفتاة العذراء كالطفلة لا تخيف الرَّجل ولا تهدِّده، ويصبح معها أقدرَ على إثبات ذكورته وذاته.

وينشأ ذعرُ المجتمع من حوادث اعتداء الرِّجال على الأطفال البنات؛ لأن هؤلاء البنات يفقدن عذريتهن. ومن هنا اهتمامه بهذه الحوادث أكثرَ من اهتمامه بحوادث الاعتداء على الأطفال الذُّكور، مع أنَّ الإحصاءات في مختلِف البلاد تدل على أن الأطفال الذُّكور معرَّضون لمثل هذه الحوادث كالأطفال البنات وربما أكثر.

ويقول مُعظم علماء النَّفس إنَّ مثل هذه الاعتداءات لا تُسبِّب أيَّ ضَرَر يُذْكَر للأطفال الذُّكور أو البنات إلا إذا اكتشفها البوليس أو الأهل أو سبَّبت للطفل نوعًا من الذعر. كما أنها في معظم الحالات لا تصل إلى الحد الذي يتمزَّق فيه غشاء بكارة البنت؛ لأنها لا تكون عملية جنسية بالمعنى الصحيح، وإنما مجرَّد مداعبات جنسية للبظر والشفرتين. ويقول كينزي في هذا الصدد: «حينما يعمد الآباء والأمهات والمدرسون والمدرسات إلى التحذير الدائم للأطفال لتجنُّب الكبار دون أن يشرحوا لهم أسبابَ هذا التحذير، فإن الطفل منهم يصاب بالخوف (إلى حدِّ الهستيريا) إذا ما اقترب منه شخصٌ كبير في الشارع أو حاول أن يكلِّمه أو داعبه أو عرض عليه أن يساعده في شيء، دون أن يكون في نية هذا الشخص أيُّ رغبة في لمس الطفل. وقد اتضح للدارسين الخبراء بمشاكل الأطفال والشباب أنَّ مثل هذه الاتصالات الجنسيَّة لا تؤثِّر على الطفل بمثل ما تؤثِّر عليه الانفعالات الشديدة التي يُظهِرها الأهل أو البوليس أو غيرهم ممن يكتشفون الحادث.»

وهناك رأي يقول إنَّ فزع المجتمع والأهل من مثل هذه الحوادث يرجع إلى أنهم ينظرون إلى مثل هذه العلاقات على أنها ليست إلا شهوة جنسية خالية من الحب واستغلال الشَّخص الكبير للطفل دون مراعاة شعور هذا الطفل.

لكن بعض العلماء يقولون إنَّ الأمر ليس كذلك في معظم الحالات، وإن الطفل في أحيانٍ كثيرة يكون شغوفًا بتكرار التجربة، ولا تظهر عليه علاماتُ الاستياء إلا إذا اكتشف الأمرَ أحدٌ. كما وجدوا أن شخصية هؤلاء الأطفال قوية وجذابة، وأنهم أكثرُ من غيرهم قدرةً على إنشاء العلاقات الإنسانيَّة والصداقات مع أشخاص آخرين.

وهناك آراءٌ تقول إن مثل هذه الحوادث ضارةٌ بالطفل حتى وإن لم يصاحبها أيُّ إكراه أو استغلال؛ لأن هذه الإثارة الجنسيَّة قد تزيد من رغبة الطفل الجنسيَّة، هذه الرغبة التي يعجز عن إشباعها بسبب الظروف والضغوط من حوله. وهناك بعض أطفال عانوا من الحرمان والاضطراب العاطفي حين توقَّفت مثل هذه الاتصالات بعد أن استمرَّت فترةً من الوقت. وأن بعضًا منهم حاول (بعد أن كبر) أن يكرِّرها مع أطفال آخرين.

وقد رأى معظم العلماء أن مثل هذه العلاقات الجنسيَّة غير المتكافئة لها مخاطرها، وأن العلاقة الجنسيَّة السوية يجب أن تكون متكافئة، ويكون الطرفان متكافئين بحيث لا يكون أحدهما رجلًا كبيرًا والثاني طفلًا أو طفلة في السادسة. إن الكبير بحكم سنِّه وقوَّته سيكون مسيطرًا ومخضِعًا، والطفل سيكون الطرف الأضعف الخاضع.

كما أنَّه في الحالات القليلة التي يصل فيها الرَّجل إلى درجةٍ كبيرة من الإثارة الجنسيَّة أو نوع من العنف يصاحب قمَّة اللذة، وتلك اللحظات التي يعجز فيها الرَّجل عن التحكم في نفسه فإن الطفل يشعر بالخوف الشديد.

إنَّ الرِّجال عندما يفقدون السيطرةَ على أنفسهم حين يكونون شديدي الغضب مثلًا أو مخمورين بشدة أو شديدي الرغبة الجنسيَّة فإنهم يَبْدُون لعين الطفل مفزعي الشكل. ومن هنا الخطر من مثل هذه العلاقات، فقد يعجز الطفل في المستقبل عن إقامة العلاقات الجنسيَّة الناضجة السوية بسبب الخوف الذي ارتبط في ذهنه بالجنس. وقد وجد علماء النفس أن مثل هذه الحالات تحدُث أكثرَ في تلك الحوادث التي تقع بين الطفلة وأبيها، وأن بعض الزوجات المصابات بالبرود الجنسي تعرَّضن في طفولتهن لحوادث من هذا القبيل مع آبائهن.

وقد صادفتُ بعضَ هذه الحالات حينما قمتُ ببحثٍ ميداني عام ١٩٧٣م عن أسباب العُصاب بين النِّساء المصريات. صرَّحت لي بعض المريضات أنهن تعرَّضن لحوادث جنسية مع الأب، ولقد لاحظت أنَّ المجتمع، بل إنَّ الطبيب النفسي المعالج كثيرًا ما ينكر وجودَ مثل هذه الحوادث. إنه قد يعترف بأنَّ العم أو الخال أو الجَد أو الأخ قد يقترف مثل هذه الحوادث. لكن الأب نفسه! هذا ما هو غير ممكن (المجتمع الأبوي لا يتصوَّر أن الأب يمكن أن يخطئ).

ولستُ ممن يصرُّون على معرفة الفاعل (سواء كان أبًا أم خالًا أم خادمًا أم بوابًا) من أجل أن يعاقَب ويلقى جزاءه؛ لأن أمثال هؤلاء الرِّجال ضحايا المجتمع الذُّكوري والأسرة الأبوية، إنهم ضحايا الخوف والكبت والإحساس بالذنب والنقص. وهم ليسوا في حاجةٍ إلى

عقاب، ولكنهم في حاجةٍ إلى علاج، والعلاج هنا يجب أن يستأصل الداءَ وأسبابَ المرض في المجتمع وليس الأعراض الجسدية أو النَّفْسية فحسب.

نحو حضارةٍ أكثرَ عدالةً وأخلاقيةً

لم يَعُد خافيًا الآن أن افتقاد الحب الحقيقي في علاقات البشر، رجالًا ونساءً وأطفالًا، هو أهم عيوب الحضارة الذُّكورية القائمة على الملكية والتوريث والسلطة الأبوية، وهو أهمُّ سبب وراء المشاكل النَّفْسية والجنسيَّة للرجال والنِّساء والأطفال.

فالحب لا يمكن أن ينشأ بين أعلى وأدنى، ولا بين صاحب سلطة وخاضع لهذه السلطة. الحب لا يمكن أن ينشأ إلا في ظل العلاقات الإنسانيَّة القائمة على المساواة والعدالة والحرية والاستقلال والنضوج. وهذه الأسس جميعًا لا يمكن أن توجد في مجتمعٍ قائم على الجشع الاقتصادي والملكية والاستغلال والقهر والعنف والحروب.

ومن أجل أن يتحقَّق الحبُّ في العلاقات الإنسانيَّة داخل الأسرة وفي المجتمع لا بدَّ من الثورة على النُّظم الاجتماعية والاقتصادية المستغِلة، ولا بد من تغيير المفاهيم القديمة المتعلقة بالذَّكر والأنثى والزواج والجنس والشرف والعمل بحيث يسترد كلٌّ من الرَّجل والمرأة إنسانيتهما المفقودة وشرفهما المفقود.

وفيما يلي بعض المبادئ الأخلاقية والإنسانيَّة التي يجب أن تسود:

(١) قيمة الإنسان (رجلًا أو امرأة) يجب أن تتحدَّد حسب قدرته على العمل الخلَّاق والحب الحقيقي، وليس حسب ما يملك من ثروة أو سلطة أو انتمائه إلى طبقة.

(٢) الأغلبية هي التي تحكم وتتخذ القرارات وليس الأقلية. والأغلبية هي التي تملك الأرضَ والمال ووسائل الإنتاج وليس الأقلية.

(٣) دور الإنسان في المجتمع والحياة يتحدَّد حسب مواهبه وقدراته الفكرية وليس حسب كونه ذكرًا أو أنثى.

(٤) شرف الإنسان هو قدرته على العمل الخلَّاق والحب الحقيقي والصدق والعمل على تطوير الإنسان والمجتمع إلى الأفضل دائمًا، وشرف الرَّجل لا يختلف عن شرف المرأة.

من أهم عيوب الحضارة الذُّكورية مفهومُها عن الشرف؛ فقد ارتبط الشرف في هذه الحضارة بالحفاظ على الأعضاء الجنسيَّة فارتبط بالمرأة فقط. والغريب أن شرف الرِّجال لم يكن يتعلَّق بسلوكهم هم وإنما يتعلَّق بسلوك زوجاتهم أو بناتهم أو أمهاتهم.

فالرَّجل الفاسق شريفٌ إذا كانت زوجته لا تخونه مع رجل آخر. والرَّجل المنافق شريف طالما أن ابنته تحافظ على عذريتها قبل الزواج. والصحفي الذي ينشر الأكاذيب لحماية أي حاكم ظالم شريف طالما أن نساءَ أسرتِه يحافظن على فروجهن وعذريتهن. شرف الرَّجل يتعلَّق بسلوك امرأته في البيت، ولا يتعلَّق بسلوك هذا الرَّجل أو قدرته على العمل الخلاق أو الصدق أو الدفاع عن الحق والعدالة والحب والحرية.

وهذا مفهوم مضحك للشرف، يهبط بمستوى الشرف إلى منطقةٍ صغيرة سفلية في جسم المرأة لا تزيد على غشاء البكارة،[١] ويربط الشرفَ بالنصف الأسفل من جسم الإنسان، ويحدِّده بحدود الممارسة الجنسيَّة.

إنَّ كلمة الزِّنا أو الرَّذيلة أو الدعارة كلها تعني الممارسات الجنسيَّة. وكلمة الشرف أو الفضيلة تعني عدم استخدام الإنسان لأعضائه الجنسيَّة إلا حسب القانون. وهذا بالطبع يقصر الشرفَ أو الفضيلة على عضوٍ من أعضاء جسم الإنسان، ليس هو أهم أعضاء جسم الإنسان. كما أنه يقصر الشرفَ أو الفضيلة على أحد أنشطة الإنسان، وهو النشاط الجنسي، الذي هو أيضًا ليس أهم نشاط في حياة الإنسان.

ولو تعمَّقنا قليلًا لأدركنا أن أهم عضو في جسم الإنسان هو مخُّه، وأن أهم نشاط في حياة الإنسان هو النشاط العقلي والفكري، بل إنه النشاط الوحيد الذي يميز الإنسانَ عن سائر الحيوانات الأخرى. ولا شك أن ارتباط الشرف بالنشاط الجنسي فقط يجعل الإنسان يتصوَّر أنه شريفٌ ما دام هو يحافظ على أعضائه الجنسيَّة ولا يمارس الجنس إلا حسب القانون.

أما الزنا الفكري والدعارة العقلية فهذه أشياء لا علاقة لها بالشرف. إن الموظف قد ينافق رئيسه، والصحفي قد يكتب مقالًا يزيِّف فيه الحقائق، والطبيب قد يجهل التشخيص

---

[١] انظر مفهوم العذرية والشرف في «المرأة والجنس»، ص١٠.

ومع ذلك يكتب الدواء ويقبض الثَّمن، والتاجر قد ينتهز فرصة جهل الشاري بالتسعيرة ويغالي في السعر، والأب قد ينتهز فرصةَ ثراء العريس فيرغِم ابنته على الزواج به، ويدفعها إلى أن تكذب عليه وتتظاهر بالحب له، ويجعل فترة الخطوبة أطولَ ما يمكن لاستنزاف الهدايا والأموال من العريس ... وهكذا إلى آخرِ هذه النماذج التي تحدُث كلَّ يوم في حياة معظم النَّاس، والتي هي ليست إلا أنواعًا مختلفة من الزنا الاجتماعي والدعارة الفكرية، ومع ذلك فكل هؤلاء النَّاس طالما أنهم يحافظون على أعضائهم الجنسيَّة فهم يتصوَّرون أنفسهم شرفاء. أو بعبارةٍ أصحَّ أنهم شرفاء ما دامت زوجاتهم أو بناتهم أو قريباتهم من النِّساء يحافظن على أعضائهن الجنسيَّة.

ومن أجل رفع مستوى الشرف إلى درجةٍ أخلاقية أعلى لا بدَّ أن يتعلَّق الشرف برأس الإنسان لا بنصفه الأسفل، ولا بدَّ أن يكون كل فرد (رجلًا أو امرأة) مسئولًا عن سلوكه وعن أفكاره أمام الآخرين.

(٥) العلاقة الزوجية بين الرَّجل والمرأة تتم على أساسٍ من الحب والصدق والحرية والاختيار بحيث لا يسيطر الرَّجل على المرأة، وبحيث لا يملك الرَّجل المرأةَ أو الأطفال، وإنما ترتكز العلاقة داخل الأسرة على التساوي في جميع الحقوق والواجبات بما في ذلك الإنفاق والنسب والعمل داخل البيت وخارجه.

(٦) أي طفل يولَد فهو طفل شريف وشرعي، ومن حقه أن يحصُل على اسم أمه وأبيه، ويتساوى اسم الأم مع اسم الأب في الشرف الاجتماعي والأخلاقي، وبهذا تُمحَى من الوجود تلك الظاهرة المسمَّاة بالأطفال غير الشرعيين. ومن حق كل طفل أن يحصُل على الرعاية والغذاء والتعليم والعمل الخلَّاق بصرف النظر عن انتمائه إلى أسرة أو طبقة.

(٧) من حق كل امرأة أن تعمل العملَ الذي تختاره حسب إمكانياتها ومواهبها، وتتقاضى على عملها أجرًا مساويًا لأجر الرَّجل عن العمل نفسه، وبحيث لا تُضطر أيُّ امرأة إلى المتاجرة بجسدها من أجل العيش، وبهذا تُمحَى من الوجود تلك الظاهرة المسمَّاة المومسات.

(٨) جميع الأعمال في جميع المجالات مفتوحة للنساء وللرجال بالتساوي دون تفرقةٍ بسبب الجنس أو النَّسب أو الحَسَب.

(٩) يحق للمرأة الوصاية والولاية والشهادة والإرث تمامًا كالرَّجل بغير أي تفرقة (بالطبع لن يكون هناك إرثٌ بانتهاء الملكية، ويتساوى الرَّجل والمرأة في الكفاح في الحياة دون الاعتماد على حَسَبٍ أو نَسَب أو إرث).

(١٠) يحق للمرأة أن تستخدم من وسائل منْع الحمل ما يناسبها، وهي صاحبة القرار فيما يخصُّ حياتها وجسدها والجنين داخل جسدها. إنَّ اكتشاف وسائل منع الحمل واكتشاف وسائل الإجهاض الطِّبية التي تتم بغير ألمٍ وبغير تخدير، كلٌّ ذلك مساهمة علمية حديثة في تصحيح الخطأ التَّاريخي الذي بمقتضاه امتلك الرَّجل الجنين داخل جسد المرأة. إنَّ الجنين جزءٌ من جسد المرأة، وهي صاحبة القرار في الاحتفاظ به أو عدم الاحتفاظ به.

(١١) حينما تسود القيم الإنسانيَّة على قيم الملكية والامتلاك فسوف تصبح العلاقات بين الأفراد قائمةً على التعاون وليس التنافس والعدوان. وكذلك سوف تصبح العلاقات بين الدول قائمةً على التعاون، وليس على الاستعمار والاستغلال والحروب.

من الواضح أن تحقيق المبادئ السابقة يحتاج إلى ثورة. لكن مأساة معظم الثورات أنها تملك الحقَّ ولا تملك القوة؛ فالقوة دائمًا في يدِ الأقلية القليلة التي تملك المال والجيش والبوليس والقضاء والمؤسَّسات الأخرى في المجتمع. والمأساة أيضًا أنَّ كثيرًا من الرِّجال يتصوَّرون أن تحرير المرأة قضيةٌ منفصلة عن قضية تحرير الطبقات الكادحة المضطهدة اقتصاديًّا وسياسيًّا، والمأساة أيضًا أنَّ كثيرًا من النِّساء يتصوَّرن أن قضية تحرير المرأة ليست إلا قضية خاصة بالنِّساء ولا تخص الرِّجال، وأنها تنحصر في المطالبة بتغيير بعض القوانين مثل قانون الإجهاض، أو قانون تحديد النسل، أو قانون الزواج أو الطلاق … إلخ، في حين أن قضية تحرير النِّساء لا تنفصل عن قضية تحرير الرِّجال، وهي قضية سياسية اقتصادية أساسًا وليست مجرد قضية جنسية أو اجتماعية.

إنَّ بعض النَّاس قد يعترضون على بعض المبادئ السابقة بحجةِ أنها تخالف الأديان والمقدسات، ولكني أعتقد أن جميع المبادئ السابقة لا يمكن أن يختلف عليها أيُّ دين؛ لأنها تدعو إلى الحق والحرية والعدالة والمساواة والحب، هذه المبادئ تنادي بها جميع الأديان من البوذية إلى الإسلام.

أمَّا القول بأن هناك بعضَ الأفكار المقدسة التي يجب ألا تُناقَش أو تُمَس فهذا اتجاه ضد الدِّين؛ لأن الأديان تدعو الإنسان إلى استخدام عقله من أجل أن يطوِّر حياته وحياة مجتمعه إلى الأفضل والأسعد.

أمَّا أنَّ بعض رجال الدِّين يحاربون التفكيرَ العقلي فهذا أمرٌ معروف في التَّاريخ. وقد حوكم جاليلو بتهمة تكذيب الكنيسة حين قال إنَّ الأرض تدور حول الشمس. واعترف العالَم بصدقِ جاليلو وكذَّب الأفكار المقدسة التي آمن بها بعض رجال الكنيسة.

وربما يتهمني بعض النَّاس بأنني ضد الدِّين أو ضد الأخلاق أو أنادي بالفوضى الجنسيَّة، ولكني أردُّ على هؤلاء بهذه النقاط الأساسية:

(١) إنَّ الحضارة التي نعيشها حضارةٌ غير أخلاقية؛ لأنها تجعل من النِّساء والأطفال أكباشَ فداءٍ لأخطاء الرِّجال. والمبدأ الأخلاقي هو أنَّ كل إنسان مسئول عن خطئه وليس من الأخلاق أن تتحمَّل النِّساء والأطفال وِزْرَ أخطاء الرِّجال وفوضاهم الجنسيَّة، وأنا أطالب بحضارةٍ أخلاقيةٍ ترتكز على المبدأ الأخلاقي الذي يقول إنَّ كل إنسان مسئول عن سلوكه وأفكاره. المرأة مسئولة عن سلوكها وأفكارها والرَّجل مسئول عن سلوكه وأفكاره.

(٢) حياة الرِّجال الجنسيَّة غيرُ أخلاقية؛ لأن الرَّجل يمارس الجنس دون أن يتحمَّل مسئوليةَ هذا الفعل، ولأن الرَّجل يطلِّق زوجته ويشرِّد أطفاله من أجل نزوة جنسية، ولأن الرَّجل يذهب إلى المومسات ويدفع لهن أجرًا، ثم يصبح بعد كل ذلك أمام القانون غيرَ مدان وغير مخطئ، وإنما المرأة هي المخطئة وحدَها.

(٣) علاقة الرَّجل بأطفاله غير الشرعيين علاقةٌ غير أخلاقية؛ لأنه هو الذي ينجبهم ثم يتخلَّى عنهم ويحرِمهم من اسمه وميراثه، أي يفرِّق بينهم وبين إخوتهم الشرعيين، وهذا موقفٌ غير أخلاقي تجاه أطفال أبرياء.

(٤) العلاقة بين الرَّجل والمرأة يجب أن تقوم على أساسِ الحبِّ المتبادل وليس لأسبابٍ نفعية واقتصادية، وإلا أصبحت كالدعارة سواء بسواء. ولهذا أنا أطالب بتطهير الزواج من الأسباب الاقتصادية والنفعية ليصبح زواجًا شريفًا قائمًا على الحب الصادق وليس على المتاجرة بالبنات من أجل أن يثرى الآباء أو يسدِّدوا ديونهم.

(٥) لقد فقد الشرف مضمونَه الحقيقي وجوهره من حيث الصدق، وأصبح الشرف مجرد القدرة على توقيع العقود أو التظاهر بشيء أمام النَّاس وفعل شيء آخر في الخفاء. وأنا أطالب بأن يتمسَّك النَّاس بجوهر الشرف من حيث الصدق والعدالة والمساواة والحرية والحب.

(٦) أنا أطالب بأن يكون للإنسان حياةٌ واحدة هي حياته العلنية، وهذا هو الأساس الوحيد للشرف والصدق، لكن الحضارة الذُّكورية جعلت لكل إنسان حياتين؛ حياة علنية يدَّعي فيها الشرف، وحياة سرِّية يمارس فيها جميع نزواته.

(٧) أنْ تموت الأغلبية جوعًا وفقرًا وإرهاقًا على حين تتخم الأقلية شبعًا وتَرفًا وكسلًا أمرٌ غير أخلاقي وغير إنساني، وأنا أطالب بأن يتحقَّق المبدأ الأخلاقي الذي ينادي بالمساواة بين البشر.

(٨) أنْ يصبح الإنسان عبدًا للنظام الاجتماعي والاقتصادي في مجتمعه أمرٌ غير أخلاقي، وأنا أطالب بأن يكون الإنسان سيدَ مصيره قادرًا على تغيير النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي يسرق جهدَه ويستغله ويسحقه ويحوِّله إلى أداة، وضحية في يد الظروف والقدَر.

(٩) أنْ يعيش الرِّجال والنِّساء والأطفال حياةً تعيسة قائمة على السلطة والامتلاك والخوف أمرٌ غير أخلاقي، وأنْ يعاني الكبار والصغار من مشاكل نفسية أمرٌ غير أخلاقي، وأنا أطالب بأن تصبح حياة الرِّجال والنِّساء والأطفال حياةً سعيدة، قائمة على الحب والتعاون والتساوي والحرية والاختيار.

(١٠) أن يلغيَ النَّاس عقولَهم خوفًا من الاتهام بالمساس بالمقدسات أمرٌ غير أخلاقي؛ لأن الفَرق بين الإنسان والحيوان هو العقل، وحرمان الإنسان من عقله هبوطٌ به إلى مستوى الحيوان. وأنا أطالب بأن يستخدم كل إنسان عقلَه بحرِّية ومسئولية من أجل صنْع حياة أفضل وأسعد وأكثر صحةً وحبًّا وعملًا خلاقًا.

(١١) أنْ تتناقض القيم الدِّينية والمواعظ الأخلاقية وما يُذاع على النَّاس من راديو وتليفزيون وسينما ومجلات ورقصات عارية وإعلانات تجارية تعرِّي جسدَ المرأة، هذا التناقض أمرٌ غير أخلاقي، وأنا أطالب بألا تتناقض قيم المجتمع سواء كانت دينية أو تجارية.

(١٢) أن تتاح الحرية الجنسيَّة لنصف المجتمع من الذُّكور على أن يُكبَّل النصف الآخر (النِّساء) أمرٌ غير أخلاقي؛ لأن النصف المنطلِق سوف يلجأ إلى خداع النصف المكبَّل، وينتج عن تلك الازدواجية الأخلاقية عديدٌ من المشاكل غير الأخلاقية وغير الإنسانيَّة.

(١٣) إنَّ تضخيم الذُّكورة وتصغير الأنوثة أمرٌ غير أخلاقي؛ لأنه يصيب الرِّجال والنِّساء معًا بعُقَد النقص وعُقَد العظَمة، وما يترتَّب على ذلك من مشاكل نفسية وجسدية واجتماعية.

(١٤) الصدق هو الذي يمنح الشرف للعلاقات الإنسانيَّة، ويمنح العمل القدرةَ على الخلق والتجديد، والصدق يحتاج إلى الحرية والاستقلال والنضوج، وهذه أمورٌ لا يمكن أن تحدُث في وسط علاقات قائمة على الخوف والطاعة العمياء.

ولهذا فإنَّ المطلوب هو تحريرُ الأسرة والمجتمع من الكذب والتناقضات والخوف والطاعة العمياء والتضليل والازدواجية والاستغلال والقهر الجسدي والنفسي والاقتصادي للرجال والنِّساء والأطفال معًا.

والمطلوب أيضًا هو توحيد الإنسان جسدًا ونفسًا، أن يكون الرَّجل (والمرأة أيضًا) وحدةً واحدة جسدًا ونفسًا بغير انفصام، وألا نعزل الجنس عن الحياة. كثير من النَّاس يحاولون عزل موضوع الجنس عن الحياة، إما لأن لديهم مشاكلَ جنسية تعترض حياتهم ويهربون من مواجهتها، أو لأنهم يريدون أن يكون الجنس أمرًا سريًّا لا يعرفه أحد. إنهم يفصلون بين الجنس والحياة كما يفصلون بين نصفهم الأعلى ونصفهم الأسفل، ويتعاملون مع أعضائهم الجسمية بشكل، ويتعاملون مع أعضائهم الجنسيَّة بشكل آخر.

إنَّ العلاقات الاجتماعيَّة السَّطحية السَّريعة لا يُمثِّل الجنس فيها شيئًا ذا بال، ولكن العلاقات العميقة المعقَّدة ذات المشاعر والأحاسيس يمثِّل الجنس فيها جزءًا مهمًّا، وإنَّ الكتابة في الجنس هي الكتابة في عمق حياتنا، في عمق أجسادنا وشخصياتنا، بل إن العلاقات السياسية والاجتماعية، وعلاقات العمل السريعة السطحية يلعب الجنس فيها أحيانًا من وراء الستار دورًا هامًّا، فيشوِّه العلاقة أو يحرِّفها عن هدفها الأساسي، أو يبالغ في أشياء ويقلل من أشياء أخرى دون أي داعٍ موضوعي.

إنَّ بعض الحكام والساسة الزعماء يجدون لذةً في تعذيب الذين يخالفونهم الرأيَ أو هم يغيِّرون مستقبل بلادهم إلى الأفضل أو إلى الأسوأ لأسبابٍ في نفوسهم وعُقَد جنسية وشخصية إلى حدِّ أن قال أحد المؤرخين: إنَّ المشوَّهين نفسيًّا وجنسيًّا هم الذين يصلون إلى الحكم والصدارة والزعامة؛ ذلك لأن طاقتهم النَّفْسية والجنسيَّة تنحرف عن طريق الحب والعلاقات الحميمة بين النَّاس إلى البطش والسيطرة والمناورة والعدوان، وهذه الصفات الأربع هي الدعائم الأساسية للوصول إلى الحكم في عالمنا الحديث المرتكِز على حضارة ذكورية ذات جانب واحد، هو الجانب العدواني القائم على التنافس والغَيرة والحرب والتدمير، وليس على التعاون والحب والبناء.

إنَّ عدم التوازن في الحضارة الحديثة ناتجٌ عن أن نصف البشر (وهم ذكور) فقط هم الذين صنعوا الحضارة، حضارة من وجهة نظرهم فقط. أما النصف الآخر من البشرية (النِّساء) فقد كانوا متفرجاتٍ فقط، متفرجات من وراء قضبان حديدية، اعتقلهن الرِّجالُ خلفها حتى لا يتمردن على القوانين الباطشة القائمة على القهر الجسدي والاقتصادي معًا.

لا يمكن أن ننفصل عن أجسامنا، فنحن نحملها معنا في كل مكان. على حسب علاقة الواحد منا بجسده تتحدَّد علاقته بالآخرين، إن كانت علاقة سريعة وسطحية كمجرد مصافحة الأيدي في لقاء عابر. إنك قد تصافح إنسانًا في لقاءٍ عابر فلا تنسى هذه المصافحة فترةً طويلة؛ لأنها مسَّت فيك شيئًا، ولأنه حطَّم جدارًا ووصل إليك في لحظة لقاء حميم.

مثل هذا الإنسان طبيعي مع جسده؛ ولذلك هو طبيعي مع أجساد الآخرين. وهناك مَن يصافحك فتلامس يدُك يدَه وتشعر بنفور أو بابتعاد عنه أو بأنه بعيدٌ عنك أو أنه لا يعطيك يدَه بقدرِ ما يأخذ منك يدَك، أو أنه يعطيك يدًا متراخية باردة فاقدة المشاعر، أو لا يعطيك إلا أطراف أصابعه.

هؤلاء المعقَّدون جنسيًّا الذين يعانون من مشاكلَ ما في علاقتهم بأجسادهم يعجزون بالطبع عن إقامةِ علاقاتٍ سوية مع الآخرين. إنهم لا يستطيعون أن يُظهِروا أنفسَهم على حقيقتها؛ ولهذا يتوارون خلف قناع من البرود أو التكبُّر أو الاكتئاب أو الابتعاد عن أي محاولة للاقتراب منهم. أمَّا هؤلاء الذين عرفوا سعادةَ الحياة الجنسيَّة وسعادة الجسد حين يكون حرًّا مطلقًا غير معقَّد فإنهم لا يخشون العلاقات الحميمة، وهم أقلُّ حذرًا في إقامة علاقاتٍ مع النَّاس، سواء كانت فكرية أو عاطفية أو جسدية.

إن النضوج الجنسي لا يتم بغير النضوج العاطفي، وهذا النضوج يساعد الإنسانَ على إقامة علاقة مستقرة مع الجنس الآخر مشبعة نفسيًّا وفكريًّا وجسديًّا، حيث تشكل فيها العلاقة الجنسيَّة الوسيلةَ الأساسية للتعبير عن الحب (وإن لم تكن الوسيلة الوحيدة).

إنَّ توقُّف النمو النفسي أو العاطفي أو الجنسي يدفع الإنسان إلى أحدِ هذه الحلول:

(١) إما أن يرغب في طفل.
(٢) أو يستعيض عن العلاقة الجنسيَّة بعلاقةٍ أخرى بديلة.
(٣) أو يقيم العلاقة ليس مع الأشخاص وإنما مع أشياءَ يمتلكها.
(٤) أو بملاحظةِ نشاطات الآخرين الجنسيَّة.

وقد وجِد أنه بالنسبة للشخص الناضج فإن العلاقة الجنسيَّة بالجنس الآخر هي أكثرُ العلاقات إشباعًا له؛ ولهذا تُعتبر الشكل الأساسي للعلاقة الجنسيَّة لمعظم الناضجين في معظم الأوقات. وهذا لا يعني أنها الشكل الوحيد، أو أن الأشخاص الناضجين الطبيعيين لا يمارسون أيَّ شكل آخر سوى هذا الشكل، أو أنهم لا يلجئون أحيانًا إلى تنوُّع في علاقاتهم أو وسائل مختلفة تجدِّد إثارتهم. لكن بصفة عامة، إنَّ نضوج الشخصية لا بدَّ أن يشمل النضوج الجنسي والعاطفي معًا، ونضوج الشخصية لا يظهر إلا في العلاقات مع الآخرين.

الإنسان يحتاج إلى الآخرين؛ ليعرف إذا كان ناضجًا أم غير ناضج.

والعلاقة الجنسيَّة تحتاج إلى آخرين. هناك علاقة جنسية لا تحتاج إلى آخرين مثل الإشباع الذاتي أو العادة السرِّية، ولكنَّ أحلام اليقظة التي تصاحب هذا النشاط تشتمل

على آخرين. العلاقة الجنسيَّة الناضجة هي بين رجل وامرأة ناضجين حيث يكون التبادل (الأخذ والعطاء) متساويًا، وحيث تكون الأعضاء الجنسيَّة هي أهم الأعضاء التي من خلالها يتم التعبير عن الحب وتلقِّيه. إنها من أهم أسباب سعادة الإنسان ولذَّته في الحياة، وهي أيضًا لها نهاية كاملة الإشباع، ومع ذلك يمكن أن تعاد مرةً أخرى بغير نهاية. ما من شيء في الحياة يحتمل هذا التكرار والإعادة المستمرة وإن كان أعظم القِطع الموسيقية جمالًا؛ فالإنسان يملُّ التكرار والإعادة.

لكن هذه التجربة الرائعة الخصبة المخصبة لا تكون ممكنة إلا حينما يكون الرَّجل والمرأة قد نجحا في إقامة علاقة بينهما، وأنهما على الأقل (حين يمارسان الحبَّ معًا) يستطيعان أن يواجه كلٌّ منهما الآخر على حقيقته وكما هو بلا تحفُّظات وبلا أقنعة وبلا رواسب طفولية من الخوف أو النقص أو عدم الاستقلال.

وفي مثل هذه العلاقات الحميمة جدًّا نحن جميعًا شديدو الحساسية، تتعرَّى نقاط الضَّعف فينا، ونحن نكشف من أنفسنا على قدرِ ما في أنفسنا. إذا كان الواحد منا لم يُفْطَم تمامًا من أمه فسوف تنكشف على الفور طفولته في التصرُّف الجنسي. إنَّ الانحراف الجنسي — بصفة عامة — ليس إلا استمرار أجزاء من الطفولة في شخصية الرَّجل أو المرأة.

التردُّد أو القلق أو العدوان في معاملة الآخرين ليست إلا بقايا صفاتٍ طفولية. وبقدرِ ما يتغلَّب الإنسان على طفولته بقدرِ ما يقترب من النضوج، والصفات الطفولية تحدِّدها علاقةُ الطفل السابقة بأبيه وأمه. إذا كانت هذه العلاقة قوامها الحب والقبول فإن الطفل يصل إلى النضوج بسهولةٍ أكثر، لكن إذا كان الطفل قد شعر أنه غير مرغوب من أبيه أو من أمِّه فإنه يتعثَّر في إقامة علاقة حميمة وناضجة ومشبعة.

حين يسمع بعض النَّاس عن انحرافٍ جنسيٍّ ما فإنهم يبالغون في قذف صاحبه بأحطِّ الصفات. أغلب الظن أن هؤلاء هم الذين يشعرون أكثرَ من غيرهم بهذا الانحراف باقيًا في نفوسهم؛ فمن المعروف أنَّ الشيء الذي لا يُقْبَل أو لا يُهضَم بواسطة شخصٍ ما هو الشيء الذي بقي معه وظلَّ في أعماقه ثابتًا غير قابل للتطور.

لكن بالنسبة للإنسان الناضج الفاهم فإن الانحراف الجنسي أمرٌ يستدعي التعاطف والتفهم أكثرَ من الشتيمة والسخرية والاحتقار. أما هؤلاء الذين لا يفعلون شيئًا إزاء هذا سوى هزِّ أكتافهم تأففًا وسخرية ثم يهربون بعيدًا فإنهم يكشفون (لمن يفهم) أنهم إنما يهربون من شيء مماثل في نفوسهم.

جميعنا، كما قلتُ سابقًا، نحتوي على بذورِ الانحرافات الجنسيَّة والعاطفية بشتى أشكالها وألوانها، وجميعنا لم نتخلَّص بدرجاتٍ متفاوتة من طفولتنا وعلاقتنا بآبائنا وأمهاتنا.

عند بعض المنحرفين نجد محاولةً للنضج مستمرة، قد تكون بائسة، ولكنها محاولة تستحق منا التقدير، وهي قيمة إنسانيَّة في حد ذاتها، قيمة عليا تعني أن الإنسان يكافح دائمًا من أجل الارتقاء بنفسه إلى مستوًى أعلى دائمًا.

ولأن الانحرافات والمشاكل الجنسيَّة والنَّفْسية هي نتاجُ مشاعر الطفولة من ذنبٍ ونقص وخوف، ولأن الأسرة الأبوية هي النواة التي تنمو فيها هذه المشاعر وتتغذى؛ لهذا فإنني أطالب بتغيير الأسرة الأبوية لتكون أسرةً بغير سلطة الأب. وليس معنى ذلك أن تحلَّ سلطة الأم محلَّ سلطة الأب كما كان الأمر في أُسَر الأمومة، ولكني أطالب بتحرير الأسرة من أية سلطة، سواء كانت أبوية أو أمومة، بمعنًى آخر أن يحلَّ الحبُّ محلَّ السلطة داخل الأسرة، الحب غير المشروط بالطاعة، والحب غير المشروط بالملكية، والحب غير المشروط بالعلاقات البيولوجية أو علاقات الدم؛ أي أن يحب الإنسانُ أطفاله وأطفال الغير سواء بسواء، وهذه هي الإنسانيَّة أو قمة الأخلاق. إن الحيوانات تحب أطفالها وتطعمهم، وليس هناك فضلٌ لإنسانٍ يحب أطفاله ويطعمهم، ولكن الفضل هو أن يرتفع الحب الإنساني فوق روابط الدم وفوق العلاقات البيولوجية، وهذا هو كفاح الإنسان الدائم من أجل الارتقاء بنفسه إلى مستوًى أعلى دائمًا.

والمطلوب أيضًا هو المساواة الكاملة بين الرَّجل والمرأة في جميع نواحي الحياة بغير استثناء، بدون هذه المساواة لا يمكن للنساء أن ينبُغن في الحياة الفكرية، ولا أن تظهر من بينهن عبقرياتٌ أو عظيمات في أي مجال كما يظهر من بين الرِّجال.

ربما يكون صحيحًا ما يقال من أنَّ وراء كل رجل عظيم امرأة؛ لأن الإنسان الذي يريد أن يكون عظيمًا في العلم مثلًا أو الفن لا بدَّ وأن يتفرَّغ له ويبذل ساعاتِ يومه في القراءة والدراسة والتفكير والتمحيص وغير ذلك من الجهد الضَّروري للوصول إلى شيء عظيم. بمعنًى آخر لا بدَّ أن يتفرغ الإنسان لهذا العمل ولا يشغَل نفسَه بالأعمال الأخرى المتعلِّقة بأكله وشربه ونومه وغسل ملابسه ومشاكل البيت ومطالب الأطفال وشراء الخضار ومحاسبة البقال والجزار. الإنسان العظيم الذي ينبُغ في علمٍ أو فن لا بدَّ له من امرأة تقوم بهذه الأعمال وتوفِّر له الراحة والهدوء اللازمين للبحث والاطلاع والتفكير. ومن هنا ما يقال: إنَّ الرَّجل العظيم وراءه امرأة.

ولكن مَن هو وراء المرأة العظيمة؟ مَن هو وراء المرأة التي نبغَت في علم من العلوم أو فن من الفنون؟

إنَّ الذي يبحث في حياة النِّساء اللائي برزن في هذه الحضارة التي نعيشها يجد أنهن قليلات العدد جدًّا؛ لأنهن يحاربن قيودًا داخل البيت وخارجه تحول دون وصولهن إلى التفوق في أي مجال. ونجد أيضًا أن الذي وراءه تفوُّقهن وعظمتهن ليس هو الرَّجل، بل العكس هو الصحيح، إنَّ الرَّجل هو الذي يحول بين المرأة وبين العظمة في أي مجال.

لأنَّ معظم هؤلاء النِّساء العظيمات كُنَّ وحيداتٍ بغير أزواج، مطلَّقات أو أرامل أو رفضن الزواج أصلًا. بمعنًى آخر ليس وراء هؤلاء النِّساء إلا أنفسهن وكفاحهن المرير الطويل ووحدتهن القاسية، بالإضافة إلى الاتهامات التي قد تنهال عليهن من المجتمع بأنهن شواذٌّ ونساء غير طبيعيات.

أمَّا الرَّجل فإنه قد يسبِّب للمرأة أشياءَ أخرى غير العظمة والنبوغ، إنه قد يُسبِّب لها المشاكل والأمراض على اختلاف أنواعها، بل قد يسبِّب لها الموت أيضًا، وليس هذا بالغريب في صعيد مصر، حيث لا تزال تُقْتَل النِّساء بسبب عدم ثبوت العذرية، أو الحَمْل بغير زواج، أو أسباب أخرى يحكم عليها الأب أو الزوج (أو الأخ أو ابن العم) بأنها غير أخلاقية أو ضد التقاليد.

من أهم المشاكل التي يسبِّبها الرَّجل للمرأة هو المرض النفسي أو العُصاب وأحيانًا الجنون الكامل. وقد أجريتُ بحثًا عام ١٩٧٢م بقسم الأمراض النَّفْسية بكلية طب عين شمس عن أسباب العُصاب بين النِّساء، واتضح لي أن السَّبب الأول كان هو الرَّجل، الأب أو الزوج أو أي رجل آخر ينصِّب نفسه مسئولًا عن الأسرة.

وقد اتضح لي أيضًا أنَّ من أهم الأسباب التي تسبِّب المرض النفسي للمرأة هو حرمانها من التعليم أو العمل أو إثبات ذاتها على اعتبارها إنسانًا ليس له عقل وذكاء خارج وظيفة البيت والزواج والأطفال.

وعلى هذا يمكن القول إنَّ الحضارة الذُّكورية والأسرة الأبوية تقتل ذكاء المرأة، وتحارب تفوُّق المرأة وإثبات عبقريتها. وكم يمتلئ التَّاريخ بنماذجَ لنساءٍ عبقريات وصلن إلى حافة الجنون أو الانتحار بسبب معوِّقات الحضارة الذُّكورية لإمكانياتهن الفكريَّة! كلنا نعرف كيف انتحرت أديبةٌ عظيمة مثل فرجينيا وولف، وكلنا نعرف كيف حكم المجتمع الذُّكوري على أديبة عظيمة مثل «مي زيادة» بالمرض النفسي والوحدة ثم الموت.

ولهذا فإنَّ الدعوة إلى المساواة الكاملة بين الرَّجل والمرأة دعوةٌ أخلاقية ودعوة إنسانيَّة، أما التفرقة فهي ضد الأخلاق وضد الإنسانيَّة.

هنداوي